نوابغ

سِيَر وحوارات

@ketab_n

نقلها إلى العربية:

سعيد بوخليط

12.9.2015

جداول Jadawel

نوابغ

سِيَر وحوارات

نقلها إلى العربية:

سعيد بو خليط

جداول Jadawel

Twitter: @ketab_n

نـــوابـــغ

سِيَـر وحوارات

Twitter: @ketab_n

الكتاب: **نوابغ.. سِيَروحوارات**

نقلها إلى العربية: **سعيد بو خليط**

جداول

للنشر والترجمة والتوزيع

الحمرا - شارع الكويت - بناية البركة - الطابق الأول

هاتف: 746638 1 00961 - فاكس: 746637 1 00961

ص.ب: 5558 - 13 شوران - بيروت - لبنان

email: d.jadawel@gmail.com

www.jadawel.net

الطبعة الأولى

أيّار/ مايو 2012

ISBN 978-614-418-120-1

جميع الحقوق محفوظة © جداول للنشر والترجمة والتوزيع

لا يجوز نسخ أو استعمال أي جزء من الكتاب في أي شكل من الأشكال أو بأية وسيلة من الوسائل سواء التصويرية أم الإلكترونية أم الميكانيكية، بما في ذلك النسخ الفوتوغرافي والتسجيل على أشرطة أو سواها وحفظ المعلومات واسترجاعها دون إذن خطي من الناشر.

طبع في لبنان

Copyright © Jadawel S.A.R.L.

Hamra Str. - Al-Barakah Bldg.

P.O.Box: 5558-13 Shouran

Beirut - Lebanon

First Published 2012 Beirut

تصميم الغلاف: محمد ج. إبراهيم

Twitter: @ketab_n

المحتويات

مقدمة 7

هيرتا مولر: الكتابة أنقذت نوبل 11

مع: جون ماري غوستاف لوكليزيو 24

لوكليزيو: ضرورة سماع صوت الآخرين 33

الطاهر بن جلون: الأوغاد، يموتون فوق أسرّتهم 52

الطاهر بن جلون: تأبين صداقة 56

آلان ميري: الأدب والمال 61

خوان غويتسولو: جامع الفنا، تراث شفوي للبشرية 70

الروائي ميلان كونديرا 80

فرانز كافكا وغرامياته المستحيلة 98

عبد الله الطايع، ونشوة الحرية 105

روبير سولي: صنع الله إبراهيم 111

Twitter: @ketab_n

روبير سولي: صنع الله إبراهيم، ثورة مصر 116

ميشيل فوكو: بكل انسيابية 122

ميشيل فوكو: الدرس الأخير (1) 137

إدوارد سعيد: اللغة العربية، بين رولس رويس وڤولكز ڤاكن 148

لوي ألتوسير، العبقرية والهذيان: رسائل إلى إيلين 158

غوغان قاطع أذن ڤان غوغ 175

لوكليزيو: سالينجر، الروائي الخالد 181

كلود ليفي ستراوس: رجل خالد 185

جواد مديديش: أبراهام السرفاتي، مغربي مرهف الحس، في عباءة ثوري خالد 196

هند التعارجي: السرفاتي، رمز حقبة 200

رحيل هنري ميشونيك 204

أليت أرميل: الوجه الخفي لجائزة نوبل 211

Twitter: @ketab_n

مقدمة

هي مقالات، ترجمتها إلى العربية، يتعدّد زمانها وتختلف سياقات ورودها، بيدَ أنها، تلتقي عند ثلاث محدّدات أساسية:

تُنسب لعلم من أعلام الفكر الإنساني في روافده الثقافية والسياسية. أو تتحدث عنه، بناءً على رؤية معينة. ثم مقاربات أخرى، تطرقت لقضية جوهرية. لذلك، ارتأيت تجميعها بين دفتي عمل واحد، وأتقاسم بالتالي، لذتها ومتعتها ومضامينها المعرفية الغنية، مع القارئ.

حقًّا، لم يكن الأمر وليد مخطط حاضر قبلًا، بل يعتبر النتاج حصيلة تراكمات اشتغال يلاحق الجديد، في حدود ـ طبعًا ـ قدراتي ومكناتي الفكرية والذاتية، فتجمعت هكذا، مادة نظرية لا غنى عنها، حرّضتني على توثيقها، كي تمارس بشكل من الأشكال وباستمرار، زخمها المفهومي والمنهجي. نصوص، استقيتها من مجلات فرنسية متخصصة، وكذا ملفات ثقافية تحويها أسبوعيًّا، جرائد عريقة.

صحيح، قد يحضر ضمنيًّا، بعد الرمزية والريادة، بمعنى الاتّجاه المقصود صوب أسماء بعينها مكرسة تاريخيًّا، لأنها عريقة في ميادينها. ممّا أضفى، شئنا أم أبينا، طابع التقنين

Twitter: @ketab_n

المؤسساتي الذي يظل لصيقًا بالمركز والقائم، ثم يغفل المنسي واللّامفكر فيه. وإلّا فما مبرر، أن تتآلف بين طيات هذه الباكورة نماذج مشهورة، أمثال: هيرتا مولر، جون ماري غوستاف لوكليزيو، خوان غويتسولو، ميلان كونديرا، فرانز كافكا، ميشيل فوكو، لوي ألتوسير، صنع الله إبراهيم، بن جلون، إدوارد سعيد، ڤان غوغ، كلود ليفي ستراوس، هنري ميشونيك، أبراهام السرفاتي، سالينجر....

لم يشتغل هنا، منطق الاختفاء وراء قامات هؤلاء والذين بقدر عدم حاجتهم على الأقل إلى «إعادة حديث» من قبل شخص على مستوى ضعفي التأويلي، فإنهم أيضًا يحتِّمون كل لحظة، ضرورة اقتفاء آثار خطواتهم وسبر أغوار متونهم، قصد محاولة استيعاب أبجديات الفهم والتنظير والتخيل والاستنتاج....

إن الخيط الناظم، الموحد لمضامين المقالات الحالية، يكمن في طابع المناسباتية، الكيفية والنوعية: الفوز بجائزة من حجم نوبل. الوفاة، وما تستلزمه من تأبين وإشادة بمناقب الراحل، وما خلفه للبشرية من قيم فكرية ملهمة. الولوج إلى مكتبة البلياد La Pléiade، أو مصنفات الأدباء الخالدين، كما الحال مع كونديرا. صدور حديث لأحد أرشيفات هؤلاء الأعلام، أو دراسة حوله، أو اكتشاف جديد عنه....

من جهة ثانية، وظفت أربع مقاربات تختلف عن المناحي السابقة، لكنها تثير قضايا ومفاهيم في غاية الأهمية: استحضار وجهة نظر إدوارد سعيد في اللغة العربية. مستويات ظفر الكتّاب

Twitter: @ketab_n

بوضع اقتصادي مربح أو العكس من خلال الأدب. الخبايا التي ترقد وراء الأسوار العالية لأكاديمية نوبل. هوس روائي في قيمة خوان غويتسولو بفضاء جامع الفنا. الوقوف عند آخر عناوين عبد الله الطايع الكاتب المغربي الفرنكفوني الذي التحق في السنين الأخيرة بأسماء المشهد الأدبي، وأثار زوبعة في الأوساط الإعلامية بسبب تبنيه العلني للمثلية الجنسية. . . .

مراكش
نوفمبر/ تشرين الثاني 2011

Twitter: @ketab_n

Twitter: @ketab_n

هيرتا مولر:
الكتابة أنقذت نوبل[1]

في هذا الحوار الاستثنائي مع الروائية الألمانية المُتوجة بنوبل لسنة 2009، تتذكر طفولتها ببلدها رومانيا، وكذا علاقتها بالأدب.

هيرتا مولر، صاحبة جسم ضئيل، طائر صغير جدًّا وشاحب كثيرًا، يكسوه ريش أسود ـ حذاء، سروال، قميص ـ تنبثق منه عينان واسعتان وقلقتان. مبتسمة، لكنها مضطربة إلى حدّ أن كل كيانها، يظهر كأنه ممتد على حبل. أنا في غاية التوتر، تهمس وهي تفتح باب منزلها الكبير المتواجد وسط برلين Berlin. جد «مرهقة»، بعد انقضاء أسابيع على إعلان فوزها بجائزة نوبل للأدب شهر أكتوبر/تشرين الأول، بحيث لم تعد تتحمل قط سماع أي تعليق بهذا الصدد. قطعًا، تلحّ على الأمر، وهي تسير بخطوات متثاقلة وسط أرضية خشبية تلمع بطلاء البرنيق، وللاحتفاظ بقواها حتى تتخلص من وضع يفزعها ويخلق لديها الضجر، قررت إجراء حوار صحافي

(1) **Le Monde:** 4 décembre, 2009, page 9.

Twitter: @ketab_n

واحد، مع الصحافة الدولية، لا غير، (باستثناء، السويدية) قبل تسلمها للجائزة بمدينة ستوكهولم Stockholm.

ترفض التقاط صور لها، موقف يذكرها بلحظات الاستنطاق التي أشرفت عليها عناصر جهاز البوليس السري الروماني «لاسيكوريتات» la securitate، أيام تواجدها برومانيا، فقط كليشيات سلبية أُخذت لها أثناء اللقاء الصحافي. أيضًا، وهي بالكاد جالسة على مقعد وطيء صنعه نسيج رمادي، تطالب الروائية بصوت مختنق شيئًا ما، أن لا يستغرق اللقاء أكثر من نصف ساعة: «وضع يتناقض مع طبيعتي، فأنا أفضّل أن أختلي بنفسي كي أكتب. إن حياتي الخاصة وعملي، لست في مستوى التعبير عنهما بشكل آخر». على امتداد المكان من حولها، فوق الطاولات والكراسي، بل وخلف بعض الأثاث، تنتشر قطع ورقية تناسب حجم دبُّوس. كلمات ثم كلمات باللغة الرومانية، اقتطعت من جرائد، ستنجز بها «ملصقاتها» أو بمعنى ثان قصائد.

وُلدت هيرتا مولر Herta Muller سنة 1953 برومانيا، وتحديدًا منطقة تسمى «le Banat»، تتّسم بطابعها الجرماني، لذلك تكتب مولر باللغة الألمانية. مثل أغلب أهل وطنها الذين سعوا إلى الفرار من ديكتاتورية الرئيس تساوسيسكو، فقط تركت رومانيا نحو ألمانيا سنة 1987، بعد أن لاحقها وراقبها هذا النظام المعارضة له لفترة طويلة. كل مشروعها التأليفي - مجموعات شعرية، 22 رواية تُرجمت منها حتى الآن ثلاثة نصوص إلى الفرنسية وستصدر غاليمار Gallimard العمل المقبل

Twitter: @ketab_n

شهر أكتوبر/تشرين الأول 2010 ـ ينطوي على خاصية اضطهاد «حطمها» كما تقول.

عناوين مثل: [الثعلب هو قبل ذلك صياد (سوي 1990)]، [الإنسان، أكبر نصاب على وجه الأرض (فوليو)]، [الدعوة، (ميتيلي2001)]. مؤلفات غريبة وجميلة، حيث يكتسي معها الوصف الغارق في النثرية مسالك عجيبة توحي بطريقة خارقة ويقوم على قوة استحضار زخم لغة فاتنة، تعبّر أحيانًا عن شتى مضامينها كتابة أو شفهيًّا. كما، لو أن متانة الصور التي تسكنها وتلازمها، ساعدت الروائية على هزم الخجل وعصبية المزاج ثم الخوف. أيضًا ينبغي على الكلمات قطعًا اكتساح الميدان، في مواجهة الموت. نتيجة لكل ذلك، استغرق الحوار أخيرًا، ساعتين ونصف.

1 ـ السيدة هيرتا مولر Herta Muller، ما هو أول انطباعكم حينما تلقيتم خبر حصولكم على جائزة نوبل للأدب؟

لحظتها، لم أفكر في أي شيء ولم أتفوّه بأية كلمة. سعادة غامرة هي تقريبًا مأساة كبرى: أعجز عن فهم ما جرى. وقد عتبت عليّ مؤسسة نوبل لعدم إدلائي بأي تصريح. حتمًا، أنا مبتهجة لكنني لست من النوع الذي يهتف فرحًا. خاصة، لا أريد لهاته الجائزة أن تغيِّرني. في رومانيا، جعلت اليومي خوفًا من الموت. ولكي، لا أنبطح، حاولت جعل وقائع محدّدة تبدو كأنها عادية. ينبغي، أن تحافظ على تماسكك حتى لا تتحطم. بالتالي، غملت تلقائيًا على تصنيف الأشياء حقًّا داخل رأسي، بقدر خطورة حظ كهذا، حدث بغتة في مسار حياتي.

Twitter: @ketab_n

أعرف الموقع الذي نسبته له: إنه بجانبي. لست أنا من نجح، إنها مؤلفاتي.

2 ـ داخل أي وسط عائلي تربيتم؟ هل كان للكتب حيز؟

لم يكن من وجود للكتب في منزلنا. توفي أبي وأنا صغيرة جدًّا، أما أمي فقد كانت تشتغل في الحقول طيلة اليوم. ذلك أن منطقتنا المسماة «le Banat» عبارة عن أرض مستوية وسهل، تحيط به القرى الزراعية. الوحيد، الذي امتلك مكتبة، كان ابن أحد أعمامي، صاحب القناعة النازية. مكتبة، احتوت بالتأكيد على مختلف مؤلفات الفكر النازي، فقد اتصف بكونه إيديولوجيًّا قرويًّا مجنونًا. حينما مات في «ساحة القتال» سنة 1945، ووصل الروس الذين اقترفوا كل أنواع الفظاعة داخل قريتنا، تحوّلت جدتي إلى كائن مرعوب. أساؤوا التقدير، كي يميّزوا بين الكتب المورِّطة من غيرها، فألقوا بها كلها في موقد، ممّا منحهم إمكانية التدفّؤ فترة يومين. لقد عشنا، رعبًا شديدًا.

3 ـ اصطدمتم مع البوليس السري الروماني، قبل بداية مشروعكم الإصداري، بحيث طلب منكم، تزويده بمعلومات عن أنشطة بعض أصدقائكم المثقفين في منطقتكم «le Banat»، لذلك طردتم من المصنع الذي تشتغلون فيه. هل، شكلت الكتابة منذ البداية، صيغة للمقاومة؟

لحظة التعليم الثانوي، وأنا في سن المراهقة والفتوة،

Twitter: @ketab_n

كتبت مجموعة قصائد، لكن ذات يوم قلت لنفسي: «هذا يكفي، كل العالم بإمكانه أن يفعل ما أقوم به». ثم توقفت. ولم أعاود الكرَّة، إلّا بعد مرور فترة طويلة. لكن بين الزمانين، أصبحت واحدة من مريدي حلقة المثقفين المسماة آنذاك بـ: l'Aktions gruppe. أدركت، معهم، أنه بوسعي تمثل ماهيتي الحقيقية. فكل ما بدا لي جوهريًّا في الحياة وسعيت وراءه، كان محظورًا عليّ. احتقرت من كافأتهم الدولة، حيث النظام عبثي يشتغل بكيفية مقلوبة. هكذا، لست أنت من تحدّد نفسك كمنشق، بل النظام هو من يصنفك ويختار لك هاته الصفة فتصير كذلك.

4 ـ خلال أي فترة عُمرية بدأتم الكتابة جديًّا، وما هو الدافع؟

خارج قصائد الشباب، لم أتوخَّ الكتابة قط. وإذا كتبت فلأني طُردت يومًا ما من المعمل، إنها وسيلة لتأكيد حضوري الذاتي، لكنني لم أعتبر ذلك أدبًا. ابتدأت، بتدوين أشياء كثيرة، وقلت مع نفسي:

إذا تأتى لي صياغتها في قالب، فهذا يدلّ على أني أفكر. أيضًا، أصدقائي شجعوني، وكانت النتيجة أول عناوين كتبي: [Niederungen]، انصبّ موضوعه الأساسي على قريتي «le Banat» وركودها، حيث تشبه العلبة كل شيء فيها جامد ولا يتغيّر.

5 ـ ما إن ظهر كتابكم الأول، حتى تعرّضتم للرقابة، ما الذي منحكم القوة كي تواصلوا العمل؟

Twitter: @ketab_n

عندما صدر الكتاب، قالوا لي بأني أبصق في الحساء. على امتداد قرون، فإن الأدب الوحيد الذي أقرّته هاته القبيلة الجرمانية، حمل تسمية: «Heimatliteratur» أي النثر المحلي والوطني، ويمنع توجيه رؤية نقدية حول أصوله. فجأة، انفصلت حقًّا عن الجماعة. هكذا، عندما عدت للقرية كي أزور أمي، وجه إليَّ الناس مختلف الشتائم. أما أمي، فقد استنكروا العمل بجانبها في الحقول. الحلاق بدوره، رفض شذب لحية أبي. لم أواصل الكتابة لدواعي قوة ما، لكني فقط اكتشفت أنها منحتني صيغة للتماسك الداخلي، ويمكنها أن تدعم وعيي بذاتي. أساسًا، ربما عدم امتلاكي للقوة، دفعني لكي أكتب. آمنت لحظتها، بأن الكتابة مفتاح يحقّ لنا التشبث به، حتى ولو أدركت أن وقائع الحياة ستبقى على حالها. هناك، كتابات تجيز ذلك، مثل ما أنجزه بول سيلان Paul Celan، توماس بيرنرهارد thomas Bernhard أو بيتر هاندك Peter Handk في بداياته قبل أن يصبح سياسيًّا لا يُحتمل. لقد ابتغيت أن أعيش بطريقة تجيز لي صداقة هؤلاء الأشخاص على الرغم من موتهم أو أنني لم ألتقهم أبدًا. شكّل هذا دعمًا لي، بحيث راهنت على استساغتهم لما أكتب. لذا، أسألهم ذهنيًّا: «كيف الأمر، أهو جيد؟».

6 ـ جزء كبير من كتبكم، يصف رمزيًّا تقريبًا، الديكتاتورية، الاعتقال، الركود، معطيات ارتبطت بالأنظمة الشمولية. المثير أيضًا لديكم، قوة الانتظار؟

ننتظر دائمًا شيئًا ما. حينما تكون حياتنا قابلة للتحمل،

Twitter: @ketab_n

لا نأخذ ذلك بعين الاعتبار، لكن مع الوضع النقيض نعرف جيدًا ما ننتظره. في ظل سلطة الديكتاتور، نترقب كل يوم موت الديكتاتور. إنها ظاهرة جماعية، من هنا تكاثر الإشاعات حول مرض الديكتاتور.

7 ـ شخصيات أعمالكم، تشعر بالخوف. إننا نتبيّنه، بل ينفذ عبر الهواء الذي يتنفسونه، هل عانيتم من ذلك؟

نعم، لقد هيمن الفزع في كل مكان، مقابل غياب لأي شيء آخر. عندما يهددونك بالموت، ويندسون إلى منزلك أثناء غيابك، يقوم لديك الانطباع بقدرتهم على ملاحقتك أينما تواجدت، بالتالي عجزك على حماية نفسك، هكذا تضيع أحيانًا الشخصية والحميمية. حاولت إقناع نفسي، بأن السائد هو المعيار، لكن ذلك سينتهي إلى القضاء على المرء: ستتحمل الوضع لفترة ما ثم تنهار. الأكثر هلعًا، شعورك بالضعف. في إطار هاته الشروط، ليس من جدوى لمشاعر الحبّ، الصداقة والمحبة. حينما، تُستنزف معنويًا، يستحيل أن تحتفظ بتلك العلاقات سليمة مع الآخرين.

8 ـ في مؤلفكم الأخير المعنون بـ: Atemschaukel، والذي سيترجم قريبًا إلى الفرنسية، استحضرتم تاريخ أوسكار باستيور Oskar Pastior، شاعر صديق لكم، اقتيد إلى معتقل للأشغال بأوكرانيا وقد روى لكم بإسهاب حكايته. تنطلقون من أشياء، كي ترسموا ثانية التجربة الاعتقالية. لماذا هذا الاختيار؟

Twitter: @ketab_n

الأشياء مهمة جدًّا! خاصة حينما لا نتوفر على أي شيء، ونحن نتسكع في العالم بحقيبة جدّ صغيرة. داخل معتقل، تسود فيه السيطرة العسكرية، نتحول من أفراد إلى أرقام. والحال أنه، بقدر ما نملك الأشياء بشكل أقل، نحدّد الموضوعات أكثر. العمل بدوره يصير واحدًا، حتى المواد التي نشتغل بها، الحجر أو الفحم. تُغتصب ذواتنا، ثم يلزمنا أن نتحدّد ثانية. الأشياء تسمح بذلك. يتأتى لنا تشخيصها كي نموضع ذواتنا. أول ما تصدمنا به وضعية القهر، تكمن في هذا الاستعباد المطلق. إبان حكم النازيين، كان ينبغي على اليهود الرحيل والتخلّي عن كل شيء. يجب أن نتصوّر دلالة الوضع، بمعنى أن تلقى في العالم دون حماية ما. فالأشياء تحمينا وتجعل حياتنا مُبرّرة أكثر. كما، تنفرد بخاصية كونها تجعلنا نصمد. تأملوا، ركام النظارات والأحذية التي عثرنا عليها في المعتقل النازي «Auschwitz». هذا القدح المتموضع فوق الطاولة، قد يستمر لفترة طويلة قياسًا لعمرنا، شريطة أن لا يكسره شخص ما. أفق صغير للأبدية. هذا يرعبني نسبيًّا، من ناحية أخرى. أحيانًا، تغمرني السعادة حينما يتكسر الشيء: نحتاج قليلًا إلى التباري في هاته الحياة!

9 ـ حضور الطبيعة ثابت في نصوصكم، بما فيها تلك التي توظف المدينة كفضاء لها، مثلما الشأن مع عملكم: [La convocation] ما هي أهمية الطبيعة لديكم، ولماذا تمنحونها وصفًا كهذا؟ لا سيّما السماء، إنها عنصر رئيس.

Twitter: @ketab_n

أنا طفلة قروية، وحيدة. أيضًا، عشت دائمًا في عزلة مع المناظر الطبيعية، من حقل إلى حقل، أرعى الأبقار. في تلك الحقبة، لم تكن لدي كلمات كي أعبّر عن أحاسيسي، وجدت المنظر الطبيعي مُهدِّدًا، فأقول مع نفسي: سيبتلعنا. يغذينا، لكنني شاهدت أيضًا كيف مات الناس تحت أقدامه. نقتات من الطبيعة، وفي يوم من الأيام ستفترسنا. داخل جوف الأرض، سنتحول إلى نباتات، نوع من الاستمرارية. تقول العقيدة المسيحية: (الله في كل مكان). حقًّا، إنه الديكتاتور الأول! فهو يحيط بما نصنعه. وتقريبًا كل شيء خطيئة. شخصيًّا، لم أكن أبدًا عند المستوى المطلوب. على امتداد الطبيعة، تعلو السماء الحرة فوق رأسي، بالتالي يراقبني الله. وأنا وحيدة برفقة أبقاري، كان بوسعي أن أخلع ثيابي وأسبح في النهر (الدانوب)، لكنني لم أفعل، فالله يشاهدني، والعراء شكّل إثمًا. أعتقد، أن الطبيعة أفضل مؤشر لاختزال حياتنا: جلّ المواد الطبيعية، تعاود الكرّة مع فصول كل سنة، إلّا جسدنا فلن يعود أبدًا، فقد منحه الله لنا خلال زمان معين ويطلب منا تسليمه إيّاه ثانية. أترون، انعدمت لدي مؤلفات حكائية، فأنشأتها بنفسي.

10 ـ الموت قائم باستمرار بين طيات أقوالكم...؟

نعم، الموت هنا وقد أخافني على الدوام. أثناء طفولتي، تساءلت على الدوام: (هل سأموت للتو؟). كلما، سقطت دودة على كتفي. الموت مهول، قد يفتك بك متى أراد.

Twitter: @ketab_n

11 ـ ابتعدتم كثيرًا عن الواقعية، بالمعنى المعتاد للمفهوم. اختيار القصيدة والمتخيَّل بل العجائبي أحيانًا. هل هي طريقة للاقتراب من الحقيقة؟

لا أعرف ما هي الحقيقة، أو بالأحرى أفهمها كما تتجلّى في الحياة اليومية: أن تعرف، إذا كان شخص ما، يكذب عليك أو يقول الحقيقة. أمقت الكذب والخيانة والخداع، بمعنى كل ما يتعارض مع الحقيقة. فيما يتعلق بالأدب، تنبني الحقيقة عبر كل الأجزاء، إنه خيال يقودنا إلى أثره. حين نكتب نعثر على أشياء، لم يدركها اليومي بعد ثم تصير حقيقة، فالكتابة تنهض على قواعدها الخاصة المصطنعة. غير أن الحياة تسخر من الكتابة، ولسنا في حاجة للعيش كي نكتب. إنه تمثيل إيمائي: نؤسس حقيقة، ونكتشف بها ممكنات أخرى غير متوقعة. تكمن المفارقة، في أن كنه الخيال أفضل ما يتطابق مع حقيقة كهاته. شيء غريب لكنه جميل، وهو ما يمنحني إمكانية تحمّل الكتابة، لأنني لا أحبّ أن أكتب، ليس لدي ثقة في اللغة.

12 ـ ما سبب هذا الارتياب إزاء اللغة؟

ولماذا الاطمئنان إليها؟ فاللغة مجرّد انعكاس لمن يتكلمها. وبقدر حقيقتها تلك، فهي لا شيء، لكن بوسعنا أن نخلق بها أي شيء. لقد عانينا جميعًا من هذا الوضع فترة الديكتاتورية: جسّدت اللغة، أفضل وسيلة لخداع العالم. حين تصمت، يصعب عليك أن تكذب. بالتالي، يتمّ الارتياب في الصمت أكثر من الكذب.

Twitter: @ketab_n

13 ـ ثقل الكلمات وكذا حضور لغة الخشب كما يعبّر عنها النظام السياسي، يبرزان دائمًا في كتاباتكم. شُيِّد إنتاجكم عبر التسلل إلى لغات مختلفة مثل الألمانية أو الرومانية كلغة رسمية؟

لغة الخشب أشعرتني بتقزز حقيقي. وجدت هوّة، بين الخطابات التي تدعي التقدم وسعادة الشعب، ثم الأفراد ونحن نلاحظ كيف يتحطمون! ينتابني الجنون عندما أقرأ كتاب ڤيكتور كليمبيرير Victor Klemperer عن لغة الرايخ الثالث، أدركت بأن الشخصيات الديكتاتورية توظف دائمًا الاستراتيجية نفسها، مختلف الكلمات التي يستعملونها بلا قيمة، يهدفون فقط إلى التضليل، هكذا توخيت أن لا تخترقني لغتهم وهو ما أحاوله أيضًا راهنًا في مواجهة الإشهار: أبذل قدر المستطاع كي لا أنقاد وراءه.

14 ـ لغتكم الخاصة، أليست في نهاية المطاف متشردة، خلقت حيِّزها الذاتي وهي تنساب بين الثقافات؟

في قريتي الجميع يتكلم الألمانية، غير الطبيب والشرطي. شخصيتان، نفضل أن لا تكون لنا صلة بهما. تعلمت اللغة الرومانية في سن الخامسة عشرة جرّاء قراءتي للكتب، فوقفت على جمالية صيغها وعباراتها الشعرية وتبين لي مدى انسجامها مع مزاجي قياسًا للألمانية. مثلًا، أسماء النباتات ونوعية الأشياء: زهرة الزنبق، تؤنثها اللغة الألمانية، لكنها ذكورية في الرومانية، الأمر ينطبق كذلك على الورد. فيما بعد، تكوّنت لدي صورة مختلفة عن المعطيات وصار

Twitter: @ketab_n

للنباتات وجه آخر. كل شيء يمتلك منحيين، فهم ترسخ في دماغي. لذلك لحظة الكتابة، تحضر الصورة الرومانية خلف الكلمة الألمانية. الاثنان، مترابطان.

15 ـ عملكم الأول باللغة الرومانية، صدر متأخرًا وتحديدًا سنة 2005، فلماذا هذا الانتقال إلى الرومانية عبر بوابة القصيدة؟

كنت في رومانيا، واضطررت إلى السفر على متن القطار، لأن أوسكار باستيور Oskar pastior أراد أخذي إلى بيت والديه. أحد الأصدقاء، حمل لنا حفنة جرائد، عملنا على تقليب صفحاتها بغاية التسلية. وحينما عدت إلى برلين Berlin، شرعت في تقطيعها والاستئناس بلعبة لصق الكلمات، ثم نجحت الخطة. إنه نموذج، للكتابة انطلاقًا من كلمات موجودة سلفًا. يدخل في هذا الإطار أيضًا، حساب أردت تصفيته مع اللغة الرومانية، فقد عجزت عن الكتابة بها، لكن عن طريق تلك العملية عدت قادرة وأردت تقديم دليل هذا التحقق.

16 ـ المنفى، الاجتثاث، الرحيل، حاضرة جدًّا في عملكم، كيف تعايشتم منذ 1987، مع إقامتكم بألمانيا الغربية؟ هل أثّر الوضع على كتابتكم؟

ما هو أساس، إحساسي بأنني نجوت. انتهت خشيتي من القتل، على الرغم من استمرار تهديدات بوليس لاسيكوريتات La securitate. قلت لنفسي: (لقد رحلت، أنا بعيدة الآن)، ممّا غير طريقتي على مستوى الكتابة. في رومانيا ساد الخوف

Twitter: @ketab_n

من الإقدام على اقتحام المنازل وتفتيشها، بالتالي استلزم الأمر إخفاء كل شيء، أما هنا لا حاجة لذلك. ليست، المسافة وحدها، هي التي تبدّل الأشياء، بل الزمان: بقدر ما نبتعد زمانيًا، فإن المسافة الجغرافية لا تعمل إلّا على مضاعفة الإبعاد الزماني. جلّ الوقائع التي نحياها، تأخذ دلالة مختلفة حينما نبلغ الشيخوخة، بحيث ننظر إليها بشكل مغاير. كل ما له قيمة في الحياة، يتغيّر مجراه. أشياء هائلة تصير صغيرة، كذلك الذات، تتموضع بكيفية أخرى. بهذا الصدد، لم يبدِّل الرحيل أي شيء. هو الأفق ذاته، حتى لو بقيت في رومانيا.

17 ـ هل من وسيلة للتصالح مع الماضي؟ الذكريات؟ أهي الكتابة؟

لا أحتاج إلى اطمئنان داخلي، بل أجهل معناها. ولا شخص يمكنه ذلك. جميعنا ينطوي على أحاسيس تتأرجح حدّتها، كما أنها تنزاح وتتحول. يظهر لي، الاطمئنان الداخلي عقيمًا ومضجرًا، ثم إني لا أتصارع مع ذاتي، فأصل مشاكلي ينبعث من البراني.

18 ـ هي إذن قصة حب بينكم ورومانيا، ميزتها نهاية سيئة؟

لا، ليس التصور كذلك، لقد حطموني هناك. لو مكثت وأمكنني أن أعاين ما حدث بعد سقوط جدار برلين، لأصابني الجنون. عندما وصلت إلى ألمانيا، عجزت عن الفصل بين الضحك والدموع. عانيت من أقصى حالات القلق. ضياع، لست معتادة على قول ذلك، لكني منهارة، أدرك الأمر.

Twitter: @ketab_n

مع: جون ماري غوستاف لوكليزيو[1]

صلب، جميل، جذاب، يشبه تمثالًا في جزيرة عيد القيامة، يكتسي سترة زرقاء ومنتعلًا حذاء رياضيًّا أبيضَ واسعًا. يوم الثلاثاء 7 أكتوبر/تشرين الأول، كان ماري غوستاف لوكليزيو الذي تواجد بشكل عابر عند ناشره غاليمار Gallimard وهو ينتقل بين طرفي العالم، يجهل حتى تلك اللحظة، أنه بعد يومين سيصير الكاتب الفرنسي الرابع عشر الحاصل على جائزة نوبل. 23 سنة مرّت على تتويج كلود سيمون Simon. وإذا علم، فلن يكشف عن أي شيء. بطبع هادئ، مثل أرستقراطيي جماعة «العصر الجديد». استجاب هذا الروائي المسافر باستمرار، لكي يستحضر مع مجلة: l'Express عمله الروائي الجديد المعنون بـ: [Ritournelle de la faim] ومشاعر السخط التي يحسّ بها العالم الثالث، ثم مصير الغرب عامة والرواية خاصة.

1 ـ عدتم من كوريا، نعرف نزوعكم نحو العالم الجديد أو المحيط الهندي ثم بشكل أقل الشرق الأقصى...

(1) **Express** numéro 2889, octobre 2008, pp8/11.

Twitter: @ketab_n

منذ سبع سنوات وأنا أعيش بانتظام في كوريا. كانت المرة الأولى، من أجل اجتماع للكتاب مع الياباني «Kenzaburô ôé». لقد تعلقت كثيرًا بهذا البلد، السنة الماضية، ألقيت درسًا أثناء فصل دراسي لجامعة سيول Séoul، يتعلق موضوعه بالقصيدة والرسم، اعتمادًا على قرص CD من متحف اللوفر Louvre. طالباتي، اللواتي يتكلمن الفرنسية جيدًا - هي جامعة نسوية - ركّزن خاصة على وضع المرأة في الفن التشكيلي الأوروبي: لقد أنجزن مجموعة من العروض حول الجوكندا La Joconde، وكذا ماري أنطوانيت - Marie Antoinette التي رسمتها السيدة فيجي لوبرون Vigée-Lebrun. أن تدرّس، شيء مهم إذا استطعت أنت كذلك الاستفادة من تلامذتك.

2 - أنتم منشد الصحاري، ألا تجدون مقارنة مع ذوقكم، بأن كوريا جد أوروبية ثم مزدحمة ومتنصرة بشكل مفرط؟

العالم بأكمله يأخذ طابعًا أوروبيًّا. لكن، كما يقول «Hwang Sok-Yong» صاحب كتاب: l'invité. من أخبركم بأن المسيح ليس كوريًّا؟ لا ينقص سيول Séoul جنونًا قياسًا مع المدن الأخرى العالمية التي يصل تعداد سكانها إلى 10 ملايين.

3 - بين كوريا والمكسيك الجديدة ثم فرنسا. أين تستقرّون حاليًّا؟ يتم الحديث عن بروتان Bretagne...

لا أتوفر على مشاريع بالمعنى المتوسط للكلمة، لكن

Twitter: @ketab_n

على المدى البعيد سنموت جميعًا. أقطن الآن بالولايات المتحدة الأميركية. المكسيك الجديدة مكان مناسب للكتابة، إنها ميناء القيد بالنسبة إليَّ. أتخلص هناك من هيجان العالم المعاصر، يوجد أمامي حقل واسع غير بعيد عن ريو Rio الكبيرة، منطقة فارغة داخل البلد الأكثر تمدنًا وتلوثًا في الكرة الأرضية، بخصوص بروتان Bretagne أحلم حقًّا بالاستقرار في الإقليم، لديّ منزل وارتباطات عائلية كما أنني أحسّ بانجذاب إلى نموذج الحياة بـ بروتان Bretagne.

4 ـ كيف وجدتم فرنسا 2008، منذ إقامتكم بها؟

جدّ أوروبية... دعابة توضع جانبًا. أنا مستغرب قليلًا للتشاؤم المهيمن. في كوريا، مستوى الحياة أقل ارتفاعًا بكثير، لكن الناس متفائلون جدًّا، يدركون صعوبة الحياة وبالتالي عليهم التعود على الصراع.

5 ـ لقد أعلنتم، بأنكم «تجاوزتم عهد الانتقام»، لكن عملكم الأخير: Ritournelle de la faim. (غاليمار)، قاس جدًّا، غير متساهل أبدًا مع جرم المجتمع الفرنسي اتّجاه اليهود وكذا الشعوب التي تعرّضت للاستعمار.

أنا لست شخصًا لطيفًا، وكما يقول البيولوجي جون روستون Jean Rostand: «للحقيقة بالضرورة مذاق الانتقام». حينما كنت طفلًا، عايشت الارتدادات الأخيرة لزلزال الحرب العالمية الثانية. أتذكر الأقوال العنصرية أو المعادية للسامية كما سمعت تداولها داخل أسرتي القريبة والبعيدة: لم يكن

Twitter: @ketab_n

بإمكاننا أن نتعلم منها أي شيء، لقد وقعت الحرب ونحن أطفالًا، لم نفهم دلالتها، لكننا صدمنا فطريًّا.

6 ـ مع، ذلك فإن أسرتكم المنحدرة من جزيرة موريس Maurice كانت ذات طبيعة متجولة.

إنها ظاهرة كونية. العنف نفسه وجدته ثانية بالمكسيك، البلد الذي تحالف مع هتلر لفترة وجيزة! اليوم أيضًا، لم ينطفئ هذا الهوس بالقوة والسيطرة، لا زالت الجمرة متوقدة: النازية الجديدة في ألمانيا. ثم الحنين الذي يتجلّى هنا وهناك نحو عالم مستبد.

7 ـ وسط هاته اللائحة، فإن شخصية «Ethel» التي استلهمتموها من «أمكم» تعتبر «مقاومة» حتى، ولم تحمل أسلحة.

نعم، ذكرياتي الوحيدة عن المقاومة، ترتبط بالمحاربين داخل منطقة «Nice» حيث نعيش. أتذكر، وأنا في سن يتراوح بين أربع أو خمس سنوات، ألعب مع طفل يبلغ السادسة عشرة أو السابعة عشرة من عمره. فانفجرت قنبلة كان يحملها بين يديه، لازال صوت ذلك يتردّد داخل أذني. لم نعثر من بين بقاياه إلّا على شعره الأحمر. كان اسمه ماريو Mario. تواجدت أيضًا، إلى جانب ذلك مقاومة سلمية أكثر قبل وأثناء وبعد الحرب، تضعها أمي بالتأكيد في مقابل الجبن. لقد جمعت في هذه الرواية وقائع كنت شاهدًا عليها، كما روتها لي جدتي وأمي، وسط عالم بلا رجال، مثلما وصفه «Radiguet»

Twitter: @ketab_n

في روايته: le diable au corps عبر أعين هؤلاء النسوة اكتشفت العالم.

8 ـ تخبروننا في هذا الكتاب، بأن أمكم حضرت الإعلان عن تأسيس موسيقى الباليه: Boléro de Ravel. وكان يتواجد في القاعة الأنثروبولوجي الكبير كلود ليفي ستراوس Claude lévis Strauss.

هو من أخبرني بذلك في حقبة كنت أتردّد عليه باستمرار. أتقولون لي بأنه قد قارب المائة سنة. أجهل ذلك. كنت قد استلمت منه رسالة حميمية منذ سنتين لكي يصحّح لي خطأ وقف عليه في كتابي: Raga.

9 ـ أين تتموقع عندكم العلاقات بين الغرب والعالم الثالث؟

لا أعتقد أبدًا بالمواجهة. أكره هنتنغتون Huntington، ونظريته عن «صدام الحضارات». بل كتبت مقالة نقدية تحت عنوان «ضد صمويل هنتنغتون» لم أنشرها.

10 ـ لماذا؟

لأنها كانت نقدًا لاذعًا. لا أؤمن بوجود «النحن» و«الآخرين» أي الغرب من جهة، ثم العالم الهمجي، الذي يترصد أبسط تجليات ضعفنا. يتوقع هنتنغتون مع صدام الحضارات اجتياحًا عسكريًّا لـ « الصينيين ـ الماركسيين» عبر مارسيليا Marseille ـ نتيجة الخيانة بدون شكّ ـ في حين يمرّ السوفيات من الشمال! في الواقع، جلّ الثقافات هجينة، ومختلطة. الغرب نفسه، صنعته معطيات كثيرة تنتمي إلى إفريقيا

Twitter: @ketab_n

وآسيا. لا يمكننا إقامة حاجز أمام النماذج والحداثة بقدر ما هي أوروبية وأميركية، فإنها أيضًا يابانية وكورية وصينية.

11 ـ تنظرون إلى أنفسكم باعتباركم مناضلًا بيئيًّا؟

هناك خبث كبير في الإيكولوجيا كما تمارس اليوم، إنها متسلطة جدًّا. بعدما نهبت بلدان الغرب الكون، فقد توخت الحيلولة، دون وصول البلدان الأخرى إلى التنمية اعتمادًا على موادهم الأولية. لا يمكننا اليوم منع بلد كالبرازيل، من توظيف جميع الوسائل بغية الخروج من الفقر. لقد كنت ذات يوم إلى جانب الكاتب «Amadou Hampâté Bâ» (وهو من مالي) حينما حصل على جائزة أدبية، تقدمت امرأة إلى هذا الشخص صاحب البنية القوية ومظهره الإفريقي جدًّا، ثم سألته: «ما الذي تنوي القيام به لإنقاذ الفيلة؟». فأجابها: «سيدتي، الفيلة حيوانات قذرة تدوس على مزارعنا» تفاجأت السيدة كثيرًا»....

12 ـ نعم، لكن تعدد النوع...

في المكسيك الجديدة تأثرت جدًّا وأنا أمر كل يوم أمام منزل «Aldo leopold» عالم بيئة أميركي صاحب البساتين الطبيعية بالولايات المتحدة الأميركية. يقول لمواطنيه: «يجب التفكير مثل جبل». للأسف، الناس لا يفكرون كالجبال. يسهل جدًّا، مخاطبة بلدان أخرى تتخبط داخل وضعية فقر مطلقة: «احرسوا ذئابكم ودببتكم. سنذهب لكي نأخذ صورًا لديكم».

Twitter: @ketab_n

13 ـ تظلون مرتبطين بجزيرة موريس Maurice، وأظن بأنكم ستكرّسون لها عملكم المقبل.

لم يكن للمجتمع الموريسي الذي أنحدر منه أية قيمة. كان مجتمعًا استغلاليًّا، عنصريًّا ومنقسمًا شيئًا ما مثلما وصفه فولكنر Faulkner. لكنه ينتج أيضًا أشخاصًا مدهشين ومتسامين. هنا أيضًا، سيمثل هذا العمل نوعًا من تصفية الحساب.

14 ـ تنتمون إلى مجموعة من لجان التحكيم الأدبية، لا سيّما جائزة: Renaudot. من هم الكتاب المعاصرون المفضلون لديكم؟

أحبّ كثيرًا «Marie Darrieussecq»، وأحس نحوه بكثير من الانجذاب. أقدر، طريقته في كتابة العالم، كما لو كان امتدادًا لذاته يدركه بأليافه العصبية وليس بقوته العاقلة. أحبّ أيضًا أدب البلدان الفرانكفونية خارج فرنسا. شخص مدهش هو «Alain mabanckou»، إلى جانب الكاتب الكونغولي «Wil fried N'sondé» الذي أصدر: le cœur des enfants léopards، تتداخل في الآن ذاته، هوية قوية وتجربة الهامش انطلاقًا من السياق الأوروبي. ما هو رائع في حالتيهما، كونهما مبدعين فاعلين: يشرف «N'sondé» في مدينة برلين على تربية الشباب الذي يعيش وضعية صعبة.

15 ـ وقّعتم السنة الماضية على بيان من أجل «أدب ـ عالمي».

نعم، في الواقع مرتين وليس واحدة! حظ اللغة

Twitter: @ketab_n

الفرنسية، هو أن الشعوب التي خضعت لهيمنتها طيلة قرون، لم تحتفظ بضغينة اتّجاهها. أظن بأن ذلك يرجع إلى جمالية الأدب الفرنسي والكتب الرائعة جدًّا التي أنتجها، فقد مكّنت الناس من التغلّب على آلامهم وقبلوا الفرنسية بدلًا من الإنجليزية كوسيلة للتواصل. استنادًا على هذا «الأدب العالمي»، يمكن للغة الفرنسية مواصلة إسماع رسالتها.

16 ـ نعثر على إصدارات مثيرة من بين عناوين الدخول الأدبي؟

أحببت حقًّا عمل: le marché des amants، لصاحبه «Christine Angot». لقد تأثرت كثيرًا بهذا اللقاء الدراماتيكي المؤلم بين امرأة من البورجوازية الكبيرة وبروليتاري. بالتالي، هاته المواجهة بين عالمين متعارضين.

17 ـ ألا تعتبر الرواية اليوم ضحية لنجاحها؟ كل عمل يوصف بكونه «رواية»...

إنه السؤال الذي طرحه «Raymond Queneu»: ماذا سيصبح الأدب، إذا صار الجميع يكتب؟ مثل كل تجلّ إنساني، فلن تستمر الرواية إلّا فترة. في البداية، لم تكن شيئًا محدّدًا جدًّا، بل مجرّد حكاية تكتب بلغة اليومي. ما يجذبني نحو الرواية، هو أنها تخول التكلم عن الذات دون أن تتكلم عنها، الإفصاح عن أفكار فلسفية، دون أن تكون فيلسوفًا. نوع من الانعتاق العملي. نجاح الرواية طيلة مائة سنة الأخيرة، يرجع إلى هذا السبب، صورة مصغرة كي نعرف حالة العالم، ربما

Twitter: @ketab_n

وضعه الخاص. لكن من يقرأ اليوم: «le grand cyrus» أو «l'astrée». أي الكتب الرائجة طيلة القرن السابع عشر؟ وفي القرن التاسع عشر ابتكرت الحس السيكولوجي، لكنها تجاوزت ذلك حاليًا. لست متيقنًا بشكل عام، من دوام الأدب. سؤال شبه بيولوجي، بإيقاعات طبيعية يخضع لها المجتمع الإنساني. ربما هو ذاك علم البيئة. لا يمكننا أبدًا الحيلولة دون امتزاج الأجناس والأقوام وكذا الثقافات إذا كان قدر الرواية أن تختفي، فليس بإمكان الأكاديمية الفرنسية منع هذا الانحلال.

Twitter: @ketab_n

لوكليزيو: ضرورة سماع صوت الآخرين[1]

[«أتساءل إذا كان هذا يشبه اجتياحًا جرثوميًّا». هكذا، تحدث لنا الروائي «لوكليزيو» J.M.G Le Clézio، عشر سنوات قبل الآن. حرارته اليوم مرتفعة بعد تتويجه بجائزة نوبل].

1 ـ هل يمكن القول، بأن عملكم التفت كليًّا نحو البحث عن الانسجام؟

يصعب جدًّا التكلم عمّا نكتب. لأننا، أولًا نكتب لسبب لا نعرفه. ربما، قد نتوقف حينما نعرفه. . . . أن تكتب هو حاجة، توجد داخلك. تتوخى الخروج والانبثاق وفق هذه الصيغة. أن تكتب، ليس بالأمر الهين، بل فنّ يحتاج لكثير من الدربة؛ أريد القول، يقتضي الأمر بامتياز أكثر من مجرّد معرفة بمعجم اللغة الفرنسية وكذا مكونها التركيبي. من الضروري، أن تقرأ مجموعة مؤلفين، تهضمهم، ثم تقوم عندك الرغبة كي تصنع شيئًا أفضل منهم.

2 ـ لكي تتأتى لنا القدرة على الكتابة، يجب أن نتمثل ما قرأناه؟

(1) **Le magazine litteraire**, novembre 2008, numéro 480, pp.94/99.

Twitter: @ketab_n

نعم، نعم. إذا اعتبرتُ بأنني بدأت القراءة منذ سن السابعة من عمري، فمن الضروري أن أقرّ بكوني قرأت كثيرًا. قراءتي الأولى، لم تكن كتب أطفال بحيث اهتممت بكتب «جدية». مجموعة قواميس مثلًا.... تمكنت، من استظهار معجم للغة الإنجليزية، لأنني سعيت للكتابة بهذه اللغة! بما أن ولادتي لم تسعفني كي أمتلك الإنجليزية فطريًّا، فقد سعيت نحو طريق مختصر، كي تصبح جزءًا مني وأصير مثل حاسوب يهيّىء الكلمات حسب الرغبات.

3 ـ بالتأكيد، فشلت الخطة...؟

(يضحك). لا، فلكي تكتب بلغة ما، لا تحتاج فقط إلى قاموس ومنظومة قواعد. بل يلزمنا، شيء آخر. طبعًا، في هاته اللحظة أدركت حاجتنا إلى هذا الشيء الآخر، أقصد الاستيعاب، التحول من مادة إلى أخرى، وتحويل ما تلقيناه ونحن نقرأ. كل هذه الكيمياء، التي تحدث بُغية أن نكتب ما لدينا لكتابته في ذاته، بمعنى تأكيد وجوده. وما يتوفر لنا نحن بالكلمات، يمارسه آخرون بالرياضة، أو فقط بين ثنايا الحياة. ربما، بالدين أيضًا. فأن تكتب هو «دين» بشكل من الأشكال بمفهوم باسكال «Pascal».

4 ـ هل تعتقدون بأنكم كتبتم كثيرًا؟

(بعد تردّد)...، يحصل عندي الانطباع أحيانًا بأنني كتبت بغزارة. أتذكر، حديثي ذات يوم مع ميشيل بوتور «Michel Butor» حينما التقينا عند محطة للأوتوبيس، فقد كنّا نسكن معًا مدينة نيس «Nice». هكذا، خاطبني: «نكتب بإفراط»، فكرت،

Twitter: @ketab_n

بُرهة: «هل الأمر صحيح؟» أقلقني، ذلك. فقلت: «يجب أن أحرق كل ما كتبت. إنها أشياء غير مجدية. إتلاف بالحرق، ولا شيء غير هذا!. بعد التأمل، انتهيت فورًا إلى دليل يتعذر دحضه: بما أن كل ما صنعته، لا يفيد في شيء، فمن الضروري أن أواصل: ربما، أعثر يومًا على هذا المجدي.... ألخص، لأقول بأن الكاتب هو حتمًا شخص ناقص، ويكتب بالضبط توخيًا للاكتمال؛ يبحث بلا كلل عن الكمال. وضع، نادر أحيانًا، لكن يحدث أن كُتّابًا يلامسون الاكتمال من الوهلة الأولى، بالتالي يتوقفون عن الكتابة: أرثر رامبو «Arthur Rimbaud» والمكسيكي خوان رولفو «Juan Rulfo».

5 ـ لا نحقق ذلك أبدًا؟

أحس حاليًا، باقترابي ممّا أتوخى أن أكونه. لكن، ربما مجرّد توهم للنضج.... فحينما، نصل إلى مرحلة النضج نحس حتمًا بنوع من الخمود الفيزيولوجي، والذهني والذاكري. كبح عام، يجبرنا على الاقتناع بما صرنا إليه. الفرق مع زمان المراهقة، يكمن في أن الصيرورة تثير لدينا الانطباع بمضاعفة القدرات إلى حدّ اللانهائي، وبأننا نتوفر على إمكانية أن نكتب أكثر وأفضل من أي شخص آخر. هكذا، نخلد ونصمد أمام كل شيء. قد، نعيش دون أن ننام أو نستريح.

6 ـ كان لديكم مشروع وأنتم في الأربعين، ينهض على إعادة كتابة كل الأعمال التي أصدرتموها حتى ذاك العهد...؟

لم أنجز من الفكرة إلّا قسمًا، ثم تخلّيت عنها سريعًا.

Twitter: @ketab_n

هذا، يقوم بدون شكّ على نوع من الشكلية. فمثل، الحيوانات التي تصوّر تماثلًا رائعًا على مستوى وظائفها، أعينها، وكذا خاصياتها. فإن، الكائن الإنساني مُلزم بتنمية تنافسه الذهني، وإن افتقد للإمكانية ذاتها بخصوص الجانب الفيزيقي. ربما، هي مسألة إيقاع. قد يعيش الكائن وفق إيقاعات، كما يدعي البعض، سن السابعة من عمره أو الثالثة عشرة. حينما تقضي وقتًا معينًا، ينبغي الانطلاق ثانية كي يأخذ الإيقاع مسارًا جديدًا. الذهاب مرة أخرى، لا يعني بالضرورة الكتابة ثانية بشكل معكوس لكل ما سبق لنا إنجازه. بل، إعادة الكرّة ونحن نعثر من جديد على الدوافع التي كانت وراء البداية.

7 ـ بين سنوات 1970 و1974، توجهتم إلى هنود بنما (Emberas) الوناناس (les waunanas) هل كنتم تتطلعون عند هؤلاء، نحو الوقوف على شكل آخر من المعرفة ليست فكرية؟

نعم. كنت قطعًا في حاجة إلى صدمة فيزيائية. سعيت إلى وقف، أن أكون مجرّد معطى دماغيًّا محضًا. لقد، أدركت حتمية النزوع نحو ذلك. قد تغني، هاته اللادماغية مضامين كُتبي المستقبلية. سيجد، مبدعون آخرون في تجربتي مسلكًا عبثيًّا بل وزائفًا. الكتابات، التي توجه إليها اهتمامي، وأنا في مرحلة المراهقة، كانت تناقش بعمق هذا التاريخ: كيف ننتقل من الدماغي إلى الفيزيائي. أحيل هنا، بالخصوص على عمل مثل: [Two years before the mast]، لصاحبه «ريشار هنري

Twitter: @ketab_n

دانا» (Richard Henry Dana) ثم مُؤلفات كيبلينج (Kipling)، و«ويليام ڤولدينغ» (William Volding)...، وكل تلك النصوص الطليعية.

يعتبر «ستيفنسون» (Stevenson) الروائي النموذجي، لنمط كهذا من التاريخ: كيف يصير الدماغي فيزيائيًّا؟ ثم كيف للذهني، أن يتحول إلى أخلاقي؟ كيف، نكتسب هاته التجربة الباطنية؟ المجتمع الأوروبي، كما تربيت داخله، سواء بمناطق موريس «Maurice» أو بروتان «Breton» مع انزياح خفيف في طبيعة التربية عند الموريسيين، بينما يزداد تباعدًا بالنسبة لسكان بروتان «Breton». أقول، بأنهم لا يتجهون إلى غاية تكوين الشباب بناء على هذا الخط. على النقيض، يطلبون منه، أن ينسى مطلقًا وجود العالم. لكن، في يوم ما، يسقط عليهم العالم من فوق، فيندهشون جدًّا.

8 ـ أنتم الآن بصدد التحول إلى ما أردتموه لذاتكم؟ مثل نمر بورخيس الذي وضع كل حياته رهن إشارة أن يصير نمرًا. أو، مثل رسام لوحات طبيعية، أدرك عند لحظة موته بأنّه لم يرسم في آخر المطاف إلّا صورة له؟

نعم، تصور جميل جدًّا. لقد كنت محظوظًا، كي أقابل بورخيس مرة واحدة. تحدثنا، بشكل مطول عن العلاقة الموجودة بين الأدب والحياة. كان مضطربًا جدًّا، وهو بصدد البحث عن اسم كاتب لم يعثر عليه. وبعد مجموعة من التدقيقات، استطعت أن أستحضر له اسم: ريدر هاغار (Ridder Haggard). أخبرني، بأنه حينما كان طفلًا حدثت لديه

Twitter: @ketab_n

ثورة وهو يقرأ نصًّا، انتهيت أنا بدوري من قراءته منذ فترة في عدد قديم جدًّا من: «Journal des voyages». يحكي، عن تاريخ «شاكا» (Chaca) ملك الزولو (Zoulou). ويقف بالخصوص، على هذا المقطع المدهش، حينما يترك طفل أسود ترعرع في حضن قس بروتستانتي، عالمه الأوروبي كفضاء لطفولته، ثم يفرّ كي يختفي في الغابة. عهود بعد ذلك، وبينما كان القسّ يخلد احتفالًا، تنفتح الغابة وتفسح المجال لمرور متوحش، تغطي وجهه ألوان الحرب، يلبس ريشًا ويتحدى الجميع برمح. خيم الرعب على الحشد، حيث اعتقد الجميع بأن شيئًا مهولًا سيقع. اقترب الرجل من القس، ألقى بصدرية على الأرض وقال: «حينما رحلت، بقيت أرتديها، إنها الأثر الوحيد عن الحضارة، أعيدها لك». ثم، أسرع ثانية إلى أعماق الغابة. كشف لي بورخيس، عن الاهتزاز الذي شعر به وهو يتمثل هذه الحكاية التي تبين بأن الإنسان ينطوي على مصيره. جميل، أن نغيره، إلّا أنه سيتجلّى دائمًا، مثلما يتحتم أن يكون: لقد اختار أن الصيرورة نحو ما يجب أن يكونه في نهاية المطاف. ذاك، الذي يسكن بعمق في داخله.

9 ـ هل يملك الإنسان مصيره؟

بالاستناد إلى بورخيس، نعم. وأظن، من جانبي بأننا ملتصقون بشكل واسع جدًّا، بما نعيشه أثناء السنوات الأولى من الحياة، أقصد القراءات التي راكمناها، والحكايات المروية لنا أو التي التقطناها. هذا ما يصنع مصيرنا الحقيقي. لقد عانينا، باستمرار كي نتخلص من ذلك فيما بعد. إذن، ما تبقى

Twitter: @ketab_n

من العمل يقوم ربما على إعادة تشييد لتلك الحقبة، شيئًا ما مثل النمر الذي عليه أن يصبح نمرًا. نستحسن، رؤيته يتربى مثل حيوان مجتمعي، لكنه سينتهي إلى حقيقته.

10 ـ هل شكّلت أصولكم العائلية مادة للكتابة؟ تساعدكم أم تبحثون عن نسيانها؟

إنها ليست بالضبط الأصول التي تشغلني، بل الكيفية التي تربيت بها. أمي، إنجليزية التجأت إلى مدينة نيس «Nice»، نظرًا لاستحالة بقائها في المنطقة المحتلة، لذلك اختفت داخل منطقة نيس «Nice». دون الحديث، عن الفظاعات فقد عشت قليلًا بالموازاة تاريخ اليهود أثناء الحرب:

أن تكون إنجليزيًّا خلال تلك الفترة، ليس بالأمر السهل جدًّا. أما والدي فقد كان طبيبًا في إفريقيا، لم أعرفه إلّا بعد مرور وقت طويل. بالتالي، حينما حاولت القيام بعملية تواصل بين أمي المُتجذرة في منطقة «بيكارد» (Picarde)، وأبي الذي عاد للاستقرار في أوروبا حاملًا معه كل تقاليد جزر موريس، بدأ بالفعل التصادم الحقيقي. لم يكن، بوسعي التعود على كوني من هذا الأصل أو ذاك، ولكن أن أستوعب جيدًا داخل هذا السياق الجنوبي الفرنسي، بأنني سأخضع من الآن لتربية على منوال فتى من موريس «Maurice». قالوا لي، نويل «Noël» عبارة عن احتفال وثني، لا تجب إقامته. كان من اللازم، أن آكل يوميًّا الأرز ووريقات القَرْع «Courges» ونبات الفُطْر «Brèdes» ثم خضرة

Twitter: @ketab_n

تسمى: «chaillottes»[1]، وعند الاقتضاء شيء من السِّلْق «Bettes»، ثم نغلي كل تلك المواد. فقط، يوم الأحد يمثل استثناء: يجوز لنا وضع مرق البهار الهندي على الأرز ونبات الفُطْر! هكذا، إذن وأنت تقضي كل طفولتك على الإيقاع ذاته، اليوم بعد الآخر، بينما الآخرون يأكلون بفتيك مع بطاطس مقلية، وليس لديك أية قطعة ثلج لأن آباءك لا يتوفرون أبدًا على جهاز للتبريد، فالسؤال الذي يؤرقك ينصب على الغرابة وليس الأصول: تحس بأنك قد تحولت داخل فضاء هو بالأحرى ملكك، ثم تعيش مثل جسم غريب.

11 ـ تولد الكتابة وتنشأ من هذا؟

بالتأكيد، إنها تعويض عن الحرمان. لكنها، ذوق أيضًا. فقد، أحببت عند الوهلة الأولى مجموعة كتب، ما إن اقتربت منها. أدين، بأسمى مشاعر طفولتي إلى جدتي التي وضعت تحت تصرفي كتابًا عجيبًا: «le Dictionnaire de la conversation» (معجم المحادثة)، تضمن خمسة عشر جزءًا (1858)، بدون أية صورة، نصّ مطبوع في شكل ثلاثة أعمدة جدّ متراصة، على الطريقة التي كانت سائدة في تلك الحقبة...، عمل شاق كُتب في قسمه الأعظم بفرنسية تليدة، لكنه بدا لي في الواقع كمادة للحلم ذاته. لقد تطرّق لكل المحاور: إنه العالم في كتاب. ولفترة طويلة جدًّا، استعنت

(1) نوع من الخضر يأتي من الجزر، كما ينمو أيضًا في جنوب فرنسا، يشبه الأفوكا، (Avocat) أو نباتات القرْع، ولها طعم البطاطس.

Twitter: @ketab_n

بمحتوياته في حياتي حتى أميز بين الأشخاص الذين قد يتشابهون معي عن آخرين لا يجمع أي شبه بيني وبينهم. أولئك، الذين اطّلعوا على هذا القاموس حفروا مثلي القمم ذاتها، واجتازوا العقبات نفسها.

12 ـ لدينا الانطباع بأنكم متأثرون جدًّا بالعابر والمُنفلت؟

سعى المجتمع المعاصر إلى القضاء على الموت والمرض والألم، لكنها لا زالت قائمة. يُصاب مجتمعنا بالذهول، وهو يجد هذه الحقائق أمامه. يعتقد في قرارة نفسه، بأن العالم قطعة ثابتة، بحيث لا شيء يتغيّر داخلها، إلّا أنه في العمق يبقى الاحتمال أساس كل شيء. الصيرورة، كيفية تجعلك في تناغم مع هذا اللاأمان المتواصل.

13 ـ حينما ذهبتم، هل كانت لديكم الرغبة بالانسحاب من حقبتكم، أو سعيتم باتّجاه مكان تتبلور فيه إنسانيتكم أكثر؟

لا أعتقد بأنني هربت من شيء ما. لو كان الأمر كذلك، لأفصحت عن رغبتي في الكشف عمّا سعيت لكي أتخلص منه. أثناء فترة استقراري الطويلة، فكرت دائمًا في الرحيل. حاليًّا، تسكنني فقط رغبة ملحة من أجل سماع أصوات أخرى، عملنا على منعها دون أن تصل إلينا. أصوات أفراد، رفضنا الإصغاء إليهم، ما دمنا قد احتقرناهم لفترة طويلة، أو لأن عددهم تافه، في حين يتوفرون على أشياء كثيرة يريدون إخبارنا بها.

Twitter: @ketab_n

14 ـ وقفتم مطولًا عند الجنون في كتابكم الأول: Le Procès Verbal - مفهوم، سيتوارد باستمرار لديكم...؟

لقد أنجزت هذا الكتاب، تحت تأثير «جيروم دافيد سالينجر» (Jerome David Salinger). أردت أن أتقمص هذا الأخير. لقد تمثلت ما كتبه وبالأخص قصصه. قرأت عمله «l'attrape-cœurs»، باللغة الإنجليزية، وقد استهواني حقًّا. بدأت، مشروع رواية لم أنهيها تعثر على مقطع منها في عملي: (Le Procès - Verbal). وقد، عنونته بـ: [Albonico Daisy trouve ce verbal qu'il fait bien chaud] أحيل، همسًا على «سالينجر» (Salinger). وكذا، هاتان الشخصيتان: «ألبونيكو» (Albonico) و«ديزي» (Daisy). أظن، بأن عقيدة البوذية شكلت مرشدًا «لسالينجر» (Salinger) وعلى ضوئها طوَّر شخصياته وبنى إنتاجه. إن عالم الطفولة، الذي يُستحضر ليس بشيء آخر، غير استعارة عن الافتتان الذي نحس به اتّجاه البوذية. كانت، لديّ رغبة لكتابة شيء ما من هذا القبيل، لكنني عجزت عن القيام بالأمر، لأن هناك من صنع ذلك قبلي، أيضًا البوذية لا تعني لي أي شيء. لم أطلع عليها قط، بدت لي جد متصنعة، كما أنه في تلك الفترة اهتممت أساسًا بالتنجيم، بحيث مثّل بوذيتي الخاصة.... عبره، تمكنت فيما أظن قول أشياء قريبة جدًّا ممّا قاله «سالينجر» (Salinger). تنتهي روايتي «le procès-verbal» بوصف للخلية المرتبطة بموضوعة التنجيم، فكرة منزل السماء الذي يحتوي على عناصر مصيرك. أعتقد أيضًا

Twitter: @ketab_n

بضرورة أن نستثمر الأدب في سبيل البحث عن إفراط نفسي، لا صله له بتاتًا مع التنجيم، لكنه طبي بامتياز أو على الأقل إكلينيكي. لقد قرأت في تلك الفترة عددًا من المؤلفات التي تطرقت لهذا الموضوع. تسجلت أيضًا في الجامعة، كي أحضر دروس علم النّفس، وأتمكن من الدخول إلى ملجإ صحبة مجموعة من الطلبة دون أن أكون ذاتًا ولا موضوعًا للدراسة، أو مُحلّلًا. كنت فقط ملاحظًا. وضع، استلهمت منه مجموعة فصول رواية: «le Procès-verbal».

15 ـ تأثرتم كثيرًا بـ: ميشو Michaux ولوتريامون «Lautréamont». قلتم، عن ميشو «Michaux» في كتابكم الصغير والمدهش: (Vers les Icebergs): «ليس هناك من شاعر في العالم، بإمكانه قول أشياء كثيرة بكلمات قليلة جدًّا». لوتريامون Lautréamont يختلف عن ميشو Michaux...؟

نعم، «لوتريامون» يتعارض مع «ميشو»، مع كل هذا المظهر الخداعي الذي يصعب جدًّا إدراكه. لا نعرف أبدًا، أين يبدأ الجنون وأين يبدأ الخداع. يتعلق الأمر هنا بأدب يافع. لقد وصلت إلى «لوتريامون» من بعيد عن طريق أصدقاء نصحوني بقراءته. بالنسبة، لـ «ميشو» لم أعد أتذكر الظرف جيدًا، لكن، ذلك أتى عفويًّا. ربما، صدفة داخل مكتبة. بحيث في فترة معينة كنت أقرأ بنَهم في المكتبات. لقد أقمت مزارات طويلة بجوار أقفال الأبواب، أحدّد الصفحة التي وقفت عندها، ثم أعود في اليوم التالي. إلى يومنا هذا، أتأثر

Twitter: @ketab_n

حينما أشاهد أشخاصًا يواصلون القيام بالعمل ذاته. وغالبًا، حينما أكتشف وريقات صغيرة بين صفحات كتب معروضة للبيع، أعرض عنها وآخذ محلها أخرى.

16 ـ الراوي في روايتكم: Le Déluge. خلق عالمًا انطلاقًا من ذاته. هل، ذلك ما نصنعه حينما نكتب: نخلق عالمًا من داخل غرفة؟

نعم، بأن تعتبر ما سبقك وما سيأتي بعدك، مماثلًا للعدمين اللذين يلفان الغرفة التي تحكي داخلها «مارغريت يورسنار» (Marguerite Yourcenar)، بأن قائدًا سكسونيًا شاهد تحليق طائر. فقال له، «بيد» (Bède)، رئيس محفل ماسوني عاين المشهد: «الحياة تشبه هذا الطائر الذي اقتحم الغرفة ثم عَبَرها محلقًا كي يخرج عبر النافذة الأخرى بعد أن اختطف الضوء بصره. سيذهب من عاصفة إلى ثانية، سيتجول للحظة في الغرفة، ثم يختفي». لقد، كانت الصور من القوة، بحيث إن القائد السكسوني سيتحول إلى المسيحية بعد سماعه لهاته الكلمات. إننا هنا، أمام حضور لاستعارة أدبية. نذهب، من عدم لاأدبي إلى عدم آخر، لاأدبي أيضًا، وخلال لحظة، نحلق وسط فوضى جلية وقليلًا مُبهرة.

17 ـ تشغل مضامين روايتيكم: «Terra Amata» و «l'Extase Matérielle» موضعًا استثنائيًا في عملكم؟

جاءت معطيات «l'Extase Matérielle» مباشرة بعد حوارات أجريتها مع مجموعة من الأصدقاء، عند خروجنا من

Twitter: @ketab_n

النادي السينمائي. نجتمع، ثم نزعزع العالم. ولأني، كنت أعاني الأرق فلا أستطيع النوم إلّا بعد تدوين الأفكار التي أثرناها وكذا ضدها. الحصيلة، «متوسطة للغاية». أعتقد، بأننا قد لامسنا من خلال ذلك، اكتمال ما في حدود المعدل. أفكار، لا نتلقاها لكنها «متوسط» ما يمكن لكائن إنساني عادي إدراكه بالاستناد على كل عكاكيز الثقافة. هو أيضًا، كتاب يافع. أما بخصوص، نصوص «le Déluge» وكذا «Terra Amata»، فقد توجهت قليلًا نحو تأسيس كتاب يوجد فيه عدم قبلي وعدم بعدي. وأظن، من جهة أخرى، بأنني كتبت دائمًا على هذه الطريقة وفق البناء التالي: مُعيّن الشكل.

18 ـ يقول الشاب «هوغان» (Hogan) في كتاب: «Les Fuites». «أريد رسم طريقي كي أهدمه». هي الحالة بالنسبة إليكم؟

سنة 1969، تلقيت رسالة من قارئ، تتضمن لهجة تهكمية بل وناقمة أحيانًا، يقول فيها: «سيدي، لا أفهم أبدًا لماذا تعمدون إلى تقطيع الغصن الذي تجلسون عليه». أذكر جيدًا، حينها قلت مع نفسي: «هي صورة جيدة». وعلى وجه الأرجح فذلك ما واصلت القيام به طوال الوقت. (يبتسم).

19 ـ بقدر ما نتقدم، يتحتم علينا مسح آثار ذلك؟ نمحوها بالرغم منّا؟

ذاك، ما توخيت عدم الكشف عنه. أعمل على إخراسه، إذن.

Twitter: @ketab_n

20 ـ إنها القضية التي دافع عنها كتابكم: «Haï»، الصادر عن «Skira» والذي يروي لقاءكم مع هنود كولومبيا...؟

اتّجهت الفكرة نحو الجمع بين رسام وكاتب، أو عمل تصويري وكاتب. بالاستناد إلى حقبة، تميز فيها الرسم باعتباره «أسلوبًا ـ لاذعًا». أما اليوم، فإن الرسم ومثلما يُنظر إليه في العالم الغربي، باتخاذه لمظهر تجاري، فلم يعد يهمني قط. توخيت، الكتابة عن أشخاص لا ينفصل عندهم الفن عن الحياة. تردّدت، كثيرًا للقيام بذلك، ولو انتفى أي تأثير له على العالم ـ بالتأكيد تمنوا قطعًا عدم صدور هذا الكتاب ـ اعتبرت بأن الأمر ينطوي على كثير من الوقاحة، حينما تفكر في الكتابة عن أشخاص يعيشون مع صمتهم، لقد تجنبت عدم إزعاجهم.

21 ـ قلتم مع نفسكم: هل لديّ كل الحق لكتابة عمل كهذا؟

طرحت سؤال الصور. في البدء، رفضت الكشف عن كل صورة للوجه. لكن الناشر، وجد المشروع عقيمًا. ثم، اخترت حلًا وسطًا: ستظهر الوجوه، لكنها تُرى فقط من خلال النصف، ونوظف الصور بشكل يصعب معه التعرف على الأشخاص. مجرّد، حيلة تشبه مقولة نازي: أنا لست مسؤولًا، لا صلة لي بما حدث من قريب أو بعيد، قمت فقط بالتوقيع على ورقة. حضرت الوجوه، إذن بين صفحات الكتاب. لم تكن، قضية أشخاص يخشون فقدان روحهم إذا عملنا على تصويرهم، بل هم أشخاص يوجدون باستمرار في حالة دفاع ويحتاجون للاحتماء. فليس بوسع الهنود الأميركيين مواصلة الوجود، إلّا إذا أقاموا حواجز دائمة من حولهم. بالتالي، إعطاء الفرصة لشخص ما كي يتخطى الحاجز،

Twitter: @ketab_n

أو يقدم على الخطوة من تلقاء نفسه، يعتبر شكلًا من أشكال العدوان. استحضار، تجربة المخدرات عند الهنود يعكس أسئلة حقيقية. لقد سبق لي الشروع في إنجاز كتاب بهذا الخصوص، لكنني تركته: كان سيشكل هجمة حقيقية على عالم الهنود. سيؤول بشكل سيئ جدًّا في ثقافتنا، التي جعلت من المخدرات فضولًا وشيئًا غريبًا، مفاهيم لا علاقة لها تمامًا مع الأداة التي يقدمها العالم الهندي. رفضت، الاشتغال على مادة لا أمتلكها، بل فقط منحت إليَّ. إن الساحر الكولومبي الذي لقنني ورأى في كياني صديقًا يمكنه التحدث إليه، لا أعتقد بأنه سيتحمس كفاية لفكرة أن أفشي أسراره.

22 ـ ألا يقوم الكاتب دائمًا بإشاعة الأسرار؟

نعم، بكل تأكيد. إنه مختلس. فحينما، استعملت جريدة جدي كي أكتب رواية: (Voyage) بـ (Rodrigues). لم تكن لي، بل هي لشخص آخر.

23 ـ كيف يمكن أن نصنع الأمر بشكل مغاير؟ فالكاتب هو أيضًا ساحر، إنه يتلاعب؟

لكن مع جريدة جدي، تكلمت عن أشخاص من الماضي. لقد كان ذلك بالنسبة إليَّ أقل إزعاجًا من الحديث عن آخرين أحياء، يمثل لهم البقاء اليومي شيئًا صعبًا. وكما عبرت بنوع من التهكم عن وضع لا يجسد مثالًا للنفاق.

24 ـ المال، مهم بالنسبة إليكم؟

أن يكون لكون لديك الوقت للكتابة، أهم من توفرك

Twitter: @ketab_n

على المال. إذ أُجبرت على ممارسة مهنة، مثل أمين صندوق في بنك كي أكسب قوتي، فلا شكّ سأعود مساء إلى البيت وأنا مرهق جدًّا. بالتالي، سأعجز عن الكتابة.

25 ـ هل هناك فقر نختاره، مقابل آخر لا نختاره أبدًا؟

أنتمي إلى عائلة واسعة الثروة، مالكين كبار للأراضي بجزيرة موريس. لكن، بعد عدة انشقاقات، أصاب الإفلاس جزءًا من أسرتي، وكان لا بدَّ من الهجرة، فظهر جيلان. أبي، وجد نفسه في «نيجيريا»، بينما رحل عمي إلى منطقة «ترينيتي إتوباغو» (Trinité - et - Tobago) وتوجه عمي الثاني إلى «لاريونيون» .(La Réunion) جدي من جهة أمي، اهتدى إلى باريس قصد ممارسة الطب. تشتّت حقيقي...، كل بنات هذا الفرع دمرن، وأصابهن سوء الحظ ـ جلّهن متزوجات أو فقدن زوجًا في الحرب ـ ووجدن أنفسهن داخل وضعية يصعب وصفها لكم.... لقد فتك بهن الجوع، ولم يصمدن إلّا اعتمادًا على مساعدة أقرب المقرّبين [مرحلة وصفها لوكليزيو في روايته: Ritournelle de la faim (2008)]. حينما، تحمل كل هذا وراءك ... لا أعرف لماذا، أشعر بأنه يجعل منك إنسانًا آخر. حين نعيش تحت وطأة ذلك الفقر. أو عرفناه لأننا عايناه. فقد التقيت نساء من هاته الأسرة وجدن أنفسهن مع نهاية حياتهن وحيدات، ليس لديهن أي شيء ولا يعرفن كيفية تدبر مصيرهن، خاصة وأن تربيتهن هيأتهن نحو حياة الترف. انتهى بهن الأمر لأكل القُشارة، بحيث استحال عليهن اقتناء الخضر. لم يكن بإمكانهن الكشف عن حقيقة وضعهن، لأن

Twitter: @ketab_n

كرامتهن أحالت دون القيام بذلك. بالطبع، يصعب أن نتخيل أفظع من عوز شخص مُسن، وقد وجد نفسه وحيدًا بين أركان كوخ قذر وسط مدينة، يعيش تقريبًا من لا شيء. مدينة «نيس» (Nice)، وهي بيضاء جدًّا تخلق لدينا الانطباع بالتفاهة، تخفي العوز داخل فضاءاتها. هكذا، نصادف باستمرار وفاة أشخاص تتراوح أعمارهم بين 70 و 80 سنة، نتيجة الجوع، وفي أكواخ موبوءة، ولأنهم لا يسمحون لأنفسهم بطلب المساعدة. ذاك، هو الأسوأ. إنه، هاجس. في الوقت ذاته، كل ما قد يتعرّضون له، يظهر بلا أهمية قياسًا لهذا العوز. نشير، أيضًا إلى نوع آخر من العذاب، لا يهم فقط المعتوهين، بل هؤلاء المتموضعون عند الجانب السيئ من عائق اللغة. شخصيًّا، أجد نفسي في موقع ممتاز أمام هاته العقبة، أدرك كيفية تدبير اللغة. فأنا، متمكن من ذلك. في المقابل، هناك أشخاص يقفون في الجانب الآخر السلبي. لقد شغلتني هذه الأسئلة، في إطار كونها مرعبة، بحيث مثلت لي على وجه التقريب كابوسًا، وأحسست بأنه يصعب جدًّا ضبطها. ليس خشية، أن أصاب بذلك، لكنني أظن بعدم الحيلولة دون حصوله. فلا يمكننا، منع حدوث مثل تلك الأشياء.

26 ـ لقد فتّت ميشو Michaux الأجناس الأدبية: القصة، الشعر، الرواية. هل لمفاهيم كهاته معنى بالنسبة إليكم ككاتب؟

ليس هناك من أهمية قصوى، كي أعمل على تحديد ماهية الرواية أو القصة. يتعلق الأمر، بمسألة الإيقاع. حينما

Twitter: @ketab_n

تبدأون بعض المؤلفات يحضر لديكم إيقاع، يوجهكم نحو ما ستكونه رواية، أي عمل أكثر موسيقية ربما ممّا عليه الوضع مع القصة بالنسبة لآخرين. إذن، كما ترون فالأمر ينتمي أكثر إلى وقائع مختلفة. قد تتفاعل، تقريبًا مع زاوية في جريدة، لكن ليس بإمكانك أن تبرر حقًّا الدواعي التي وجهتك. ربما مادة ما، تأهبك للحظة... لا أدري.

27 ـ هل الأمر بهذه الكيفية؟

نعم، بالضبط: على المنوال نفسه.... توفرت، فيما مضى على ملف يتضمن محتويات مختلفة، لا تمثل أي شيء لكنني أحيانًا أقرؤها باللذة نفسها التي أطالع بها قصص تورجنيف Tourgueniv. يقوم شيء ما، وراء الابتذال الجلي. يبدو، بأن الجنس الأدبي أصعب في تحديده من الإيقاع، والذي يسبق وجوده الكتابة، كما يتأسس معها في الآن ذاته. غير قابل مطلقًا للضبط، مع انعدام كل مسؤولية من طرفي في ذلك. إحدى نصوصي مثل: Poisson d'or، هي في الواقع حكاية تقارب خمس عشرة صفحة على الأكثر، مثلت لديّ رواية على مضض. لم أستطع قط المقاومة. كان الأمر يتطور لوحده، إلى حدّ أن الفصول التي لم أتوقعها جاءت لتؤكد حضورها. لا أتكلم، بالضبط عن شخصيات تنفلت بل أقف عند السرد ذاته، النص الذي يتضخم بغتة. أتساءل، إذا كان ذلك يشبه نوعًا من الانتشار الميكروبي، أو من الصنف نفسه. يتميز الخيال، بجانبه المعدي شيئًا ما، وبجانب آخر اجتياحي أيضًا شيئًا ما.

Twitter: @ketab_n

28 ـ إنها عوائق الحياة اليومية التي تستبعد كل اكتساح للمُتوهَّم؟

عوائق الحياة اليومية أو الدماغ العقلاني. نقول، بأن المجانين يسيطر عليهم الوهمي، يعيشون أقصى درجات ذلك وقد اكتسحهم خيالهم. غير قادرين على التمييز بين ما هو «صحيح» واقعي، وكذا المتخيل. حينما أكتب، أحس بأنني أعيش اقتحامًا للمتخيل. أثناء الفترات الجيدة واليوم السعيد، حيث يغمرني الارتياح. أو على النقيض، مكتئب في حاجة ماسة للكتابة، لحظتها أستسلم للغزو. حينما، تتجلّى ثغرة من خلال نغمة موسيقية أو جملة، وتأتي أخرى ثم أخرى، وأحس فجأة بضغط ورائي، ينتابني إحساس بالثقل. إذا كبحت، فإنني أوشك على فقدان التوازن. عندما ينتهي هذا الغزو وأسترجع صحتي مرة ثانية، بحيث يمكنني أخيرًا الانتهاء من هذه الحالة. حينئذ، أحس بأنني متعب جدًّا. هذا يعني، الكتابة قد حلّت.

Twitter: @ketab_n

الطاهر بن جلون:
الأوغاد، يموتون فوق أسرّتهم[1]

كل واحد منا، أخطأ ذات مرة، حين اعتقد بأن الشيطان ذاك من يصنع الشر والكراهية، باعتبارهما شغفه ومهنته. وجهه قبيح، وتتوسط جبهته عين، ثم تكشيرة مكان الفم، والأنف قرن أزغب، كما كتب سيوران Cioran في عمله «Précis de décomposition»: «استدعاء الشيطان، يعني أن نُزيّن بشيء من التيولوجيا، إثارة ملتبسة، ترفض شهامتنا قبولها كما هي». فالشيطان، إنسان عادي، لا شيء يميز مظهره الفيزيائي، بحيث قد يكون مساعدك أو رئيسك في العمل أو ببساطة جارك. يلزمنا، الوقت والتجربة ثم أن نكون أحد ضحاياه، كي يكشف جوهر عينيه عن سائل مصفرّ، ينساب من الغيظ الذي تبعثه روحه.

مادة صفراء، تغذي الدسائس كي يأخذ بالقوة ما لا يحقّ له، ويتعدى على عمل واستحقاق الآخرين ثم ينفجر ضاحكًا حينما يهزم كل العالم، لا سيّما العدالة والحق. ينبغي التأكيد،

(1) عن جريدة **لوموند**، السبت 1 يناير/كانون الثاني 2011، ص 31.

Twitter: @ketab_n

بأن التخيل السينمائي قادنا للسفينة منذ فترة طويلة، أكثر من نظيره الأدبي. مثلًا، فيلم «ڤيكتور فليمين» المعنون بـ «الدكتور جيكل والمستر هايد» (1941)، بطولة «سبنسر تراسي» و«إنغرد بيرغمان»، كشف لنا من خلال إخراج سينمائي رائع كيف يتحول الخير إلى شرّ عند الشخص نفسه، كما أن البشاعة الفيزيائية، حليف للشرّ.

كرّس جان پول سارتر صفحات مضيئة، لما أشار إليه بمصطلح «وغد». لقد اعتدنا على القول، بأن «الأوغاد سيذهبون إلى الجحيم» و «العدالة الإلهية لن ترحمهم». لكن، إذا استبعدنا هذا الطموح، يجب حقًّا الإقرار بأن هؤلاء القذرين يعيشون طويلًا ويموتون على فراشهم. وباستعادتنا لحالات تاريخية تنتمي للقرن العشرين، سنضطرب حين الاختيار بين ستالين وفرانكو وبينوشي. مع ذلك، تتجلّى بعض الاستثناءات كانتحار هتلر وشنق موسوليني وصدام حسين. لكن، إذا اكتفينا بدائرة الحياة اليومية، سنلاحظ بأن الأوغاد أسراب ولا يحتاطون قط من أجل الحفاظ على ماء الوجه. الحقبة، جعلتهم متعجرفين بل وكائنات مبتذلة (لنتأمل الأحكام القبلية العنصرية، التي تحيط بالقانون وتعلن عن نفسها دون خوف).

أنا مقتنع بأن الشيطان، وهو يطوي حجرة مكان قلب، فذلك يطيل حياة أعضائه الحيوية. تنبت ثانية لحظة الموت، بمتانة ترهب المرض. يهزمنا، الشر. كما يتحدث جورج باطاي عن («الضعيف»: «لا يُوجد شر، كل شيء نقي، والعلم يعطي الدليل»). تتلف الطيبوية والحساسية، خلايانا، يهشمان عظامنا

Twitter: @ketab_n

ويتقبلان إراديًّا المرض ثم الموت. سيلاحظ، «وليام فولكنر» في روايته المعنونة بـ «Tandis que j'agonise»: «يتبدّى ألم ويأس العظام، الحبّة الصلبة، التي تحتوي دواخل الوقائع المُغتصبة».

العصر، بمخادعيه، ومحتاليه، هؤلاء المفسدون، المرتشون، والمغتصبون الذين أصبحوا عتاة نتيجة المال السهل ضدًّا على الفضيلة الإنسانية. انظروا إلى ما يقع حولكم: برلسكوني يمسك بالسلطة مع ازدرائه لقيم الديمقراطية، ولا يخفي شيئًا من الأمر، وأضحى في بلاد المافيا المثال والصورة، اللذين يجب إعادة استنساخهما. يباع الناس، ويمكن شراؤهم، شراء صوتهم وعيهم وضميرهم. أشياء، تنازلوا عنها إراديًّا لأن الخير والقانون والعدالة، لم تعد أبدًا مثمرة في عالم، تسحق القساوة يوميًّا الأكثر ضعفًا. إذًا ما العمل؟ البكاء أم الصلاة؟ ماذا نفعل مع شيطان، يبدو كما كتب سيوران «Cioran»، أن: «سعادته في احتراق الدّم وكآبة كل خلية على حدة وكذا ارتعاش الأعصاب، من خلال هاته الصلوات المعكوسة التي تفوح منها الكراهية في كل مكان، فيثير الرعب؟».

الاستماتة بغية الدفاع، أكثر من أي وقت مضى عن قيم الاستقامة والعدالة وكذا النزاهة. في جميع الأحوال لا نُمسخ فجأة إلى شيطان، بل نهتدي إليه، لأننا تعلمنا من خلال دروس ليلية كيف نسرق وننتهك ذكاء الأشخاص الطيبين. ستجدون، السجون ممتلئة بصغار الصعاليك عوض كبار اللصوص أو الرؤوس الحقيقية للنهب المخطط والمبرمج.

إنها قيم خاطئة، تلك التي تغمر شاشتنا التلفزيونية!

Twitter: @ketab_n

نصابون متهمون، يواصلون ظهورهم كي يشرحوا لنا العالم، عبر برامج تلفزيونية محترمة، قطاع طرق من مقام رفيع، لم ينجح أي شخص في البرهنة على شرورهم، هم موضع إعجاب، وتتم دعوتهم لكي يحتقرونا تحت يافطة ابتسامات. أشخاص، لا يكتبون كتبهم ومع ذلك يستمر خداعهم لنا. أسماء، تلمع في سماء مجتمع العروض المسرحية. مريدوهم يصمتون، بالتالي يكفلون لهم الحماية، هكذا تبدو الحياة مثل صوت إيمائي، ولا شخص يجد قطعًا ما يطعن فيه. بين الفينة والأخرى، قد يحتجّ أحد ما، وينعتونه بالجنون. لكن، الفظيع إلى جانب هذا، أن بعض وسائل الإعلام تنجز عملها بشكل جيد، بحيث تقوم بتحقيقات معقولة، تزيح الزائف وراء الأقنعة وتزيلها. بعضها، يذهب أبعد من هذا المستوى ويصدر مؤلفات غير قابلة للطعن عند الإثبات. لكن، الآلة تواصل دورانها. فيقال بأن الدحض يمثل جزءًا من كلّ والمزيّف متوقع في برنامجه. إذا لم يساعد هذا في شيء، فإنه يخمد همم الإرادات الصادقة ويغذي اليأس العام.

الشيطان، فينا، يسكننا، ذلك ما يقوله بعض الفلاسفة. علينا، أن نكتشفه ونطرده من دواخلنا، مهما، كان الثمن. وإلّا، فسنغدو مجرّد «دمى متحركة، محشوة بالكريات الحمراء، كي تخلق التاريخ وتقززاته»، على حد تعبير «سيوران».

Twitter: @ketab_n

الطاهر بن جلون:
تأبين صداقة[1]

بكل تأكيد، هاجس الفقد ما يدفعني غالبًا إلى رثاء صداقة. يكتسح الغياب الزمان، يختلط بالموضوعات، يزعج الأشياء ثم ينساب مثل غبار رمادي بين الظفر والجلد. صديق يرحل، واقعة لا تستساغ، بقيت إشارات لسنوات تنبهنا لهذا الأمر رحمة بنا. هكذا، تهيأنا للحظة، تخيلنا أنفسنا دون هذا الكائن، لكن انتابنا الضعف، نعزي أنفسنا بمبررات، وها نحن أمام فراغ، غثيان يحيلنا على السماء.

من وراء أبواب ضخمة، تفتح بصعوبة، تندفع الذكريات بلا رقيب. تنتشلنا من الصمت الكبير، ثم تتركنا إلى وساوسنا. سيظهر، الحِداد مثل زائر، غير متوقع. لم نتعود على هذا. يغير الحزن لونه. إنه يختلف كل مرة.

اسمه، إدمون عمران المليح، توفي يوم 15 نوفمبر/ تشرين الثاني 2010. يهودي، وُلد بمدينة آسفي. انتظر، طويلًا قبل ولوجه عالم الكتابة. كان يجد صعوبة، في الإمساك بقلم

(1) **Le Monde** 5/12/2010. Page 27.

Twitter: @ketab_n

بين أصابعه. يشير، هازئًا. إذن، ترقب حتى تعثر كلماته على مسلكها، وأن الوقائع التي عاشها في المغرب، مناضلًا شيوعيًا، سريًا، اختمرت ولامست نضجًا جليًا. شهر مارس/ آذار 1965، كان قد ترك الحزب، ويدرس الفلسفة بمدرسة ثانوية بالدار البيضاء. لكن، نتيجة تظاهرات التلاميذ والطلبة، التي تعرّضت لقمع شرس من قبل الجنرال أوفقير، اعتقل البوليس إدمون عمران المليح، وعنّفه بقسوة. فاضطر إلى اختيار منفى عاشه بمرارة، بحيث أتى صحبة زوجته إلى باريس، وتحملا أيامًا صعبة.

المغرب، الأرض المغربية، الهواء، الشمس، الريح، التراب، لقد افتقد عطور المغرب. إنه يمقت الحنين. وبقي يعتبر نفسه فقط، مواطنًا مغربيًا، رافضًا بشدة الحصول على الجنسية الفرنسية، هكذا في يوم من كل سنة، يتوجه باكرًا إلى مقاطعة منطقة « L'île de la cité » (الباريسية).

ويصطف في طابور، كي يجدد أوراق إقامته. هي فرصة أيضًا، تتيح له، التقاء أهل بلده، ينسج صداقات مع البعض منهم، يتحدث إليهم باللغة العربية ويدعوهم لزيارته. كان معتزًا بمغربيته، وينزعج لأقل انتقاد لوطنه. فلا يحقّ لنا القول، بأن الحوامض المغربية، كانت تلك السنة أقل جودة من نظيرتها الإسبانية، أو زيت أرغان مذاقها قوي جدًا.

ولأن تجربة المنفى، ينبغي أن تروى، فقد جلس إدمون أمام آلة كاتبة قديمة، وشرع يكتب ويكتب دفعة واحدة، نصًا مذهلًا، جاء تحت عنوان: [Parcours Immobile]. أصدره،

Twitter: @ketab_n

فرانسوا ماسبيرو سنة 1980، ضمن سلسلة « Voix » (طبعة ثانية، سنة 2001 عند «أندريه ديمانش» إلى جانب روايته الثانية (Aïlen ou le nuit du récit). استندت لغته الأساسية، على اللهجة المحلية. سيقول، فيما بعد: «الكتابة بالفرنسية، أعرف بأني لا أكتب بالفرنسية. كان هذا التطعيم الفردي للغة بلغة أخرى، لغتي الأم العربية، هذه النار الباطنية». كاتب في الستين من عمره، يجد ترحيبًا لدى أهل النقد.

بيد أنه اشتاق كي يعود للوطن ثانية، يحياه مرة أخرى جسديًا مع مجرياته اليومية. التاريخ، حقبة سنوات الرصاص وهيمنة دولة الاستثناء على المغرب. سافر إدمون، لكن الحزن والتأثر يقطعان أحشاءه. شكلت اللقى، بالنسبة إليه أهمية حيوية. أصدقاء، هنا. لكنها، سعادة غير مكتملة وهو يلاحظ كم الوطن مريض ومنهك ومشلول بعد المحاولتين الانقلابيتين ضد الحسن الثاني، فاشتدت القبضة البوليسية وازداد الاستبداد. غير أن إدمون تشبّث بأمل رؤية المغرب خارجًا من النفق.

كانت متعه بسيطة: الذهاب إلى السوق، التحدث إلى القروي الذي يبيع الجبن، شراء زيت أرغان من البقال البربري، فإدمون طباخ ماهر. بل في الواقع، صار كذلك بسبب ظروف المنفى كي يظل ملتصقًا بالأرض والأجداد.

ترجمت مؤلفاته إلى العربية وأضحى وجهًا أسطوريًا، ليس لأنه يهودي، وتمسك مع ذلك كليًا بانتمائه العربي والمغربي، ودفاعه المستميت عن قضية الشعب الفلسطيني،

Twitter: @ketab_n

ولكن باعتباره مفكرًا اتسم بفرادته. ملحّ ومختلف في رأيه، متشبع بفلسفة «ولتر بنيامين»، «كورنيليوس كاستورياديس» وكذا «كلود لوفور» الذي كان قريبًا منه. اهتم كثيرًا بمدرسة فرانكفورت، وتماهى مع يورغان هابرماس.

حين عاد إلى المغرب بعد وفاة زوجته، لم يحس إدمون أبدًا بعزلة الأرمل. أحاط به الأصدقاء، من مختلف الأجيال. لا سيّما، التشكيليون المغاربة، فقد كانوا يقدرونه بشكل خاص، نظرًا لما ميزه من حس بارع تجاه الإبداع وشتى الفنون، وكان يتابع أعمالهم، ويكتب عن بعضها. بيته المتواجد بالرباط، بقي مفتوحًا، يرتاده الأصدقاء، يشربون شايًا، يتجادلون معه، ثم يتركون مكانهم لآخرين، يأتون من أجل لذة أن يكونوا برفقته ويستمتعون بجانبه الفكاهي.

لقد تعرف على «جان جنيه»، ولكن الأخير لم ينتبه لما يتوفر عليه. فيما بعد، كتب إدمون نصًا جميلًا عن عمل «جنيه» المعنون بـ: [Un captif amoureux].

سيعبر إدمون المليح عصره، وهو ينمّي الشكّ ويحذّر من الأوهام الإيديولوجية. لكن، من أجل استقلال المغرب، التحق بصفوف الحزب الشيوعي المغربي، وناضل في السرّ، ثم حين استعاد الوطن سيادته، سيغادر خليته التي استسلمت لخدع الطقوس الستالينية. استحضر، إدمون حيثيات هذه الحقبة، من حياته في نصه: [Parcours immobile].

إن الأهم، في رحلته هاته توطيد هويته اليهودية ـ

Twitter: @ketab_n

العربية، ورسوخه داخل الأوساط الشعبية بالمغرب، وارتباطه العميق بمسقط الرأس وكذا تاريخ التعايش الثقافي بين اليهود والمسلمين، مثلما وصفته أعمال عديدة ليهودي مغربي آخر هو «حاييم زعفراني»..

Twitter: @ketab_n

آلان ميري[1]: الأدب والمال

بالنسبة لفريديريك لونوار، حدث المفصل سنة 2004، حين أصدر هذا الكاتب وعالم الاجتماع والفيلسوف، صحبة «فيوليت كابيزوس» نصًّا مشتركًا: La promesse de l'ange رواية بيعت منها 700 ألف نسخة، على امتداد خمسة وعشرين بلدًا.

السنة ذاتها، نفدت 200 ألف نسخة من عمل، كتبه مع «ماري فرانس إيتكيغوان» تحت عنوان: [code da vinci, l'enquête]، أول تفكيك لرواية الكاتب الأميركي «دان براون»، الذائعة الصيت. بعد هذه الدراسات عن الدين والفلسفة، فقد باع داخل فرنسا أكثر من 100 ألف نسخة، كما عرفت رواياته نجاحًا متزايدًا في الخارج.

بيد أن هذه التجربة المتميزة، تبقى الشجرة التي تخفي الغابة: حين يتعلق الأمر، بأدباء آخرين يفتقدون لأي مقام ورؤية، أو أقساط مالية تحت الحساب، أو موارد. داخل فرنسا، الأدباء الذين يؤمّنون دخلًا بالاعتماد على أقلامهم،

(1) **Le Monde**: Mardi, 7, Septembre, 2010.

Twitter: @ketab_n

يشكلون أقلية طفيفة، وسيكون مجازفة بهذا الخصوص إعطاء أرقام مضبوطة. لكن، يبقى مؤكدًا، أنه: «قياسًا إلى عدد الكتب الصادرة [60 ألف من بينها 35 ألف عنوان جديد]، فقليل جدًّا المؤلفون، الذين يجدون موردًا في قلمهم، لكن مع ذلك، مستواهم المعيشي جيد جدًّا»، يلاحظ الناشر جيل كوهن سولال.

على امتداد عشرين سنة، استطاعت العناوين الرائجة في السوق، تعميق المسافات، انطلاقًا من روائيات مشهورات: أنّا غلفالدا، فريد فارغاس، أميلي نوتومب، موريل باربيري، .. وانضمت إليهن حاليًّا كاترين بانكول وصولًا إلى أقل دخل عن النشر، فإن المقام الأدبي ـ (نسترجع هنا عنوان دراسة للسوسيولوجي «بيرنار لاهير» حول الموضوع، صدر سنة 2006 عن منشورات la découverte ـ مختلف جدًّا.

اتسعت الهوة، بين كتّاب مغمورين، لا زالوا عند حدود مستوى للبيع، لا يتجاوز بالكاد ثلاثة آلاف نسخة منذ عشر سنوات، وإن لامسوا بصعوبة اليوم رقم أربعة آلاف. يقابلهم، في الجهة الأخرى، روائيون استطاعت عناوينهم تجاوز ثلاثين ألف نسخة، وضع يشكل العتبة التي تمنح الأدباء إمكانية، أن يعيشوا في رغد بفضل إنتاجهم الأدبي.

بناء على ما أوردته مجلة «Livres Hebdo»، وتصنيفها لأفضل مبيعات سنة 2009، فقد أدرجت قائمة أربعين كاتبًا فرنسيًّا، يتقدمهم «جون فيليب توسان» الذي باع 29 ألف نسخة عن روايته: [la vérité sur marie] (منشورات مينوي)، ثم «بيير

Twitter: @ketab_n

ميشون» 32 ألف نسخة، همّت روايته،[les onze] (مطبوعات فيرديي)، وقوفًا عند «ماري نداي» المتوجة بجائزة غونكور لسنة 2009، والتي بلغ عملها: Trois Femmes Puissantes (غاليمار)، 346 ألف نسخة. هي معطيات، تقوم على عينات تشكل تقديرًا، قد يرتفع ثانية إلى 20%.

كذلك، يجب أن يكون مسار البيع منتظمًا. فعلى هذا، يتوقف التماسك المالي للأدباء: «أنا مطمئن حاليًّا، لوضعي المادي، لكني أخاف أن أضيع ثقة قراء أصبحوا أوفياء لي» يعترف فريديريك لونوار. ينهض سر النجاح على ضمان إخلاص القراء: (فانطلاقًا من لحظة انتشار، يبدأ جمهور ما بملاحقتك) يضيف فريديريك لونوار، الذي يعرف عمّا يتكلم، وهو من عانى الحرمان طيلة خمس عشرة سنة قبل نجاحاته الأولى، حينما كان يصدر مؤلفات لا يبيع منها سوى خمسة آلاف عدد. لكنه ليس الوحيد. أيضًا، «تاتيانا دو روزناي»، بدأ تحليقها لما أخرجت روايتها: [Elle s'appelait Sarah (2007)]، اقتبسها فيلم سيخرج إلى قاعات السينما يوم 13 أكتوبر/تشرين الأول. هكذا، بإمكان الصحافية السابقة، أن توفر حاليًّا مصاريف الحياة من خلال عائدات نتاجها الأدبي. لكن، كان عليها انتظار روايتها التاسعة، كي تقتحم الشاشة. وأضحت، تجد نفسها في مواجهة أسئلة الأغنياء نفسها، كالضرائب مثلًا. تقول ساخرة: «إذا غادرت فرنسا لأسباب مالية، فسأعلن ذلك أولًا على صفحات تويتر «Twitter».

نموذج آخر، بمناسبة هذا الدخول الثقافي لشهر

Twitter: @ketab_n

شتنبر/سبتمبر/أيلول، حين استحضار «دانييل بيناك»، أحد مؤلفي سيناريو ألبوم مغامرات «لوكي لوك» «Lucky Luke»، التي ارتفع سحبها الأولي إلى 350 ألف نسخة. ومنذ نجاح رواية [Des aventures de la famille Malaussène]، ثم بلوغه القمة مع عمله، [la Petite marchande de prose] (غاليمار 1989)، فقد تحول التلميذ الطائش سابقًا، إلى كاتب يراكم النجاحات، عبر كل ما يصدره: رواية، قصص مرسومة، أو دراسة، كما هو الحال مع [Chagrin d'école] (غاليمار)، مكنته سنة 2007 من الحصول على جائزة «Renaudot».

إذن، ينتمي هؤلاء الأدباء الذين يساوي توقيعهم ذهبًا، إلى حلقة منغلقة وصغيرة جدًّا: نجد على رأس هذه المجموعة المعدودة من المحظوظين، مارك ليفي، والذي لامست أصداؤه في الموقع الإلكتروني: [Un français des ventes] رقمًا إجماليًّا بلغ 80،6 مليون أورو، خلال شهر نوفمبر/تشرين الثاني 2008، بعد حساب كل المبيعات وكذا تراكم الحقوق الفرعية (ترجمة، كتاب الجيب، ندوة، سينما) لمؤلفاته ما بين 2005 و 2008. داخل هذا النادي الصغير، نقف طبعًا على «غيوم ميسو» و«بيرنار فيربير»، الأول 35 مليون أورو، والثاني 33 مليون أورو، وإلى جانبهما نجد، «أنّا غفالدا» و «فريد فرغاس»، و«إيريك إيمانويل شميت» و «جان كريستوف غرانجي» و «فريديريك بيغبيدير» و«ميشيل هولبيك» ثم يقترب منهم أيضًا «أوديرزو» أو «زيب» مبدع فكرة «Titeuf».

Twitter: @ketab_n

حقًّا: «يعيش الأدباء تقريبًا، ظروفًا جيدة، بفضل أقلامهم»، يتحدث «جان مارك روبير»، المسؤول عن دار النشر «ستوك»، والذي أصدر لمبدع اسمه «إريك أورسينا»، استطاع جني عائدات جد ثرية من رواياته. الشيء نفسه، بالنسبة لـ«جون لوي فورنيي» المتوج سنة 2008 بجائزة Fermina عن عمله: [où on va Papa]. وكذا، فيليب كلوديل، مؤلف ومخرج سينمائي. هذا الأخير، صار بوسعه التمتع بحياة مرتاحة نتيجة ما تدره عليه رواياته من أموال، منذ نجاح عمله: [des ames grises] (2003)، مع ذلك تمسك بمنصبه كمدرس «بسبب هاجس ذاتي» أكثر من «الإبقاء على إرساء في الواقع». آخرون، أمثال «بريجيت جيرو»، «لورانس تارديو» أو «جان مارك باريزيس»، يمكنهم الرهان على كتبهم، لأن حجم المبيعات تجاوز 20 ألف نسخة، ومع ذلك، فقد فضلوا بالموازاة مواصلة ممارسة مهن مساعدة. لكن القضية، ليست فقط ذات طابع مالي. بالتالي، توزع السجال، بين كُتّاب تمسكوا بعمل آخر، خارج إطار الكتابة، مقابل من فضلوا الانقطاع كليًّا للأدب. هكذا، أبقت «أني إيرنو» على وظيفتها التدريسية، بينما سيكون «ستيفان أوديغي» رهن إشارة التربية الوطنية، منذ خروج روايته الثانية: [fils unique] (غاليمار، 2006).

أما، الشاب «جان بابتيست ديل أمو»، وقد أصدر حديثًا روايته الثانية: [le sel] (غاليمار)، فهو كاتب يعاني البطالة. يبلغ من العمر 28 سنة، ناشط اجتماعي سابقًا، لكنه حاليًّا

Twitter: @ketab_n

مقيم دائم بقصر ميديسي Médicis. يقول: «الكتابة، تحتجزك بشكل مهول».

من ناحية ثانية، يفتقد البعض الآخر، لهذا النوع من الشعور. فإذا كان جميع الكُتّاب، لا يكسبون بالضرورة نقودًا. أيضًا الكُتّاب، الذين يستثمرون أموالًا من وراء تأليفاتهم، لا يعتبرون حتمًا أُدباء. هذا، ما ينطبق على «توني بلير»، الذي أخذ مبلغًا تحت الحساب يقدر بـ 6،5 مليون أورو من أجل إصدار مذكراته. وفي فرنسا، بلغت مبيعات «مذكرات» جاك شيراك، أكثر من 250 ألف نسخة، ممّا شكل إحدى النجاحات الكبرى للمكتبة، ودخلًا ماليًّا يعتد به لرئيس الجمهورية السابق. كذلك، رواية: [Une Vie]، «لسيمون فيل»، من خلال معدل تجاوز 400 ألف نسخة، ممّا حقق لها شهرة واسعة سنة 2007.

حاليًّا، أسماء من طينة «كلود أليغر»، «جاك أتالي»، أو «لوك فيري»، قد حققت اكتفاء ماليًّا، والكتابة عندها مجرّد نشاط ضمن أنشطة أخرى.

«الأدب والحاجة إلى المال، شيئان متعارضان»، حوار مع الكاتب «جان دورميسون».

1 ـ هل يمكننا توخي العيش من الأدب؟

بالتأكيد، الرهان على أن نقتات ممّا نكتبه، فكرة سيئة لأن الكتابة هدف في ذاته. تصور الأدب، بتلك الكيفية يدفع إلى الكتابة من أجل الجمهور والمثابرة كي نجعل ما نتخيله

Twitter: @ketab_n

يستجيب لانتظاره. أفضل وسيلة، لإنجاز الرداءة! فالأدب وكذا الحاجة إلى اكتساب المال، شيئان متعارضان. أستبقي على شرط وحيد: الكتابة تحت الطلب. كتابات مأمورة، قد تكون ذات قيمة. فالأدب الكلاسيكي، ظل باستمرار موجّهًا. أديب، على شاكلة بول فاليري، مارس ذلك بموهبة. لكن، إذا ابتغينا الإثراء فعلينا اختيار طريق مغاير.

حاليًا، قد نعد على أصابع اليدين الكُتّاب الفرنسيين، الذين يستندون إلى الأدب لتأمين حياتهم. ليس، إذن إغراء الكسب، ما يحرض الأدباء الشباب على الكتابة. (فيما يخصّ حالتي، فقد كتبت أول نصّ إرضاء لفتاة)، بل، لأن لديهم شغف بالكتابة حتى قبل معرفتهم بما يريدون قوله.

2 ـ كثيرون يضعون هذا الشغف في خدمة الصحافة:

الأدب والصحافة. . . ، الصلة طبيعية جدًّا. في كل الأحوال، كان هيرودوت مبعوثًا خاصًّا من اليونان إلى مصر. أما، أكيسنوفان، فقد شكّلت نصوصه: [L'anabase]، و [la retraite des dix milles] مراسلات حربية. يمكن، القول بأن ڤولتير، كان صحافيًّا عبقريًّا، وربما لم يكن غير هذا. أما، ڤيكتور هيغو، الذي كان حقًّا شيئًا آخر، فهو أيضًا من نوابغ الصحافة. وزولا، عُرف أكثر، بمقالة قياسًا لكل مؤلفاته. لن أتكلم، عن «موریاك» و«كيسيل» وآخرين. مع ذلك، أعتقد بأن الصحافة خطر على الكاتب. ينتمي، الصحافي إلى فريق. بينما، الكاتب مصاحب لعزلته. يبقى اليومي، أساس اهتمام الصحافي، في حين الكاتب قريب جدًّا من الموت. الزمان، خاصة يصنع

Twitter: @ketab_n

الفارق. يتموقع الصحافي مطلقًا إلى جانب زمان فوري وعابر. بينما، الكاتب يناصر بأكمله الديمومة والأبدية. مع ذلك، أحس برغبة كتّاب غير مؤهلين بعد، كي يكسبوا بسرعة المال من الصحافة، عوض انتظار افتراضي لعائدات مؤلفاتهم.

بالنسبة إليَّ، جاء الأمر متأخرًا جدًّا، وبالضبط عام 1971 وقد بلغت من العمر 35 عامًا، موعدًا أرّخ لظهور، روايتي [la Gloire de l'empire] الذي سبق دخولي الأكاديمية الفرنسية. وتبقى حتمًا «فرانسواز ساغان»، الاستثناء، لأنها عن سن السابعة عشرة، استطاعت أن تضمن دخلًا ماديًّا، بروايتها: [Bonjour Tristesse]. بانتقالنا نحو نموذج مضاد، سنصادف رسالة «هنري ميشو» إلى غاليمار. جاء فيها: «أعهد إليكم بهاته المسودة. وسأكون ممتنًّا لكم، إذا حرستم على البقاء في حدود 5 آلاف نسخة».

فقد رفض ميشو مع آخرين، صدور نصوصه في شكل كتب الجيب، نظرًا لتمسكه بمبدأ اقتصار قراءتها على عدد محدود من الأفراد، وهي رغبة نادرة في أيامنا المعاصرة.

3 ـ ما هي وصيتكم إذن لكتّاب شباب، لا يزالون في البداية؟

أوصيهم، بامتلاك حرفة، تمكنهم من توفير مصدر مادي، لكن دون أن يكرسوا لها جل وقتهم وطاقتهم ودماغهم. لذلك، أرفض الصحافة ما دامت تستولي على المرء طيلة 24 ساعة كاملة. كأننا، في بورصة ممّا يقتضي تركيزًا مفرطًا. إذن، ينبغي

Twitter: @ketab_n

تجنب المهن المستحوذة جدًّا. سائق سيارة التاكسي، قد تكون مناسبة، لا أحد يموت من الجوع، كما أنها تخلق لك مجالًا للكتابة حين انتظارك قدوم زبون ما، أو العمل لدى شركات التأمين. لقد اشتغلت في اليونسكو، كسكرتير عام لهيئة صغيرة، تهتم بالفلسفة والعلوم الإنسانية. واقترحوا علي، غير ما مرة بأن أوسع مهامي أكثر داخل اليونسكو، وأتحول بالتالي إلى موظف ضمن أجهزتها، ممّا سيضاعف راتبي الشهري أربع مرات، لكنه وضع سيكون على حساب وقتي.

بالطبع، لا أكتب خلال ساعات العمل، بل أقوم بذلك ليلًا حيث الإحساس أكثر بالسكينة والطمأنينة. فأصبحت كاتبًا ليليًّا وكذا يوم الأحد. لكن، عندما بدأت أراهن على قلمي كي أعيش، استطعت تغيير مجرى الأشياء فأكتب طيلة اليوم، وبالأخص خلال فترة الصباح، لأن الأمر يتم بشكل أفضل.

4 ـ في لحظة ما إذن، حدّدتم اختيارًا حاسمًا نحو الكتابة...

وأعترف، بأن الموعد جاء متأخرًا، فتحت وطأة شعور بورجوازي، بقيت منزويًا في اليونسكو، لمدة ليست بالقصيرة. وأنا، أطرح على نفسي تساؤلًا، يهم المورد المادي الذي يمكنني به تدبر حياتي، إذا عجزت مؤلفاتي عن تحقيق إيرادات كافية؟ لقد كان ذلك مدعاة للسخرية. استنزفت، عشر سنوات! كان يفترض، أن أتحلّى بكثير من الشجاعة، وأكرّس نفسي للأدب، بشكل مطلق.

Twitter: @ketab_n

خوان غويتسولو:
جامع الفنا، تراث شفوي للبشرية[1]

مثلما بيّن ميخائيل باختين، في تحليله الرائع لعمل «رابلي»، هناك لحظة يمتزج فيها الواقع بالمتخيل، بحيث تحل الأسماء محل الأشياء التي تحدّد، ثم يصير للكلمات المبتكرة وجودها الخاص: فتنمو وتتطور وتتزاوج وتتوالد مثل كائنات من لحم وعظم.

السوق والساحة الكبرى والفضاء العمومي، شكلت فضاء مثاليًّا لتفتقها: تتداخل الخطابات، وتنبعث الأساطير. كان المقدس مجالًا للسخرية، دون توقفه أبدًا على أن يبقى مقدسًا، والحكايات المتهكمة الأكثر فظاظة، ظلت قابلة للتوافق جدًّا مع طقس الاحتفال. حكاية محكمة الصنع، تحبس أنفاس المستمع. يمتزج الضحك، بتعبيرات الاغتباط، والبهلواني كما البائع المتجول يستثمران الحكاية، بغية استمالة الناس من أجل تقديم الصدقة.

عالم يحتضن تجار المواد القديمة والسقائين والحرفيين

(1) Juan Goytisolo: **in manière de voir**, numéro 117, Juin/juillet 2011, PP. 75-82.

Twitter: @ketab_n

والمتسولين والمشبوهين والأنذال، ونشالين بأيادٍ حريرية وعقول ضيّقة الأفق، ومومسات متشدقات، وفتيان مشاغبين، ثم الماكرين والمخادعين وعرّافي الورق ودعاة الورع وأطباء بعلم فطري.

عالم فاقع الألوان، منفتح وغير مكترث، يمنح قوته الحيوية إلى المجتمعات المسيحية والإسلامية، ولا يختلف كثيرًا ـ مثلما يمكننا اعتقاده ـ عن حقبة القرون الوسطى للكاتب الإسباني «خوان ريز». إنه آخذ في الانمحاء، شيئًا فشيئًا أو بطريقة راديكالية من طرف البورجوازية الناشئة والدولة المؤطّرة للمدن وأنماط الحياة. عالم، يبقى مجرّد ذكرى فضفاضة، بالنسبة للبلدان المتطورة تقنيًا، لكنها فارغة روحيًا. استيعاب منظومة التقنية الآلية، وكذا السمعي ـ البصري، ساوى بين الأشخاص والعقول، وحصر الطفولة في بوتقة «ديزني» «Disneyise» وأضعف قدراتها التخييلية. وحدها هذه المدينة، تمتلك امتياز حماية خلود تراث شفوي للإنسانية، ينعته الكثيرون، احتقارًا بالعالم الثالث. أتكلم هنا عن مراكش، وساحة جامع الفنا التي على جنباتها، أسكن وأتسكع وأكتب، طيلة فترة زمانية متواصلة، تزيد عن عشرين سنة.

في جامع الفنا، تضاعف عدد المشعوذين والمهرجين والبهلوانيين والحكواتيين، وتطور أداؤهم مقارنة مع فترة قدومي إلى مراكش، أو حينما زارها «إلياس كانيتي» وخلفت لديه انطباعًا مثمرًا جدًا، أو أيضًا الحقبة التي كتب خلالها الإخوة

Twitter: @ketab_n

«جيروم» و«جان» «تارو» «Tharaud»، وصفًا عن رحلتهم المراكشية، أي تقريبًا قبل ستين سنة.

حينما نلاحظ وضعيتها الحالية، ثم الصور التي التقطت لها بداية الحماية، سنكتشف حقًّا فروقات قليلة: بعض البنايات المتراصة جدًّا، وإن كانت متواضعة. ازدادت حركة المرور زخمًا، والنمو الجنوني للدراجات. مع ذلك، تبقى جامع الفنا هي الأجواء ذاتها، وعربات الجياد وشلة المشبوهين نفسها، الذين يسرعون دائمًا إلى صفوف الحلقات التي تتجمع حول الرواة، بين ثنايا خيوط دخان تائه ولطيف، تصدره موائد الأكل. مئذنة الكتبية، تحمي باستمرار مملكة الأموات ووجود الأحياء المنهمك.

خلال عقود، ظهرت أكواخ خشبية ثم اختفت، باعة المشروبات، المتاجر، وعشاق الكتب القديمة: حريق سيلتهم كل هذه الأشياء، لكنها أثبت مرة أخرى السوق الجديد المفعم بالحركة (باعة الكتب تعرّضوا لمنفى فظيع نحو حي باب دكالة). أيضًا، أعداد الحافلات الكبيرة المتمركزة شمال رياض الزيتون ـ جلبة، حركات ذهاب وإياب متواصلة، مسافرون، حمالون، بضائع متجولة، دلّالون، سجائر، سندويتشات ـ غادرت بدورها جامع الفنا وانتقلت إلى محطة طرقية تتلألأ كليًّا ضوءًا، مع هيمنة النظام. كما أنه بسبب مشاهد البذخ التي تزامنت مع توقيع الغات (الاتفاقية العامة للتعريفات الجمركية والتجارة) سنة 1995، ستخضع ساعة جامع الفنا لعملية تزفيت وتنظيف وتنميق: الباعة الذين يقتنصون الفرص، يأتون عند

Twitter: @ketab_n

ساعات معينة ويغادرون المكان، ما إن يرمقوا برفة جفن طيف رجل شرطة، قد نزحوا بدورهم اتّجاه أمكنة ملائمة أكثر. هكذا ستفقد الساحة قليلًا نشاطها المتدفق، لكنها احتفظت بأصالتها.

في غضون ذلك، حمل الموت خسائره المعتادة، إلى أشخاص مشهورين، هذا ما حدث أولًا «مع باقشيش» مهرج، ارتدى دائمًا قبعة يتدلى منا ذيل بقرة، حيث يجذب عرضه يوميًّا، والعالم الجزيريّ لحلقته، دائرة ملتحمة من المتسكعين، الكبار والصغار منهم.

بعده، أتى الدور على «ماماد»، فنان الدراجة الهوائية، الذي كان قادرًا على القفز فوق المقود من المقعد دون توقف، مع استمراره في الاستدارة حول نفسه وقيامه بحركات بهلوانية، وسط حلقته المبهرة فرجويًّا.

سنة 1995، طرق الموت باب شخصية أخرى يسمى «الصاروخ»: داعية مبجّل وراوٍ وقح، يبدع حكايات لاذعة عن جحا الساذج والمحتال، إنه يتقن بيسر لغة جد غنية، موظفًا استعارات تلميحية ومراوغة، تتأرجح كأسهم حول الهدف الجنسي الذي يظل مضمرًا. بهيئته الضخمة ـ رأس أصلع وتعاظم بطن منتفخة ـ ترسخ في تقليد قديم للساحة، جسّده لوقت طويل «برغوت»، أما جذورها فتعود إلى أزمنة أكثر رعبًا وقساوة، حينما كان الجلّادون ينصبون المشانق لمعارضي حكم السلطان المهيب، حتى يصيروا عبرة، وهم يتمايلون عند المرعبة «أرجوحة الشجعان»، أمام أعين جمهور صامت وخائف.

Twitter: @ketab_n

علمت أخيرًا، منذ فترة ليست بعيدة، بالرحيل المباغت لطبيب الحشرات والذي خصص له محمد اليماني، صفحات رائعة في مجلة: (Horizons maghrébins). المعتادون على الساحة، يعرفون جيدًا شخصًا ضئيل الحجم، صاحب شعر مبعثر وأشعث، مع كل إطلالة له وقد أصبح الأمر نادرًا شيئًا فشيئًا، يجتاز الطبيب عموم الساحة، ثم يخر مثل محرك ربوي، تحت خيم مطاعم حقيرة بالقرب من مواقد مضيافة. تاريخ هذا الرجل، يجمع بين الحقيقة والأسطورة، يمكن مقارنته بمسار شخصية الصاروخ، لأنه اختار مثله سبيل الفاقة والتسكع، يقضي لياليه في المقابر ومفوضيات الشرطة وزيارات سريعة للسجن أو هولندا حسب تعبيره، ويتعاطى السكر في الفضاء العمومي. حينما يضجر من المغرب كما يقول، يقرر الرحيل صوب «أميركا» بمعنى حتى حدود تلك الأراضي الشاسعة المحيطة بفندق هوليداين Holidaynn.

تميز طبيب الحشرات بعبقريته الشفوية، وقدرته على الابتكار والتلاعب بكلمات وألفاظ تقود إلى بعضها البعض عبر كل الجهات. كل ذلك ربطه ثانية دون أن يدرك، بمقامات الحريري ـ تتجاهلها، عربيتنا الرسمية الفقيرة جدًّا ـ ويدرجه ضمن إطار مشهد أدبي يرتكز في الآن ذاته، كما لاحظ بقوة «شيرلي غوتري» «Shirley Guthrie»، على جسارات الحريري و«إيستتيقا المجازفة» لـ«رايمون روسل» والسورياليين وكذا جماعة أوليبو Oulipo[1]. صورته الساخرة عن النشرة

(1) جماعة أدبية فرنسية، تميزت بعشقها للأبحاث الصورية، ويبقى جورج بيريك (1936-1982)، أكثر رموزها شهرة.

Twitter: @ketab_n

الإخبارية المتلفزة، ووصفته المتعلقة بأفضل أكلة طاجين في العالم، هما نموذجان عن الخيال والفكاهة. بهذا الخصوص، لم أقاوم متعة تدوين بعض الفقرات عن المزايا العلاجية للمنتوجات التي ينصح بها مستمعيه: لم يتحدث عن شراب خارق يتولد عنه الحبّ أو جرعة سحرية، كما يوصي بذلك المشعوذون الحرفيون، بل يتعلق الأمر بمسحوق كأس زجاجي أو ذاك العنبر المستخرج من ثقب مؤخرة العفريت. . . .

■ «والكاربون»؟

□ إنه يصلح للعيون، لصنبور عقيق قزحية العين، ومصباحها. تضع الكاربون فوق العين المريضة، وتتركه يختمر حد انفجارها، ثم تتناول مسمار 700 وتغرزه بعمق داخل العين، وتحركه بقوة إلى غاية أن تقتلع عينيك، ولما تغدو بين يديك، بوسعك حينئذ أن ترى عن بعد 37 سنة ضوئية! إن كانت لك براغيث داخل البطن، وفئران في الكبد وسلحفاة في الدماغ وصراصير في المفاصل وصندل وقطعة زنك وآلة سحق. لقد وجدت حذاء عند امرأة في الداوديات، اسألوني: أين عثرت عليه؟

■ أين عثرت عليه؟

□ لقد كان، بين أسوار جمجمة البروفسور.

وتبقى، الخسارة الأكثر فداحة، تلك المتعلقة بالإغلاق المفاجئ والأبدي لمقهى «ماطيش»: حتى ولو غمرتها مياه كثيرة ـ أمطار عاصفية، زوابع فيضانات ـ غير أن جامع الفنا، لم تتنازل عنها قط.

Twitter: @ketab_n

كيف تستطيع تحديد، من بخاصية متغيرة الشكل ومودة نافذة، يجعلانه متمردًا عن كل خطاطة اختزالية؟ موقع مقهى ماطيش الاستراتيجي، في الزاوية الأعظم ارتيادًا، حولها إلى حصن بارز لقلب الساحة. كل من جلس فيها يمكنه معانقة مجمل الساحة بنظرة، ويقف بدهشة على أسرارها: خصومات، لقاءات، تحايا، مكائد، تلامس بالأيادي الخفية أو انتفاخ يلهث وراء تجويف مناسب، شتائم، إثارة، ترتيل متنقل للمتسولين، أفعال الرحمة، حشد يتدافع وأجساد ملتصقة لاإراديًّا. جامع الفنا، فضاء دائم الحركة ينسج حبكة فيلم يتجدد، بغير نهاية. وقائع أو نوادر خالدة، أساطير ذات عِبر بالنسبة للأقل شبهة، إنه الغذاء اليومي لرواد الساحة.

على سطح المقهى، يلتقي موسيقيو كناوة، مدرسون، أساتذة الثانويات، تجار، مشعوذون، مهربون يوميون، صعاليك بقلوب كبيرة، باعة سجائر بالتقسيط، صحافيون، مصورون فوتوغرافيون، أجانب بوهيميون، زبائن بجيوب فارغة. بساطة العلاقات، تضعهم عند قدم المساواة.

في مقهى «ماطيش»، يقودك الحديث إلى كل شيء وتشتعل أيضًا شرارة جرّاء أي شيء. النادل الذي يخدم هذه الممالك المشتتة، يمتلك ثقافة أدبية صلبة، ولا يمنح الزبائن إلّا انتباهًا متقطعًا ـ لكنه لا يقلق إلّا القادمين الجدد ـ وقد انغمس في قراءة ترجمة عربية لرامبو.

عشت في جامع الفنا، أجواء التوتر المرعب والمرارة المؤلمة، المصاحبة لحرب الخليج سنة 1991: مأساة لا تنسى

Twitter: @ketab_n

دامت أربعين يومًا. هكذا، خلت الساحة من السائحين، كما غادرها المقيمون الأجانب ولم يجازف بالبقاء غير حفنة شواذ. شيخ كناوي، يستمع للأخبار، أذنه ملتصقة بالترانزستور.

بشكل يائس، عمّ الصمت السطح البانورامي لمقهى «كلاسي» وكذا مقهى «فرنسا». عند الغسق، ترسم الشمس الحمراء إشارة على امتداد الساحة، كما لو أنها تخبر بالمذبحة الفظيعة. قضيت في جامع الفنا أيضًا، أعذب احتفال بالسنة الميلادية، وأكثرها شعرية على امتداد كل حياتي. كنت جالسًا هناك، صحبة بعض أصدقائي وأنا مدثر جيدًا، في انتظار أن تدق لحظة الإعلان عن أول دقائق السنة الجديدة. فجأة، ومثل حلم ظهرت عربة خيل فارغة. السائق فوق مقعده، يجلس بطريقة غير سوية، اتّجهت نظرته الحزينة، وتصلبت حول شابة شقراء، تأخذ مكانًا لها عند إحدى الطاولات. السائق المنبهر، تخلى عن كل شيء، خفض من سرعة العربة إلى أن توقفت تمامًا. وكما يحدث في مشهد سينمائي صامت، صور بطريقة بطيئة، توجه السائق البسيط بالتحية إلى الفتاة الجميلة، ودعاها كي تصعد بجانبه. وحينما بدا له بأن الفاتنة لم تستجب لدعوته، ترجل من موقعه واقترب منها بخطوات متعثرة لكنها مثابرة، مردّدًا: «سيدتي، سيدتي...» ثم صنع ثانية إشارته المتسيدة، وحثها رسميًّا كي تأخذ مكانها إلى جانبه في مركبته أو عربته الملكية الفخمة والفاخرة. الموقف الودّي للزبائن، أضفى حقيقة على حبه، أما ملابسه الرثة فقد غيرت هيئتها إلى كسوة لبهجة العيد، وكذا العربة الأنيقة لأبهته العابرة. نهض أحد الجالسين وتدخل كي يكسر هذا

Twitter: @ketab_n

الحبّ البريء، محاولًا مصاحبته بكياسة إلى غاية عربته، غير أن الشاب عجز كليًّا عن انتشال نفسه خارج هذا السحر، فاستمرّ من وراء يلاحق الفتاة بنظراته ويبعث لها بقبلات، ولكي يهدئ من روع فشله، شرع يلاطف بحنان فائق الوصف ردف أنثى فرسه (تعالت التصفيقات والضحكات). ثم حاول ثانية الصعود إلى مقعده، وتأتى له ذلك بعد مجهود مضاعف، لكنه فجأة تأرجح وسقط خلفًا وتدحرج مثل كرة إلى أسفل العربة (موجة جديدة من التصفيقات). تطوع بعض الحاضرين وأمسكوا بيده، كي يعينوه على استعادة توازنه. نهض وهو يرسم على شفتيه، قبلة وداع للإلهة السكندينافية، قبل أن يختفي بجياده سريعًا عن الأنظار غير آبه، تاركًا وراءه غبارًا، على وقع تأثير الهالة الكئيبة لفردوسه الضائع. منذ الفترة المجيدة لأفلام شابلن لم أستمتع أبدًا بمشهد هكذا.

بعد إغلاق المقهى، تشتت روادها مثل طائفة حرمت من وكرها. صاروا يلتقون ليلًا، على رصيف مُزفّت لكنه غير لائق، أو يتكدّسون في فندق قديم، يوجد بحي درب ضباشي.

أما باقي العناصر، وأنا واحد منهم، فيعزّون أنفسهم قدر ما يمكنهم الأمر، حزنًا على اختفاء هذا المركز العالمي للثقافات، ويستعيدون ذكريات وقائع وطرائف ماضيها الأسطوري والرائع، شعور يشبه حنين لاجئين يعيشون مؤقتًا في المنفى.

مع ذلك، صامدة جامع الفنا، أمام الهجومات التي يضمرها الزمان، وكذا حداثة منحطة، وقصيرة النظر.

Twitter: @ketab_n

تواصل الحلْقة نموها، وتتفتق مواهب أخرى وجمهور متعطش دائمًا للحكايات، يؤسس الحلقة بتحومه حول المنشدين والفنانين. جامع الفنا، تطوي حيوية مذهلة، وقدرات استيعابية، تهضم العناصر الأكثر تنوعًا، وتبطل لحظيًّا التباينات الطبقية والتراتبيات. الحافلات المكتظة بالأجانب، والتي تزدحم هنا مثل حيتان، ستلتهمها بغتة الساحة، بنسيجها العنكبوتي الرفيع، وتتسمر أمام عصارات معدتها.

خلال السنة الماضية وإبان ليالي رمضان، جذبت جامع الفنا عشرات آلاف الأشخاص، نحو مطابخها المتنقلة وسط صياح باعة الأحذية والملابس وأطباق الحلوى، وكذا اللّعب. على آثار نور المصابيح الغازية، أظن بأني شاهدت حضور «رابلي» والكاتب القشتالي «خوان ريز» والشاعر الإنجليزي «شوسر»، وابن زيد، والحريري، والعديد من الدراويش.

بين زوايا هذا الفضاء الذي لا زال يدافع عن وضعه، لا نلتفت قط إلى هؤلاء المعتوهين الذين يقبّلون هواتفهم المحمولة. عظمة وتوهج الحقيقة، يمددان بشكل خارق نفوذ جامع الفنا. لكني أرتجف أحيانًا، عندما أفكر في درجات اختراقها وأنا أتحسس صعود هذا السؤال إلى شفتي، فتنصهر عنده كل مخاوفي: إلى متى ستقاوم؟

Twitter: @ketab_n

الروائي ميلان كونديرا[1]

يجدر أولًا، لفت الانتباه على طريقة صورة الغليون الشهير لروني ماغريت: «هذه المقالة، ليست حوارًا مع ميلان كونديرا» «Milan Kundera»... بناء على المعنى المتداول للمفهوم، بل «محاورة لعمله». المبدأ بسيط: يتعلق بمساءلة مؤلفاته، واستفسار رواياته واستنطاق دراساته....

منذ، ما يزيد عن خمس وعشرين سنة، تجنب دائمًا، صاحب رواية: [l'insoutenable légèreté de l'être]، [خفة الكائن التي لا تحتمل]، الإدلاء بأي حديث لوسائل الإعلام. سنة 1986، كتب في «فن الرواية» «l'art du roman»: «لقد قررت بشكل جدي، عدم إجراء أي لقاء صحافي». خشية، أن تنسب إليه أقاويل غير صحيحة، لكن ربما، وكما يقول «إزاك سينجر» «وحده العمل، يؤخذ بعين الاعتبار، وليس الرجل الطيب»، ويضيف أيضًا: «حينما نشعر بجوع حاد، فلا تهمنا حقًّا لحظتها حياة الخباز!».

إذن، فقط المتن يحتسب، وكل الأجوبة عن الأسئلة التي تريدون طرحها، تتضمنها المؤلفات: لقد حدثني دائمًا كونديرا

(1) **Le monde des livres:** 25 mars, 2011.

Twitter: @ketab_n

بهذا الخصوص، طيلة سنوات، لما توخيت يومًا، أن أنتزع منه حوارًا. وإذا أقمنا التجربة وفق قياسها الطبيعي؟ ألا يعتبر فرصة مثالية، إقدام «البلياد» أو مكتبة «الخالدين» على إصدار جزأين؟ إذن، صار الكاتب جاهزًا للعبة. توضيب التيمات والكلمات ـ المؤشرات، يعود إلى اختيارنا. عن كل سؤال من أسئلتنا، نجد الإجابة بين طيات نصوصه. مقتطف من هنا أو هناك. وأعماله المرصودة في هذا السياق: (فن الرواية) «L'art du roman» و«des Testaments Trahis» (الوصايا المغدورة) و «la vie est ailleurs» (الحياة في مكان آخر) إلخ. إنه المشروع، ذاته من يتكلم.

مثلما، كان الأمر مع «أندريه جيد» و «بول كلوديل» و «سان جون بيرس» أو «نتالي ساروت»، فقد أضحى الكاتب الكبير ميلان كونديرا وهو على قيد الحياة، ضمن زمرة الخالدين في مكتبة البلياد La Pléade. بهذه المناسبة، التقيناه بطريقة غير مباشرة، بعد الاستماع إلى نبض نصوصه. . . .

1 ـ نبدأ بسؤال بسيط، لماذا تمقتون إلى هذا الحد المعطى «البيوغرافي»؟ لماذا تشمئزون من التكلم عنكم؟

يقول فلوبير: «على الفنان، أن يحيل في تفكيره على المابعدي»، ورفض موبسان أن تظهر صورته في إطار سلسلة مكرّسة لمؤلفين مشهورين: «إن الحياة الشخصية للرجل وشكله، لا ينتميان إلى العموم». أما «هيرمان بروخ»، فقد قال عن نفسه و«غوبير موزيل» وكذا «فرانز كافكا»: «نحن الثلاثة. ليست لنا بيوغرافية حقيقية». هذا لا يعني، بأن حياة كل واحد

Twitter: @ketab_n

منهم تميزت بخلوها من الحوادث بل لم تكن موجهة، نحو أن تصير مميزة وعمومية ثم بيوغرافية... و«فولكنر» توخى: «أن يلغى كفرد، ويحذف من التاريخ، ولا يبقى منه أي أثر غير مؤلفاته المطبوعة» (التشديد على كتب مطبوعة، بمعنى ليس المقصود مسودات غير مكتملة ولا رسائل ولا يوميات).

هناك استعارة مشهورة، تؤكد بأن الروائي يهدم منزل حياته، كي يبني بالقرميد منزلًا ثانيًا له: منزل الرواية. من هنا، يستنتج بأن السير الذاتية لروائي ما تقوض ما صنعه، ثم ترمم ثانية ما تخلص منه. إن وظيفتها سلبية جدًّا، من وجهة، نظر الفن، ولا يمكنها إضاءة قيمة أو معنى رواية من الروايات. هكذا، في اللحظة التي جذب فيها كافكا الانتباه أكثر حول شخصية «جوزيف. ك»، تجلت بوضوح سيرورة موته المابعدي.

2 ـ ماذا بوسعنا القيام به، كي نتجنب عدم تواري الكتّاب شيئًا فشيئًا وراء سيرهم الذاتية؟

أحلم بعالم، يكون فيه الكتّاب مجبرين قانونيًّا، كي يتكتموا على هويتهم، ويستعملوا فقط أسماء مستعارة. يترتب، عن هذا الأمر، ثلاثة امتيازات: تحديد جذري لهذا الانقياد المرضي خلف الكتابة (La Graphomanie)، وتقليص للعدوانية في الحياة الأدبية، ثم اختفاء مبدأ تأويل العمل، بيوغرافيًّا.

3 ـ بخصوص الغرافومانيا Graphomanie لديكم تعريف شخصي جدًّا...؟

Twitter: @ketab_n

لا تعني الغرافومانيا La Graphomanie، الهوس، بكتابة رسائل ومذكرات حميمية أو أخبار عائلية (أي أن يكتب لذاته أو أقربائه) ولكن إنجاز مؤلفات (بمعنى أن يتوفر على جمهور من القارئين المفترضين)، يتحول هاجس خلق صيغة، إلى مسألة فرض الذات على الآخرين، إنه المنحى الأكثر فظاعة، لإرادة القوة.

4 ـ إذا كنتم تبغضون إلى حد ما إجراء مقابلات حوارية، فلأنه «يعاد تنقيحها»، كما نقول اليوم. عند أي حد تتجلّى خطورة هذه الممارسة؟

مقابلات، محاورات، تجميع لأحاديث، اقتباسات، تسجيلات سينمائية وتليفزيونية. هكذا، تعتبر إعادة الصياغة بمثابة سمة لفكر العصر. يومًا ما، سيعاد ثانية كتابة ثقافة الماضي بأكلمها، ثم تنسى في مجملها خلف المنقّح.

5 ـ خلال كل حياتكم، طبقتم «فن الرواية» مع ذلك في «الوصايا المغدورة»، تكتشفون إلى أي حد تمثل الرواية لديكم أكثر من مجرّد «جنس أدبي». بشكل عميق جدًّا، ماذا يعني لكم، أن تكون روائيًّا؟

دلالة الروائي بالنسبة إليَّ، تتجاوز ممارسة «جنس أدبي» من بين أجناس أخرى. هو، حالة وحكمة ووضع يستبعد كل تماثل مع سياسة أو دين أو إيديولوجيا أو أخلاق أو جماعة من الجماعات، إنه لاتماثل واعٍ ومتصلّب وساخط، يدرك ذاته، ليس كتملص أو انقياد، بل مثل مقاومة وتحدٍّ وثورة.

Twitter: @ketab_n

6 ـ نريد مثالًا.

لقد قطعت مع هذه الحوارات الغريبة: «السيد كونديرا، هل أنتم شيوعي؟». «لا، أنا روائي». «هل أنتم منشق؟». «لا، أنا روائي». «هل أنتم من اليمين أم اليسار»؟، «لا يمين ولا يسار، أنا فقط روائي».

7 ـ نتوفر على عنصر بيوغرافي واحد، لا غير، لقد ولدتم سنة 1929، بـ برنو Brono أي ما سمي في تلك الحقبة بتشيكوسلوفكيا. فماذا، تعني لكم حاليًّا كلمة «تشيكوسلوفكيا»؟

لا أوظف قط كلمة تشيكوسلوفكيا في نصوصي الروائية، مع أن تأثيرها بشكل عام قائم. هذه الكلمة المركبة، حديثة جدًّا (ظهرت سنة 1918)، بلا أصل في الزمان أو جمالية، كما أنها تخدل الخاصية المركبة، وجد فتية قياسًا للشيء المسمى. إذا أمكننا عند الاقتضاء إقامة دولة على كلمة لا تتوفر فيها المتانة المطلوبة، فلا يمكننا في المقابل، أن نؤسس عليها رواية. لذلك، عندما أريد تسمية بلد شخصياتي، فإني أعود دائمًا إلى توظيف، المفهوم القديم: بوهيمي. من وجهة نظر الجغرافية السياسية، ليس دقيقًا (مترجمو أعمالي يرفضون ذلك غالبًا)، لكن إذا استندنا إلى القصيدة، فستبقى بمثابة التسمية الوحيدة الممكنة.

8 ـ لنبقَ في إطار الجغرافية والثقافة، ما هي رؤيتكم لأوروبا؟

Twitter: @ketab_n

خلال العصر الوسيط، قامت الوحدة الأوروبية على الدين المشترك. أما في الأزمنة الحديثة، فقد أخلي المكان للثقافة (الفن، الأدب، والفلسفة)، التي صارت تحقيقًا لقيم عُليا، يكتشف الأوروبيون بواسطتها أنفسهم، ويتمثلونها وتتجسّد هويتهم. حاليًا، تنازلت الثقافة بدورها عن مكانها، لكن لماذا؟ ولمن؟ ما هو المجال الذي تتحقق في سياقه القيم العُليا، القادرة على توحيد أوروبا؟ الإنجازات التقنية؟ السوق؟ السياسة وفق المثال الأعلى للديمقراطية، مع مبدأ التسامح؟ لكنه تسامح، قد يصبح فارغًا وبلا جدوى؟ إذا لم يحافظ على إبداع غني وفكر متين؟ أو أيضًا، هل بوسعنا أن نفهم استقالة الثقافة، كنوع من التحرر، ينبغي الاستسلام له بغبطة؟ لا أدري. ما أعرفه، أن الثقافة هاجرت مكانها. هكذا، تتوغل صورة الهوية الأوروبية في الماضي. أوروبي: تعني، من يسكنه هذا الحنين إلى أوروبا.

9 ـ بين صفحات نسخة «البلياد» الصادرة حاليًّا، نعثر على قاموسكم الشخصي. أو ما أسميتموه بالكلمات المفاتيح والإشكالية والمعشوقة. من بينها: نعثر على «infantocratie» فما هي، إذن، دلالة مفهوم كهذا؟

كتب «موزيل» Musil، في عمله: [l'homme sans qualités]: «تخترق دراجة نارية وسط الشارع الفارغ، يد السائق ورجله، تأخذان شكل «0» وتركز النظر بسبب صخبها المجلجل. وجه صاحبها، يعكس رصانة طفل، ممّا يمنح صياحه أقصى درجات الأهمية». جدية طفل، ثم سمة العصر

Twitter: @ketab_n

التقني. فمفهوم «infantocratie» بمثابة مثال أعلى للطفولة، يفرض على الإنسانية.

10 ـ دائمًا في الفصل المخصص للمفاهيم التي تبدأ بحرف «I»نقف على واحد مهم جدًّا بالنسبة لفضائكم، أقصد: «L'ironie» أو السخرية، فتقولون بهذا الصدد «تعرية للعالم باعتباره غموضًا».

أيهم على صواب، ومن المخطئ؟ هل كانت «**إيما بوفاري**» لا تُطاق؟ أم شجاعة ومؤثرة؟ ثم ماذا عن **ويردر**؟ مرهف الحس ونبيل؟ أم صاحب شعور عدائي وعاشق لذاته؟ بقدر ما نقرأ الرواية بهدوء أكثر، يغدو الجواب مستحيلًا، فالرواية تعريفيًّا، فن السخرية: «حقيقتها» مضمرة، غير مصرح بها، وغير قابلة للإقرار. «تذْكر رازوموف Razumov، أن النساء والأطفال والثوار يمقتون السخرية. فهي سلب لجميع الغرائز ولكل إيمان، ووفاء وفعل! يتحدث جوزيف كونراد، على لسان ثورية روسية، عبر صفحات عمله (sous les yeux de l'occident) السخرية، تغضب. ليس لأنها تزدري أو تهاجم، لكنها تسلبنا يقينيات حينما تزيل عن العالم إبهامه.

11 ـ لديكم مفهوم آخر محوري، أقصد: كيتش Kitsch...

حينما، أنهيت روايتي: [خفة الكائن التي لا تحتمل] (1984)، شعرت بالخوف شيئًا ما، لأني جعلت من كلمة كيتش «Kitsch» إحدى الكلمات الأساسية للرواية. في الواقع،

Twitter: @ketab_n

وحتى عهد قريب أيضًا، بقيت الكلمة شبه مجهولة في فرنسا أو متداولة من خلال معنى فقير جدًّا.

مع التأويل الفرنسي للدراسة الشهيرة لـ«هيرمان بروش» «Herman Broch»، فقد تُرجمت كلمة «كيتش» Kitsch بـ «فن الرداءة». تفسير معكوس، ما دام «بروش» يبرهن على أن كيتش Kitsch أكثر من مجرّد عمل للذوق السيّىء. هناك حالة «كيتش»، وسلوك «كيتش»، وحاجة «كيتش» لإنسان «كيتش»: الحاجة أن تنظر إلى نفسك، في مرآة الكذب المزخرف والمزيّن، وتكتشفها بنوع من الإشباع المنفعل.

12 ـ وماذا عن الشيخوخة، ميلان كونديرا؟ في روايتكم: [الحياة في مكان آخر] تتخيلون رجلًا عالمًا وكهلًا يتأمل الشباب، ثم يقف على جانب غير منتظر أو بالأحرى منعش للشيخوخة. هل تستحضرون المقطع؟

«العالِم الكهل»، يتأمل الشباب الصاخب، وأدرك فجأة أنه كان الوحيد داخل هذه القاعة الذي امتلك امتياز الحرية، نتيجة شيخوخته فقط، حينما يكون المرء مسنًّا، يمكنه تجاهل فكر القطيع ورأي العموم، وكذا المستقبل. إنه وحيد مع موته المستقبلي، والموت يفتقد لعيون أو آذان ولا يحتاج لإرضائه. بالتالي، يمكنه أن يفعل ويقول ما يسعده لذاته.

II ـ اللغة، أداة للتدقيق:

ما هي لغة مشروع ميلان كونديرا؟ لقد تعودنا ونحن نقارب هذه القضية، التمييز بين المرحلة التشيكية والحقبة

Twitter: @ketab_n

«الفرنسية»، حسب اللغة المفترضة للمسودات. لكن الأشياء، معقدة شيئًا ما.

أولى نصوص كونديرا الجميلة، كتبت بالتشيكية. لكن أخرى مثل: (غراميات مضحكة Risibles amours) وكذا (المزحة La plaisanterie)، صدرت بالتشيكوسلوڤاكية سنة 1960، ثم تعرّضت على الفور للحظر وستختفي لمدة عشرين سنة. فيما يخص الروايات الخمس اللاحقة، فلم تظهر قط علانية بالتشيكية قبل انهيار النظام الشيوعي. لقد كانت كتابات أطياف، ويعود فضل ظهورها، إلى الترجمات التي أبرزتها على امتداد العالم. من ثمة، هذه الوضعية المتناقضة والمنفردة: تلك المتعلقة بمنتوج دون نص أصلي معروف، وكذا المؤلف الذي يكتب بلغة، يعرف قبليًّا كونها ليست اللغة التي سيقرأ بها.

وإن صار أكثر براعة، استمر الغموض بعد هجرة ميلان كونديرا إلى فرنسا، بينما عرف نصه فترة سنوات 1980، مرحلة «مزدوجة» عجيبة: يشتغل على روايته (الخلود) «L'immortalité» بالتشيكية، وفي الآن نفسه يكتب بالفرنسية مختلف مقالاته، كما يهيئ بنفسه النص الفرنسي لمسرحيته التشيكية: (جاك وسيده) (Jacques et son maître)، وقضى سنتين أو ثلاث، متفحصًا بدقة متناهية الترجمات الفرنسية لرواياته كي يتأكد من «صحتها» ومطابقتها الكلية للنصوص الأصلية.

هكذا، وبشكل سريع جدًّا، ونتيجة وقائع تاريخية وجد نفسه مشدودًا إليها. أيضًا لأسباب النظام الفني، الذي لا يزداد

Twitter: @ketab_n

إلّا تعمقًا مع مرور الوقت، أدرك كونديرا فنه بوعي ينساب لسانيًّا أو متعدد الألسن. بمعنى الانفصال، عن هذه اللغة أو تلك بعينها، ثم الانطلاق من أجل التفكير فورًا في إطار «السياق الكبير» (الأوروبي أو العالمي) حسب تناغم وتبادل اللغات.

إلى هذا، يمكن أن تعزى سمتان لممارسته كروائي. الأولى، رصانة وجلاء أسلوبه. أسلوب كاتب، لا يعتبر اللغة الأدبية «مادة» ينبغي الاشتغال عليها، مثلما يدعي محترفو «الكتابة»، بل أداة تتوخى تعبيرًا أكثر دقة، وأقل غموضًا من بين كل الأفكار والصور التي تلهمها.

البحث عن نثر، شكل هاجسًا لكونديرا منذ قصصه الأولى، بينما لم يفكر قط في ترجمات محتملة. هذه الاستتيقا التي تروم نحو بحث مطلق عن نثر مقروء وواضح، بقدر ما أمكنه الأمر، ممّا يستدعي كل سلطة التدقيق والاقتضاب التي تخفيها لغة ما، وتقتضي تنقيحات وتصويبات ثابتة لا تتعدد أبدًا بعد ذلك.

هي الاستتيقا أيضًا، التي تحكم مؤلفات ميلان كونديرا المكتوبة بالفرنسية، بحيث لا يوجد اختلاف بارز بهذا الخصوص، سواء بين مجموعته القصصية الأولى: غراميات مضحكة Risibles amours المكتوبة بالتشيكية، ثم روايته الأخيرة الصادرة بالفرنسية، تحت عنوان «الجهل» (L'ignorance). أشار كونديرا سنة 1998: «تبتغي لغتي، أن تكون بسيطة ودقيقة بل وشفافة، وتريد أن تصير كذلك بين

Twitter: @ketab_n

طيات جميع اللغات». الطابع الآخر، المميز للوعي المتعدد لسانيًّا، يتجلّى في القيمة التي يمنحها للترجمة الأدبية، باعتبارها «فن الدقة» والإحكام، أسلوبيًّا وسيمانطيقيًّا. من هنا، تجلي أقصى درجات الاهتمام التي يوليها كونديرا، لكيفية ترجمة أعماله وانتقاء مترجميه.

بعيدًا، عن أن يصنف كتبه المترجمة، بمثابة نتاجات فرعية أو ثانوية كما يفعل أغلب المؤلفين، يشعر كونديرا بمسؤوليته التامة، بالتالي يعطيها قيمة تعادل عمليًّا نصوصه الأصلية.

إذا اعتبر الترجمات الفرنسية لرواياته التشيكية، جديرة بـ «الثقة» مثل الأصلية بل و «أكثر وفاء للنصوص الأصلية، من هذه النصوص نفسها»، إلى حد تفضيله أن تتم الترجمات الأجنبية انطلاقًا منها. أما، عندما ينكب بلا كلل على تصحيح ترجماته الإيطالية والألمانية والإنجليزية وفيما بعد الروسية، فليس حتمًا نتيجة عدم اكتراثه بـ «العبقرية» الخاصّة للغات، ولكن على النقيض، بسبب رهانه على أن جميع اللغات باستطاعتها استيعاب أسلوبه الخاص، وتتماهى بوضوح، مع صوته الروائي.

III ـ ميلان كونديرا: أبي الروائي. يحكي الروائي البريطاني «Adam Thirlwell» كيف تغير مجرى حياته مع كتاب «فن الرواية».

حين بلغت سن الثامنة عشرة، وأعيش في مدينة بودابست، اكتشفت اسم كونديرا. كنت شخصًا سليم النية، أو

Twitter: @ketab_n

بلغة كونديرا، شاعرًا غنائيًّا. توجهت إلى براغ في جولة سياحية صحبة صديقة لي، وداخل مؤسسة «منزل كافكا» وقع بصري على كتاب «فن الرواية». آنذاك سكنتني رغبة أن أصير شاعرًا، فقد اعتقدت بأن الرواية مجرّد جنس للتسوية وبورجوازية: مرض للواقعية. لذلك، تظل القصيدة الفن الحقيقي للغة.

وأنا عائد، على متن القطار، أحدثت لي قراءة كونديرا هزة. حقًّا، يوجد «فن للرواية»! بالنسبة لإنجلترا، كنا ننزع دائمًا للتفكير، بأنه وحده الموضوع والمحتوى، يهمنا في الرواية. غير أن كونديرا، سيتكلم عن أبنية روائية صارمة مثل آلات، ثم لينة كالقصائد. لقد، تلمست معه شاعرًا للرواية.

على أنقاض ذاته السابقة يقول «روني جيرار» في مكان ما من كتابه (mensonge romantique et vérité romanesque) يبني الروائي ذاته الجديدة. في بودابست؛ قررت أن أصبح روائيًّا والانضواء ليس فقط ضمن التقليد البريطاني، لكن في إطار المسار الأوروبي منذ سرفانتس.

مباشرة بعد «فن الرواية»، قرأت له رواية «la lenteur» «البطء»، فأثارني شيئان. أولهما، وينبغي الإقرار بذلك، يشير إلى السلطة والحرية اللتين تكلم بهما كونديرا عن الجنس. أية حكمة! لكن، ما استهواني خاصة، كان التركيب: المنحى الموسيقي للكل. طريقة تنزع نحو تأسيس أسلوب قائم على التجاور، والالتصاق ثم فصول قصيرة، ولعب بالإيقاع إلخ (درجة تغير الإيقاع؛ عند كونديرا، دائمًا دقيقة ومضبوطة). نعم، هذه الكيفية القائمة على التلاعب الحر بالفضاء النغمي

Twitter: @ketab_n

والشكل والمنظورات، تعتبر ربما أكثر ما جذبني نحو ميلان كونديرا.

أمر ممتع، حينما أفكر ثانية، لو أني حصلت أولًا على نص «البطء» روايته الأولى المكتوبة بالفرنسية. لقد أحببت جدًّا، وضعية الكتابة من خلال لغات متعددة (وجه آخر للغنائية لدي). لذلك، فكونديرا مثل بيكيت ونابوكوف أو سيوران، يجسدون أبطالي القلقين. أظهرت تجربتهم، منظورين متعارضين: عندما نحاول إخراج الكتاب نفسه بلغة ثانية، يتغيّر المضمون. لكن، في الوقت ذاته، الأسلوب أبعد من اللغة، لأن الرؤية والشكل والبناء، تحافظ دائمًا على وضوحها كيفما كان اللسان التعبيري.

إذن، عاودت التفكير في العلل الباطنية والمستترة، التي دفعتني إلى أن أرتقي بكونديرا نحو مرتبة أبي الروائي. يمكنني القول: لقد مثل حقًّا، نموذجي اللاإنكليزي. ثم نظرًا للأهمية، التي يوليها للشكل، وكذا امتناعه عن مقاربته انطلاقًا من زاوية سياسية أو أخلاقية.

بالنسبة لجيلي، يرتبط نجاح كونديرا برفضه التهكمي والساخر كي لا تغمر السياسة الحياة: ما تصنعه الكوميديا بالإيديولوجيا، بناءً على هذا الاستبعاد للسياسي، باعتباره قيمة مطلقة، فقد أعطى حيزًا لنوع من الحرية: النظر إلى السياسي، هزليًّا وبوقاحة.

أنا إذن، وقد كنت طفلًا متشبعًا جدًّا بالحداثة، أغوتني

Twitter: @ketab_n

أكثر، استحالة أن تستخلص من عمل كونديرا أقل خلاصة أخلاقية. مؤلفاته، أولًا وقبل كل شيء، أدوات متعة وأنساق ذكاء سعيد. نقف هنا، على المرح وانسلاخ من الصرامة التي تشبث بها كونديرا دائمًا. لقد بقي وفيًّا مطلقًا، لفن الرواية وفقط هذا الفن.

IV ـ الخلود، وماذا بعد؟

يوضح الكاتب «فيليب فوريست» Philippe Foerst الوحدة العميقة، لكتابات كونديرا: بناء نموذجي خلّاق «أوج تحققات الرواية» Archi-roman، تقترن برؤية تراجيدية للإنسان، لكنها مضحكة مع ذلك.

كاتب يرى بأم عينيه، أن نتاجه ولج «مكتبة البلياد». بعد أن استحضر، قبل عشرين سنة بين طيات إحدى رواياته، إدراكه إبان حياته هذا «الخلود الكبير». رفض كاتبنا دائمًا اللجوء إلى الاعترافات، واختار عدم التحدث للعموم، لكنه سيقبل أن يبوح بانطباعاته حول التكريس الذي استطاع تحقيقه. إعادة قراءة عمل «الخلود» L'immortalité، تمكن بلا شكّ من نسج فكرة عن التمازج بين الغبطة المشروعة، والارتياب المضطرب، الذي سيسكنه من الآن فصاعدًا.

يقول كونديرا: «يعتبر اللاموت، محاكمة أبدية». أمام أعماله في «البلياد» والمصنفة إلى جزأين، سيجد القارئ صعوبة كي يقاوم مثل هذا الإحساس، حينما يمسك بأصابعه فصول محاكمة، ابتغى كونديرا تجميعها من أجل المابعدي.

Twitter: @ketab_n

تميزت الطبعة الجيدة لفرانسوا ريكار بوفاء متعصب تقريبًا، للمبادئ ذاتها، التي توخى كونديرا أن تتم قراءته على ضوئها: النص ولا شيء غير النص، أو بشكل دقيق أكثر، فقط ما تضمنه النص، حصل على الموافقة النهائية لكونديرا. فإلى جانب التعليقات والحواشي المعتادة، نقف على «بيوغرافية للعمل»، تنحصر عند بعض الإشارات السريعة والجوهرية. فهل ينبغي أن نقيم دائمًا براهين كهاته، كي نقنع أي قارئ؟. حقًّا، ستكون نيتك سيئة للغاية، حتى لا تعترف بأن كونديرا يستحق بشكل واسع هذا «الخلود الكبير»، الذي دشنه دخوله «البلياد»، ما دامت كتاباته بكل بساطة، تتموضع ضمن المقام الأول للأدب المعاصر.

كل العناوين التي راكمها وتابعناها على التوالي حسب صدورها، لقنت صفحاتها أغلب الكُتّاب المحدثين، ماهية الرواية، لا زالت تثابر باندهاش، عندما يعود إليها القارئ ثانية، وتبدو في مستوى الذكرى العجيبة التي نحفظها لها. أكثر من ذلك: سعى تجميعها، إلى إبراز بعدها الحقيقي، فيما وراء الدلالات الجزئية والعابرة، التي قد تعزى إليها، سواءً من قبل الناقد أو المؤلف نفسه.

تلقينا أولًا، روايات كونديرا مثل تضمين لشهادة أدبية عن كاتب مختلف ينتقد بتهكم التوتاليتارية التي سادت تشيكوسلوفاكيا القديمة وباقي أوروبا الشيوعية. هكذا، بدا الأمر منذ «المزحة» «La plaisanterie» المترجم إلى الفرنسية سنة 1968، بتقديم لامع لـ «لوي أراغون» أدان من خلاله

Twitter: @ketab_n

سحق الدبابات الروسية لـ«ربيع براغ»، مرورًا بكتاب «الضحك والنسيان» «Du rire et de l'oubli»، الصادر بعد عشر سنوات من ذلك، وكان سببًا في تجريد كونديرا من جنسيته، بعد مرحلة المنفى الفرنسي. وكرد فعل، ضد اختزال عمله إلى القصد السياسي، المفترض بأنه يعبر عنه، فضل كونديرا تأويلًا نقيضًا حينما وضع الرواية منذ سنوات 1980 مع رواية: «خفة الكائن التي لا تحتمل»، تحت الإشارة الساخرة «لما هو غير قابل للبت». محذرًا من خلطها بأدب الأفكار الذي انتقد بعنف أطروحاته، لأن الرواية في نظره بمثابة: «يقين وحيد، لحكمة اللايقين».

تؤسس نصوص كونديرا، بنية متكاملة. حقيقة، أظهرتها بامتياز الطبعة الحالية المقترحة. هكذا، تشير مختلف جوانب السؤال إلى الاتفاق حول ما الذي يصنع هذه الوحدة، وتخبر بالطريقة نفسها عن كل مؤلفات الكاتب سواء الروايات أو الدراسات، مهما كانت لغتها، والحقبة التي تطويها. وليس يقينيًّا، أن هذه الوحدة، ترجع إلى مجموعة أفكار عرضها كونديرا نفسه، بغية تخليص عمله، من تفسيرات أولى مغلوطة أبعدتها عن التأمل الحاذق جدًّا، كما يقترحه، فقد أخذت شيئًا ما قيمة «الفضاءات المشتركة» فيما بعد («ضد الحداثة»، «الهزل»، المناقض لـ«كيتش» «kitsch» و«تعليق الحكم الأخلاقي»، بينما من البديهي أن متنه ـ بعيدًا عن اختزاله إلى ذلك ـ يقترح توضيحًا خالصًا يتجاوز تلك الشعارات.

أما عندما يستدعي نص كونديرا التناقض الذي يحكمه،

Twitter: @ketab_n

فسيقدم نفسه كي نقرأه، من وجهة نظر مخالفة لما نثمنه أحيانًا فيه، هكذا سيأخذ أساسًا، مسار نصّ هيّأه كاتب «معاصر» جدًّا (حسب التعريف التناوبي للحداثة، كما سنّه «فن الرواية» وكذا «الوصايا المغدورة») فيكشف حينئذ عن رؤية عويصة للوضع الإنساني (من هنا التأثير العجيب الذي لا يضاهى لبعض صفحات «الخلود» أو «الهوية»). أما تخلّي كونديرا عن الالتزام السياسي، فلا يستبعد أبدًا نظرة أخلاقية يحملها إلى العالم المعاصر (إذن كاتب «خفة الكائن التي لا تحتمل» أو «البطء»، يستحق حتمًا، توجيه التحية إليه باعتباره، أحد الملاحظين النبهاء).

وحدة من نوع آخر، ليست مخولة لكل الكتّاب الذين استطاعوا خلق شكل، كما الحال مع كونديرا. لقد تأتى له تحقيق إبداع ثان للرواية، بدءًا «من الحياة في مكان آخر» حتى نصه الآخر «الجهل»، سلسلة مؤلفات يقطع داخلها السرد مع كل تخطيطية متفق عليها، وترسمه تغيرات متتالية حسب نموذج موسيقي (اللحن الموسيقى بالنسبة للتراكيب الواسعة في التشيكية، ثم الطباق قياسًا لتراكيب الفرنسية الأكثر ضيقًا). تتشظى الحبكة، ثم تنصهر في النص حسب سلاسة رائعة، الرواية والدراسة والنثر والشعر، والحلم والواقع والحاضر والماضي. بنية كهاته ـ تبقى منتمية لهذا الشكل الثالث الذي أثاره رولان بارت بخصوص مارسيل بروست ـ سماها كونديرا في كتابه الأخير «une rencontre» «لقاء»: «أوج تحققات الرواية» «Archi-roman».

Twitter: @ketab_n

غير أن اكتشافًا كهذا، ومثل كل اكتشاف أصيل، يُعتبرُ كل شيء، غير أن يكون بالضبط شكليًا، ينسج معه رؤية حقًّا تراجيدية، لكن الضحك يتمم رؤية الإنسان في العالم، وهو يتقدم مختبرًا المجهول والمنفى والغرابة، يسائل باستمرار: «وضعيته الوحيدة والمنفردة، التي يتلاشى فهمها بين ثنايا الشساعة»، يسير نحو الموت والأبدية، ثم أبعد منهما اتّجاه «نشوة اللاوجود الكلي»، مع لاشيئية «بلون مائل للزرقة».

Twitter: @ketab_n

فرانز كافكا
وغرامياته المستحيلة[1]

I ـ كافكا، الخاطب الخالد:

بين سنوات 1912 و1924، حين كرس كافكا نفسه للأدب، مثل يائس وسط دوامة تتأرجح بين الرغبة والواجب، الانجذاب والنفور، فقد أراد الظفر بامرأة تكون زوجة له، كي لا تسري عليه لعنة التلمود، التي بحسبها فكل شخص عازب غير جدير بالانتماء إلى النوع البشري. لكن، الأمر ليس هينًا. كافكا الذي كتب إلى عشيقته ميلينا Milena: «الحبّ، معناه، أن تكوني بالنسبة إليَّ، سكّينًا أقلّب به ذاتي»، لا يقر حتمًا بالوصول إلى إشباع مشترك. هل كان كافكا مجبرًا على أن يبقى عازبًا، بسبب مزاجه الفني الذي يربك سعيه إلى التمتع بالحبّ؟

إنه السؤال، الذي طرحه كتاب «جاكلين راول دوفال» «Jacqueline Raoul Duval» [كافكا، الخاطب الخالد][2]. سرد هجين، بحيث يبدو كأنه يأخذ فقط منحى بيوغرافيًّا، لكنه

(1) **Le monde**: vendredi 15 avril 2011.

(2) Jacqueline Raoul - Duval: **Kafka, l'éternel fiancé**

Twitter: @ketab_n

أيضًا، حكي مختلف حول حياة كافكا الغرامية. يرجع، لهذا العمل، الفضل في تجميع مقاطع مأخوذة من يومياته وفقرات من رسائله، ثم موضعتها ثانية في سياقات حسية، فأعطى ذلك لحياة كافكا صيغة استمرارية، لأن القارئ عندما يتصفح مذكراته أو رسائله، لن يجد غالبًا إلّا شذرات منفصلة الواحدة، عن الأخرى.

يوجد خيط يعبر هذه التواريخ، يتلوّى في كل الاتّجاهات كي ينتهي، بخنقٍ للحب. هذا الدافع، أضاء مسار «جاكلين دوفال»، ومكنها من وضع اليد على شخص، سيعترف: «لا أشبه، نفسي إلّا قليلًا جدًّا». وإلى صديقه ماكس برود، كتب كافكا سنة 1921، مصرحًا بهذا الفكر الذي يبدو بأن جميع ما عاشه، يحيل عليه. يقول: «كان مستحيلًا أن أحبّ، إلّا إذا استطعت بالمطلق، جعل موضوعي فوق ذاتي، فيصير بالتالي منيعًا».

من خلال نص جاكلين دوفال، ندرك بأن جملة كهاته ليست فقط تأكيدًا فكريًّا، بل تجد لها صدى مباشرًا في حياة الكاتب وحيثيات تعاسته الكبرى. سرد رائع!

فيليس بوير Felice Bauer، شابة ألمانية، صاحبة «وجه نحيل، لا تميزه أية دلالة تقريبًا»، رآها كافكا مرة واحدة، لكنه، سيصف لها في مراسلاته المجنونة (ثلاثة رسائل يوميًّا) طبيعة حبّه السلبية: «إن رغبتي في الكتابة إليك باستمرار، ليس دافعها الحبّ، بل نتيجة شقاء استعدادي الفكري». لكن، كافكا، اليائس من مبدأ الالتزام، أضفى عليه مفهومًا مميتًا، قرر قطع علاقاته للأبد مع «فيليس» بعد خطوبتين متتاليتين.

Twitter: @ketab_n

لماذا، اتخذ قرارًا كهذا؟ ضغط عائلي؟ أم الشعور بأن الحبّ يتهاوى، لما يصير شهوة والتحامًا جسديًّا، فيرتبط حينئذ لدى كافكا بالعقاب؟ «كيف يمكننا العثور على السعادة في العالم، إن لم تكن مجرّد تمويه؟». يكتب في إحدى مذكراته: الجواب، يبقى بعيد المنال.

أيامه، إذن مع فيليس صارت معدودة، مثل صفحات هذه الرواية، التي يبدو بأن قوتها السرية خاضعة دائمًا لضرورة: الاندثار، بهدف ترك المكان لكلمات كافكا ومنح القارئ صورة مباشرة عنه. بيد، أنه في اللحظة، التي استطاعت مقاربة «جاكلين دوفال» تحقيق هذه المعجزة الصغيرة، المتعلقة بتجسيد موضوعها، كاد أيضًا أن يضيع منها. فكافكا، المصاب بالسل، سيعتبر مرضه مثل «سلاح»: لقد أجبره على مغادرة مدينة براغ، ونسيان خمس سنوات من العذاب مع فيليس.

في قرية قريبة من براغ، سيلتقي كافكا بـ «جولي فوريزيك» «Julie Wohryzek»: «لا تقلّ، قط تفاهة عن هذه الذبابة التي تحلق نحو الضوء»، مع ذلك، اقترح عليها الزواج. قضية، بلا تتمة، التعليل واضح.

لكن، تنقيب كافكا، بالرغم من إخفاقاته وتعبه الكبير، لم يؤدي إلى حجب قلبه أو عينه، فيظهر الأمر جد مثير: شيء ما، ينبغي أن يحدث مرة أخرى، حتى ولو أنهك قواه.

سنة 1920، وقد بلغ كافكا السابعة والثلاثين، وفي إحدى مقاهي براغ تعرف على ميلينا جيسينكا Milena Jesenka،

Twitter: @ketab_n

امرأة في العشرين من عمرها، أرادت أن تترجم إلى التشيكية (اللغة الأم، لكافكا)، مجموعة مؤلفاته مثل المحاكمة «Le verdict» وكذا المسخ «la métamorphose». بداية حوار أدبي، أشعل بسرعة لافتة شغفًا، تضمنته رسائلهما. شعور، ابتدأ سعيدًا، ثم سرعان ما جف نبعه وتحول إلى آلام ويأس، كتب كافكا: «ميلينا، ينبغي الانتهاء من هذه الرسائل المترنحة، لقد حولتنا إلى مجانين. فلا يمكنني، على أية حال، الاحتفاظ بزوبعة داخل غرفتي». أيضًا، ومرة أخرى، عندما تختلط اللغة بالفكر، سيأخذ كل شيء، صيغة مناقشات لامتناهية. لقد تواردت باستمرار كلمة ضجر بين طيات مراسلاته مع ميلينا. الحبّ، رسالة ميتة.

سنة 1923، قبل عام واحد من وفاته، وعلى ساحل البلطيق صادف كافكا دورا ديامان Dora Diamant، يهودية بولونية في عقدها الثاني. إنه الحبّ الأخير، الذي رافقه حتى رحيله، سيحاول معها تحقيق مشروع، كان عزيزًا عليه: أن يعيش في برلين، منتظرًا الرحيل ربما ذات يوم إلى تل أبيب كي ينشئ مطعمًا.

استحضار الشهور الأخيرة من حياته، مؤثر للغاية. زخم، سرد «جاكلين دوفال»، يمسك بأدق التفاصيل الواقعية، المكتوبة بتحفظ، والتي تترك شيئًا فشيئًا، بياضًا على الصفحة، كما الحال مع نصوص كافكا الشذراتية. بعدها بفترة قليلة، مات.

لقد صار كافكا منهكًا وهزيلًا، مع ذلك، امتلك القوة كي يبعث من سريره، ببعض الجمل إلى أصدقائه: «ألديكم لحظة؟

Twitter: @ketab_n

إذن أرجوكم امنحوا قليلًا من الماء إلى نبات الفوانيا، إنه منكسر جدًّا». ثم توفي يوم 3 يونيو/حزيران 1924 بالنمسا.

II ـ كرونولوجيا حياة كافكا:

3 يونيو/حزيران 1883، ولادته بمدينة براغ. سنة 1902، بداية صداقته مع ماكس برود، الذي أصدر له قسمًا كبيرًا من كتاباته بعد وفاته. سنة 1907، اشتغاله في شركة إيطالية للتأمينات. سنة 1912، تعرفه على شابة من برلين اسمها فيليس بوير. سنة 1913، صدور رواية «المحاكمة». سنة 1915، صدور رواية «المسخ». سنة 1917، أولى تجليات أعراض السل. سنة 1919، عقد قران خطبته على جولي فوريزيك، التي كانت تعمل سكرتيرة في براغ. سنة 1920، مراسلات غرامية مع ميلينا جيسينكا، صحافية وكاتبة تشيكوسلوفاكية. سنة 1922، صدور عمله: Un champion de Jeûne. سنة 1923، لقاؤه مع دورا ديامان، ثم السفر إلى برلين. سنة 1924، الوفاة بالنمسا، نتيجة الإصابة بمرض السل وسوء التغذية.

III ـ العري الأعزل لكاتب، يبحث عن الخلاص:

سنة 1917، وقد أنهكه المرض، ثم نتيجة علاقة عاصفة مع فيليس بوير، اضطر كافكا إلى البحث عن ملاذ بوهيمي عند أخته «أوطلا» Ottla، التي تعيش بمنطقة «Zürau». خلال إقامته لثمانية أشهر في البادية، دوّن كافكا، في صيغة حِكم

Twitter: @ketab_n

أفكاره الأكثر حميمية، وهو العمل المترجم حديثًا عن الألمانية، تحت عنوان: [Les aphorismes de Zürau]. بإشراف وتقديم «روبرتو كالاسو». يقترح توضيبًا للصفحات، متطابقًا مع أوراق كافكا: جملة واحدة في الصفحة تضمنت هواجس الكاتب: الخطأ، الفضيحة، السعي إلى الإفلات.... صيغ، تشير إلى نوع من التعزيم. فبكلمات قليلة، استجمع كافكا كل قواه، كي يكتب مثلًا صلاة ليلية: «الملاجئ متعددة، إنها الخلاص الوحيد، لكن إمكانيات الخلاص أيضًا وافرة مثل الملاجئ». يبدو مع هذه الصفحات، بأن الرهان محدّد: يقترب الكاتب جدًّا من وظيفة فكره، وفق عري مستسلم: «لقد هيأت العدة نحو هذا العالم، بطريقة تثير السخرية».

صراعات، ألغاز، مباهج الفكر وكل تمظهرات الكاتب الكبير، تلمع بين طيات صفحات أبدعها في حالة نسبية من السكينة، بعيدًا عن مدينة «براغ» والإدارة ومآسيه العاطفية. حينما، يتوقف كافكا عن الكتابة، فإنه سيخرج إلى الحقول من أجل التنزه وتقشير الخضر وتقديم العلف للماعز. مع الكتابة والمرض والريف، فقد عثر كافكا على ما يتخيل معه السعادة.

IV ـ مقطع من كتاب: [Kafka, l'éternel fiancé] **ص61**:

بدأت، مرافعته على إيقاع صوت خافت، ثم تفخم حتى أصمّ فيليس، الفتاة الشابة، التي أجابته قائلة: «نعم، أريد أن أكون زوجتك».

ثم قاطعها:

Twitter: @ketab_n

- إذن، تريدين بالرغم من كل شيء حمل هذا الصليب. إنك، فيليس تحاولين مقاومة المستحيل؟
- نعم، ستكون زوجًا طيبًا.
- تتوهمين، فلن تستطيعي البقاء إلى جانبي مدة يومين. أنا رخو، أزحف على الأرض. أنا، صامت طول الوقت، انطوائي، كئيب، متذمر، أناني وسوداوي. هل ستتحملين حياة الرهبنة، كما أحياها؟ أقضي معظم الوقت محتجزًا في غرفتي أو أطوي الأزقة وحدي. هل ستصبرين، على أن تعيشي بعيدة كليًّا عن والديك وأصدقائك بل وكل علاقة أخرى، ما دام لا يمكنني مطلقًا تصور الحياة الجماعية بطريقة مغايرة؟ لا أريد، تعاستك يا فيليس. اخرجي، من هذه الحلقة الملعونة التي سجنتك فيها، عندما أعماني الحبّ».

Twitter: @ketab_n

عبد الله الطايع، ونشوة الحرية[1]

أصدر، الكاتب المغربي المستقر بباريس، روايته [Le Jour du Roi]، الأكثر سياسية، قياسًا لمؤلفاته السابقة.

قد يحلق رأسه، بين الفينة والأخرى. لكنه حاليًّا، إن فعل ذلك خلال أيام حزينة من شهر غشت/أغسطس/آب، فلأن أمه توفيت. السيدة مباركة، امرأة أمية، بوشم على الوجه، قاسية ودينامية. . . . نعم، مباركة رحلت. عبد الله الطايع، الذي يعيش في شقته الصغيرة، المتواجدة بشارع «Belleville» الباريسي، يتكلم عن أم ممقوتة ومحبوبة في الوقت ذاته. عنصر، محوري لرواياته، الساعية إلى كيفية تمثل تعبيرًا جميلًا للغة العربية، معناه: «أن تمتلك وجهًا صادقًا»، جيد جدًّا. لم يجده. يسكب، الشاي.

خلف النافذة، ترسم السماء ذات اللون اللبني، بقعة مضيئة. عاد الطايع، من المغرب بعد إنهاء مراسم دفن أمه منذ أسابيع بمدينة سلا. بين الشاب والأم، ظلت الأواصر معقدة. يقول: «لم أكن ابنها المفضل». وأية علاقة مع نصوصه؟ بكل بداهة: بين طيات مختلف، ما كتبه عبد الله الطايع، لا شيء

(1) **Le Monde**, jeudi 23 septembre 2010.

Twitter: @ketab_n

متخيل. سواء الفضاءات والأشخاص وكذا أسرار العائلة. بل، حقيقة. انتقل بها إلى الفضاء العمومي، من خلال رواياته المقتضبة: ضجيج النزاعات الأبوية وضعف الأب، رواية (l'armée du salut (Seuil 2006)). الغراميات العابرة، تتقاسمها مدن مراكش وجنيف أو باريس، رواية (une mélancolie arabe (Seuil 2008)). ثم قنطرة نهر أبي رقراق الآيلة للسقوط، تستدعي أخرى مهدمة، روايته الأخيرة (le Jour du roi).

يعترف المهرب، في رسالة إلى «عائلته العزيزة»، أوردتها مجلة «تيل كيل» شهر أبريل/نيسان 2009: «أسرق حيواتكم، كي أحولها إلى شذرات أدبية».

عبد الله الطايع، الذي وُلد سنة 1973، يستحضر مثليته، كما «يتبناها ويتحمل أعباءها»، فجسّد جرأة نادرة في المغرب. مع ذلك، يخاطب أمه أكثر من المجتمع: «صرخاتها، مثل صورة عن المغرب». يريد، أن «يقنع» السيدة مباركة، التي صاغت «طريقته الشعرية لرؤية العالم». بالتالي، يحترمها ويبجلها.... نعم، القصيدة. مجموعة طقوس شعبية، تنطوي على حكايا الجن، لكنها تفتقر إلى الخيال، لأنه لا يهمها قط.

لقد تطرّق إلى ذلك، منذ قصته الأولى: [d'un corps a l'autre]، التي مر الآن على كتابتها خمس عشرة سنة، وهو لا يزال طالبًا بجامعة الرباط، بعد أن اختار شعبة الأدب الفرنسي. وأقام، حينئذٍ ورشًا للكتابة بمعية ثلاثة من أصدقائه، اختاروا لها تسمية: حلقة المحيط الأدبية «اسم حي يوجد بالعاصمة المغربية». مرة في الشهر، يقرأ كل واحد منهم أمام

Twitter: @ketab_n

زملائه، قصة من إبداعه. يتذكر عبد الله الطايع: «لم يكن يستهويهم ما أكتب، لأنه يحفل بالسيرة الذاتية، وهم يريدون خيالًا. بل، الخيال العلمي»استمرّت، الحلقة سنة ونصفًا. ثم، سنوات بعد ذلك، أصدر قصته: [D'un corps à l'autre]، ضمن مجموعته: [Mon Maroc] (2000)، أول عمل له.

بفضل التجربة خاصة، اهتدى الشاب في العشرينيات من عمره، إلى الكتابة أو بالضبط الرغبة في مصارعة اللغة الفرنسية، عدوه القديم، عبر كتابة يومياته. بداية يمكننا القول بأنه لم يكن يحبها! اليوم، ليس كثيرًا: «الفرنسية لغة الأغنياء، والسلطة. إنها بمثابة إهانة وتحقير، لذلك تصدى لها الفقراء بالعربية»، يعترف عبد الله الطايع. لماذا إذًا سعى إلى تعلمها؟ لماذا لا يكتب بلغة سعاد حسني، نجمة السينما المصرية، والذي أمسكت بأنفاسه، حلقات مسلسلها التلفزيوني « هو وهي»؟ الدافع، يعود إلى مدينة باريس أولًا، يقول: «بالنسبة لجيلي، مثلت باريس شيئًا كبيرًا، إنها نور». ثم، بسبب السينما، أيضًا. تناقض أم تعارض؟ خلال سنوات مراهقته، تخيل نفسه ضيفًا على «المدرسة الوطنية العليا لمهن الصوت والصورة»، لقد أراد أن يكون مخرجًا. السينما «عقيدتي الأولى»، يضحك بطل المالنخوليا العربية. في مدينة سلا، تبدأ القاعات عروضها بفيلم كاراتيه يتبعه آخر هندي. غير أن الأفلام المصرية التي تبثها باستمرار شاشة التلفاز، أكثر من غذى مشاعره وعلمته «حرية الأجساد».

في أية لحظة، تحولت مع ذلك اللغة الفرنسية المبغوضة

Twitter: @ketab_n

إلى «لغة للسينما»؟ لا يتذكر عبد الله الطايع، لكنها بدت له حينئذ مثل الأداة الأساسية القادرة على بلورة مشاريعه. الممثلة إيزابيل أدجاني، ودون أن تدري لعبت في هذا السياق دورًا، منذ تسمره لأول مرة، أمام صورة لها على غلاف مجلة: [Magazine Première]، لم يكن يعرف بأنها فرنسية تنحدر من أصل جزائري. همه الأساسي، تأمل وجهها «الذي ينبعث منه السحر». ثم التقى بها، سنوات بعد ذلك، فأصبحت مهما قاوم بمثابة معشوقته. إنها «نجمتي»، يصرخ. ومما زاد في شغفه، قدوم أدجاني إلى الجزائر، شهر نوڤمبر/تشرين الثاني 1988، من أجل دعم ثورة الطلبة. هي، إذن، ليست فقط فنانة مشهورة، بل «صوت سياسي، يتكلم عنا، ولنا». حكم؟ غير مؤكد.

ينتمي الطايع إلى المغرب الفقير، حيث ولد وترعرع، مغرب لم يوصف إلّا قليلًا، لا سيّما «من الداخل»، يشير الروائي. اللهم، بعض الاستثناءات، مثل رواية «الخبز الحافي» لمحمد شكري، التي منعت لفترة طويلة في البلد، وقرأها خفية مثل الجميع. نص «مدهش» يتكلم عن «عالم مهمل ومحتقر من قبل المثقفين المغاربة». تشعرنا، نبرة عبد الله الطايع بحنق، كما الشأن أيضًا في روايته: [Le jour du Roi]، الأكثر سياسية بين عناوين متنه، يقول: «بقدر ما أكتب، أدرك حجم الظلم، وبأني لست الوحيد».

منذ استقراره في باريس سنة 1998، لم ينسَ شيئًا من محيطه، لكن المسافة منحته الحرية. لو، مكث في المغرب

Twitter: @ketab_n

(يعود إليه أربع إلى خمس مرات في السنة)، ربما «استسلمت»، يقول. جرّاء قوة، الضغط الاجتماعي. فأن، يتحمل وزر جنسانيته المثلية، يعني «فضيحة». ثم وجد نفسه، متحصنًا وراء «تسويات غير مجدية». خطورة، اختزاله إلى هذا الوضع البطولي المربك، لا يزعجه قط: «إذا ساهمت، في إزالة صفة العار عن المثلية، فذلك أفضل! يجزم مبتسمًا، مثنيًا على الصحافة المغربية، التي «عرفت كيف تتعامل مع هذه الأشياء بجدية».

أتى، إلى فرنسا وكذا اللغة الفرنسية، عبر عشقه للسينما. في هذا الإطار، تلقى دعمًا ماليًّا من المركز السينمائي الفرنسي، كي ينجز بصحبة «لوي غارديل»، سيناريو تحت عنوان: [L'Armée du Salut]، مقتبس من روايته التي تحمل الاسم ذاته.

بالنسبة، لآخر مؤلفاته: [Le jour du Roi]. فإن شبح الحسن الثاني، الذي توفي شهر يوليو/تموز 1999 بعد ثمان وثلاثين سنة من الحكم، ما زال مهيمنًا، الخوف أيضًا. وكذا، الحقد. خالد، ابن بورجوازي ميسور، اختير من بين «أفضل تلامذة المملكة المغربية»، ممّا خوّله إمكانية المشاركة في استقبال رسمي بحضور الملك. شيء، أحدث الغيرة لدى عمر، صديقه منذ سنوات الدراسة بالثانوي، الذي يعتبر نفسه «غير محظوظ، حتى في الحلم». فهذا الشاب المغربي، البسيط المنحدر من الأحياء الهامشية بمدينة سلا، يروي حلمه أو كابوسه بالأحرى، وقد شاهد الحسن الثاني: «متجردًا من

Twitter: @ketab_n

ثيابه، عاريًا» نعم، رأيته يصرخ بجنون بعد أن انتابه الرعب والفزع. المثير أكثر، مشهد تقبيل اليد «حلم المغاربة تقريبًا»، يضيف عمر الذي استيقظ مذعورًا ومكتئبًا جدًّا، بعد ليلة انتهكت الحرمات. اقتضى، الأمر إذن من عبد الله الطايع جرأة، كي يدشن صفحات روايته بتعرية الملك الحسن الثاني.

الصداقة الغامضة والعاشقة، التي جمعت بين عمر الفقير وخالد الغني، ستنتهي دمًا. رواية، تناولت حرب الطبقات والطبقات المنغلقة على ذاتها والأجساد ثم اختتمت من حيث بدأت، عتبة العرش. فإلى ما وراء، سور القصر الملكي، ستلتجئ «حادة»، الخادمة الصغيرة التي اشتغلت عند أسرة خالد ثم طردت أخيرًا وجهة الشارع. حادة، فتاة شابة، مثل عمر وصديقه خالد، لكن لونها أسود، لذلك ذهبت كي تنضمّ إلى شعبها من العبيد الذي يخدم القصر و«الدولة العلوية» «منذ قرون وقرون».

Twitter: @ketab_n

روبير سولي:
صنع الله إبراهيم[1]

يستعيد الكاتب المصري صنع الله إبراهيم، في عمل أكثر تفاؤلية من سابقيه، حقبة مضطربة من طفولته سنوات الأربعينيات بالقاهرة.

طفل في العاشرة من عمره، قلق جدًّا، يتلصص على الكبار من وراء الأبواب، يفتش الأدراج ثم يغمض عينيه حينما تتداول أمامه أقاويل مزعجة. طفل، يشبه أخًا لـ صنع الله إبراهيم: «لنقل، بأن هذا العمل يتضمن 20% من الخيال». يؤكد الكاتب المصري، المعروف بالتزاماته السياسية. مع «المسافر الصغير»[2]، روايته الثامنة المترجمة إلى الفرنسية، فقد اختار نبرة متفائلة أكثر.

نتواجد الآن بالقاهرة، سنوات نهاية الأربعينيات، مع أسرة تنتمي للبورجوازية الصغيرة. «أسرة»، كلمة كبيرة: فمنذ رحيل أمه، يعيش الصبي الصغير مع أبيه، وهو موظف بسيط متقاعد، منعكف على المهام المنزلية كالطهي وكيّ الثياب ثم

(1) **Le monde:** 19 Septembre 2008.

(2) **Le Monde,** vendredi, 23 janvier, 2009.

Twitter: @ketab_n

يعالج طفله حينما يصاب بمرض، ويستظهر له صلواته ودروسه، بل ينجز له تمارينه المدرسية. رغم ذلك، لم يتمكن أبدًا من ملء الفراغ الفظيع الذي تركه غياب الأم.

ثم بشكل متواصل في صيغة تداعيات محزنة، فإن وقائع صغيرة من الحياة اليومية، ترجع بالطفل إلى سنوات خلت، تذكره بالأيام السعيدة والجنة المفتقدة. جاءت المشاهد المسترجعة بالخط الإيطالي القديم، بين ثنايا فقرة دون رجوع إلى بداية السطر. يكتبها صنع الله إبراهيم في الحاضر، باعتبارها تتمة للنص، بالأسلوب البسيط نفسه. لا يتوفر الوقت دائمًا للقارىء كي ينتقل من حقبة إلى أخرى ويقتسم مع الطفل الصغير شعوره.

ما يثير الانتباه على الفور في هذه الرواية، أسلوبها: جمل مقتضبة دون محسنات دقيقة على طريقة المختص بعلم الحشرات، ولا شيء يجمع مع التحليقات الكبرى لبعض الكتاب العرب: «أرفض الغنائية ـ يؤكد صنع الله إبراهيم ـ فالرواية فن التفاصيل». لا تقل، عمارة سكنية شاهقة أو عن طريق بأنها طويلة: حدّد بالضبط عدد الطوابق أو الكيلومترات. يظن مع هيمنغواي، بضرورة عدم إظهار الروائي للجزء البارز من الجبل الجليدي.

مع «المسافر الصغير» جاء صنع الله إبراهيم بعمل توثيقي، يروي تفصيلًا حياة هذا المنزل وبدقة مذهلة، ستثير المؤرخين مستقبلًا. تمتد أوصافه إلى جميع الأشياء، حتى علامات المنتوجات، تستعيد معه حقبة بأكملها: «قالب معجون

Twitter: @ketab_n

أسنان «Kolinis»، وعاء مرهم مزيل للشعر «Zambuk»، ثم «Noline» من أجل مشط الشعر...».

ها هو الطفل مع أبيه: «يصطحبني إلى المرحاض كي أتبول. أتقزز من الرائحة. هناك عطل في أداة التنظيف، يقول. أتلو، آية الكرسي كما علمني إياها. يدفعني بهدوء كي يساعدني على الصعود فوق دكة العمود الحجري. حينما أتردّد، يصعد هو أيضًا لكي يكون إلى جانبي ويمسكني من الكتف بينما أنا أفكك أزرار سروالي».

يبحث الأب عن امرأة جديدة، يتقاسم والطفل شقة مع شرطي يعيش إلى جانب زوجته «السيدة تحية». امرأة شابة، مزعجة، تدخن، تضع الأحمر على شفتيها اللبابية، تضم الطفل إليها وتشبعه تقبيلًا.... معشوقة؟ أم بديلة عن الأم؟ في هذا العالم، الجنس مهيمن، لكنه مضمر دائمًا.

ولد صنع الله إبراهيم سنة 1937، تخلى عن دراساته القانونية عند بداية المرحلة الناصرية، لكي يناضل سرًّا في الحزب الشيوعي المحظور. اعتقل سنة 1959، ليقضي خمس سنوات وراء قضبان السجن، تحمل معها وعاين أهوال نظام الاعتقال بمصر. حينما خرج من السجن، نشر سنة 1966 عمله الملتهب: تلك الرائحة. خضع فورًا للرقابة، لكنه تدوول سرًّا. لقد استحضرت الرواية، تجربة الاعتقال كما عاشها صنع الله إبراهيم، الذي أظهر بطريقة مؤلمة جدًّا الحرمان الجنسي لمواطنيه. موضوعات، لم يقاربها قط الأدب العربي حتى ذاك الوقت.

Twitter: @ketab_n

سنة 1981، سيعيد الكرة مع عمله الآخر: اللجنة. رواية كافكاوية، تتحدث عن مثقف يمتثل قضائيًا أمام لجنة تفتيش غريبة، مؤلفة من عسكريين ومدنيين. سعت رواياته، الموالية بعد ذلك إلى التشهير بقضايا الفساد، الهيمنة الدينية، الجمود، ثم الشركات المتعددة الجنسيات أو عجرفة الغرب. يحزنه كثيرًا أيضًا، وضع المرأة العربية، في عمله: (سنوات «Zeth»). يبدو بأن البطلة قد شلّت ربما من الخوف، بينما نجحت روايته الأخرى «وردة» في تكسير الأغلال المجتمعية.

لا يتردّد الكاتب أبدًا في ترصيع نصوصه بمستجدات سريعة من الواقع الراهن. بينما، لم يفعل ذلك مع: المسافر الصغير. لكن، السياسة ظلت حاضرة باستمرار فيما وراء المستوى الظاهر.

تميزت حقبة الملك فاروق بتمييع للسلطة وهجمة الأغنياء الجدد مع اتساع الفوارق الاجتماعية بشكل صارخ. يزمجر الغضب، لقد اقترب موعد ثورة 1952. بالنسبة، لصنع الله إبراهيم، الحقبة التي نعيشها اليوم، تشبه كثيرًا تلك السنوات يقول: «سيحدث شيء ما، لم يعد الأمر يطاق . . .، نشاهد انهيارًا للرعاية الاجتماعية والتعليم . . .».

هل، هو حرّ في كتابة ما يريد؟ «نعم، أنا حر، ليس لأن هناك ديمقراطية، بل بسبب ضعف النظام حيث يركز كل انتباهه على التظاهرات العمومية. يمكنكم الكتابة، فهم لا يقرؤون أبدًا. أقطن عمارة تتكون من ثلاث وثلاثين شقة، أغلب

Twitter: @ketab_n

ساكنيها أطباء ومهندسون وضباط...، عمارة دون خزانات للكتب اللهم إلّا كتب الدين».

لا يكتفي صنع الله إبراهيم بالكتابة. إقامته خارج مصر ـ برلين، موسكو، سان فرانسيسكو ـ فتح له مجموعة من الآفاق: ساهم في إنشاء فريق لمحاربة العولمة، يعقد مؤتمره سنويًّا بالقاهرة. هو أيضًا، إحدى الشخصيات المؤسسة لحركة «كفاية» التي اقتحمت منذ سنوات الحياة السياسية، مبرهنة على إمكانية تشكيل معارضة غير إسلامية.

سنة 2003، حين منحه المجلس الأعلى للثقافة جائزة أدبية ذات قيمة، صعد صنع الله إبراهيم إلى المنبر أمام حشد منذهل معلنًا رفضه هذا الامتياز ـ ومن خلال ذلك مبلغًا مهمًّا من المال ـ حتى لا يكفله نظام يرفضه. يقول بهذا الخصوص: «لقد توخيت تقديم الدليل، على أن كل واحد منا قد يقاوم بطريقته، اعتمادًا على وسائله الخاصة».

كان عليه انتظار: المسافر الصغير، لكي يفهم بداية هذا المسار: «إلى غاية الآن، يقول صنع الله إبراهيم، أخفقت في الكتابة حول طفولتي. بالتأكيد، لم أكن متقدمًا عمريًّا بما يكفي، كي أفهم أبي». فيما وراء سيرة ذاتية، اتخذت طابعًا روائيًّا، فإن هاته الصفحات المتسمة بتوق إلى الماضي، تضيء بطريقة مؤثرة رقعة كاملة من المجتمع المصري. مجتمع ميزته الخيبات، وخلخلته العولمة بقوة ثم سيلتجئ إلى الدين. إنه، في الأخير لا يختلف كثيرًا عن مجتمع الأمس، حينما نتفحصه كما فعل صنع الله الطفل من وراء ثقب القفل.

Twitter: @ketab_n

روبير سولي:
صنع الله إبراهيم، ثورة مصر(1)

«ولو في الحلم، لم يكن بوسعي تخيّل هذه الثورة!». الروائي المصري «صنع الله إبراهيم» الذي أصدر رواية عن حملة بونابارت، عبّر عن سعادته وهو يرى تبلور ثورة شباب مصر، في أفق فكره نفسه.

«نعم، لم أترقبها، حتى وأنا أحلم!» هكذا، يصيح صنع الله إبراهيم. لذلك، انتقل من محل سكنه بضاحية هيليوبوليس Héliopolis، إلى وسط الازدحام بساحة التحرير في قلب القاهرة، كي يتحسس بمقلتيه ما كان مجرّد خيال. تجمد الروائي، أمام شاشة التلفاز.

الأحد 6 فبراير/شباط، حينما ترأس كاهن قبطي قدّاسًا وسط المتظاهرين، وقبله، عقد إمام قران زواج في الساحة نفسها التي جسدت واجهة للثورة على النظام، اغرورقت جفون صنع الله إبراهيم بالدموع، وهو العلماني والشيوعي السابق

(1) **Le Petit Voyageur**, Traduit de l'arabe par Richard Jacquenmond, actes sud, 208p.

Twitter: @ketab_n

الذي قضى بسبب أفكاره خمس سنوات سجنًا، زمان عبد الناصر. يقول: «لم نر هكذا مصر منذ تظاهرات 1919 من أجل الاستقلال». صنع الله إبراهيم البالغ من العمر 73 سنة، يذكر كيف أن وطنًا بأكمله ـ رجال، نساء، مسلمون، مسيحيون، أغنياء وفقراء ـ هبّ إلى الشارع من أجل الإعلان عن نهاية الاستعمار البريطاني.

الثورة جارية «نعم ثورة وليست فتنة». لقد فاجأنا الحدث كليًّا، «لم أنتظر قط شيئًا من هذا الشباب، الذي بدا لي أنه يضيع وقته على الفيسبوك» يعترف صاحب عمل: «العمامة والقبعة» روايته التاسعة المترجمة أخيرًا إلى الفرنسية، تحت عنوان: «Turbans et chapeaux» مع ذلك، أليس هو القائل منذ سنتين تقريبًا: «سيحدث أمر ما، ليس بمستحيل، نلاحظ انهيارًا للرعاية الاجتماعية والتعليم» (جريدة لوموند، 19 شتنبر/سبتمبر/أيلول 2008).

صنع الله إبراهيم، أكثر من مجرّد ملاحظ بسيط، يعيش بعيدًا عن ضوضاء المدينة مع زوجته التي تقتسم معه أفكاره. سنة 2003، وبشكل أثار دهشة الجميع، رفض علانية جائزة القاهرة للإبداع الروائي، التي يشرف عليها المجلس الأعلى المصري للثقافة، وأفصح من فوق المنصة عن كل ما يجول بخاطره.

موقف مشرف، لم يستسغه المسؤولون قط، جلب له تعاطفًا واسعًا: «في الشارع، أو داخل قطار الميترو، يعترض سبيلي أشخاص لا أعرفهم، كي يشدوا على يدي أو يقبلوني».

Twitter: @ketab_n

ساهم، صنع الله إبراهيم، في نشأة حركة مناهضة لقيم العولمة، تعقد كل سنة مؤتمرًا بالقاهرة. كان أيضًا، أحد الأعضاء المؤسسين لمجموعة صغيرة يتداول خطابها الجميع منذ سنة 2004. حركة متواضعة تبنّت لنفسها اسما بسيطًا، لكنها انطوت على تأثيرات قوية يتعلق الأمر، بـ: كفاية. لقد اكتشف معها المصريون، وسيلة لمجابهة الفرعون الذي قبض على زمام الأمور طيلة 30 سنة. في لحظة من اللحظات، أحس الروائي بفقدان الثقة حيال «وطن تعفّن حتى النخاع» وشعبه القدري والمستسلم.

لكن حاليًّا، استعاد صنع الله إبراهيم ابتسامته، مؤكدًا بأنه آمن بسقوط مبارك ومعه مجموع النظام، ولا يخيفه الإخوان المسلمون الذين بحسبه يفتقدون لشيء معقول يمكنهم اقتراحه، بالتالي فهم بعيدون عن تمثيل أغلبية الشعب المصري. يلاحظ، بأن الحركة الأصولية فاعلة اجتماعيًّا لكنها لا تناضل من أجل العدالة. ينبغي في نظر الروائي، وضع الإسلاموية والرأسمالية داخل السلة نفسها.

صنع الله إبراهيم، ابن بورجوازية صغيرة تنحدر من القاهرة، أراد بداية أن يكون صحافيًّا، ثم ترك فصول الدراسة ملتحقًا بصفوف الحزب الشيوعي، قبل أن يعتقل سنة 1959 أول رواية له، جاءت تحت عنوان «تلك الرائحة» صدرت سنة 1966، وعرضت فورًا على الرقابة. تطرّقت إلى فظاعات الاعتقال، وكذا العوز الجنسي لكثير من مواطنيه: «بين جدران السجن، فهمت بأن النضال السياسي، لم يكن

Twitter: @ketab_n

سبيلي. فقط الكتابة ستجعلني حرًّا اتّجاه كل العالم والإيديولوجيات». مع ذلك، لم يمنعه موقفه هذا عبر أعماله التالية مثل: «اللجنة» و«سنوات زيت»، من فضح النظام البوليسي والفساد والهيمنة الدينية على المجتمع ووضع المرأة والشركات المتعددة الجنسيات وكذا غطرسة الغرب.

في روايته ما قبل الأخيرة «المسافر الصغير»، «Le petit voyageur» (Actes sud 2008)، الأكثر حميمية قياسًا لسابقاتها، يحكي صنع الله إبراهيم عن فترة مضطربة من طفولته. لكنه، سيغير النوع هذه المرة، مع مولوده الجديد «العمامة والقبعة» (Turbans et chapeaux) يقول: «منذ مدة، سكنتني رغبة أن أكتب رواية تاريخية». الحقبة المنتقاة، تتميز خاصة بغناها، ما دامت تتعلق بحملة بونابارت على مصر (1798 ـ 1801) والتي واصلها الجنرال «كليبر» و«مينو».

بالنسبة لفكر الفرنسيين، كان غزوًا ثلاثي الأبعاد:

1 ـ **وازع عسكري**: كي ينتشلوا من الإنجليز بلدًا غنيًّا ومتموضعًا جيدًا في الطريق نحو الهند.

2 ـ **وازع سياسي**: من أجل ضم المصريين و«جعلهم يكتشفون الأنوار».

3 ـ **وازع علمي**: يتمثل في دراسة هذا البلد الساحر. بالنسبة للبعض، الصدمة بين ثقافتين مكّن من إيقاظ مصر العثمانية وإدخالها عهد الحداثة، بعد أن ظلت نائمة

Twitter: @ketab_n

لقرون. بينما، رأى البعض الثاني في ذلك، أول اعتداء غربي أثناء الحقبة المعاصرة ضد الشرق المسلم.

احتار صنع الله إبراهيم، حول الرجوع إلى وثائق بالفرنسية أو الإنجليزية. نجد، إلى جانب النصوص الرسمية، مئات الحكايات لفاعلين وشهادات عن الحقبة دون احتساب المؤلفات التحليلية. أما، المصريون فلديهم أشياء قليلة وأهم وثيقة تلك التي تركها «عبد الرحمن الجبرتي». أديب ينتمي إلى أعيان القاهرة، أصدر جريدة، طيلة ثلاث سنوات من الاستعمار. بيد أن هذا البورجوازي الكبير، لم يهتم إلّا قليلًا بالعوام. سيتخيل صنع الله إبراهيم، بالموازاة، عمودًا صحافيًّا بقلم السكرتير الشاب لعبد الرحمن الجبرتي.

لا تكشف الرواية، عن رؤية، لكن وجهة النظر المتبناة من طرف المؤلف ستمنحه إمكانية الحديث عن هذه الحقبة من تاريخ مصر، بشكل غير معهود قط. صنع الله إبراهيم، الذي يؤمن بأن الرواية «فن التفاصيل» أعاد ثانية بدقة استحضار الحياة المصرية كما سادت في تلك الحقبة. التغذية أساسًا، حاضرة جدًّا بمختلف أذواقها. أما، حين يستدعي الجبرتي سكرتيره، فسيكون ذلك فرصة كي نزور كل المنزل قطعة، قطعة.

الكاتب، استحوذت عليه الشهيرة «بولين فوريس» «Pauline Fourès» زوجة ضابط، امرأة جريئة صارت عشيقة لـ بونابارت وبعده انتقلت إلى راويه الشاب، الذي يلم قليلًا بالفرنسية، فاشتغل مساعدًا لمحافظ مكتبة المعهد المصري.

Twitter: @ketab_n

ماذا، أتت تفعل هناك الجميلة «بولين»، الملقبة بـ «كيلوباترة» (كتب عنها «ستيفان زفيج» مسرحية تحت عنوان: نزوة بونابارت)؟. إنها تدعي، رغبتها في تلقين الموسيقى إلى الشاب صاحب العمامة. أطراف السيقان في الهواء، بعد كل حصة بيانو، تسترخي بكثير من الحساسية. يتبدى هنا، مظهر آخر لموهبة صنع الله إبراهيم، بيد أننا نجد صعوبة في استيعاب صلة بعيدة الاحتمال.

الجريدة التي يديرها السكرتير سرًّا، تلخص أحيانًا في سطرين: «السبت 1 غشت/أغسطس/آب، وللمرة الأولى، منذ اغتيال كليبر، أجبرنا على تنظيف المراحيض وتلميع الأدوات النحاسية». لا مغالاة، وبدون تعليق. مع ذلك، نستشف مماثلة بين الحملة على مصر وكذا الاحتلال الأميركي للعراق، لكن على القارئ إدراك ذلك.

بين طيات هذه الصفحات المباشرة جدًّا، يفترض أن تتكلم الوقائع.

Twitter: @ketab_n

ميشيل فوكو:
بكل انسيابية[1]

I ـ فكر حر:

اعتُبر فوكو متطرفًا، نظرًا لدفاعه عن الأقليات والمهمشين. هاجمه المؤرخون، لأنه يوظف الفلسفة كثيرًا، والفلاسفة وجدوا في خطابه تضمينًا مفرطًا للتاريخ. تعرّض لسيوف النقد، بسبب مساندته للثورة الإسلامية الإيرانية سنة 1979. سخر منه دوغماطيقيون أخلاقيون، بعد أن رأوا فيه مجرّد مجرم، تسبب في نقل عدوى مرض فقدان المناعة أو السيدا. مع ذلك، وبعد مرور 25 سنة على رحيله، يظل فوكو مفكر النصف الثاني من القرن العشرين، الأكثر حضورًا ومتابعة في العالم سواء عند المهتمين بالدراسات الثقافية وأنصار الليبرالية، والماركسيين الجدد وكذا منظري الأدب والفن وتاريخ العلوم. بالتالي، قراءة واحدة، ستبقى عاجزة عن استنفاد غنى هذا المشروع.

فوكو، قريب من اليسار الثاني، لذلك ترك إرثًا مفهوميًّا

(1) **Le Monde:** vendredi, 11 Février 2011.

Twitter: @ketab_n

ضخمًا، يسمح بمقاربة كونية جديدة للجنس والجنون والطب وعلم النفس المرضي والفلسفة، بل والمعارف الكبرى القائمة: علم، اقتصاد، سياسة وقانون. لقد مات قبل الأوان، قبل سبره أغوار كل التيمات التي شكلت هاجسًا له. إذن، تجميع نصوصه وحواراته (أقوال وكتابات، غاليمار 1994) وكذا توضيب الدروس التي ألقاها في «كوليج دو فرانس» بين سنوات 1970 و 1984، إلى جانب أعماله الكلاسيكية المصاغة بطريقة مبهرة، كل ذلك أضفى على هذا الفكر، مزيدًا من السحر: نعثر بين طياته على مزيج من صيغ فكر، دائم التفاعل.

سنة 1970/ 1971، ألقى فوكو أول درس له بـ «كوليج دو فرانس ـ سلسلة تمحورت حول إرادة المعرفة ـ محاولًا أن يظهر عبر تعليقه على أهم النصوص اليونانية القديمة (هيزيود، أرسطو، هوميروس، سوفوكل، السوفسطائيون) والتي شرحها كانط وسبينوزا ونيتشه، كيف تنتج كل حقبة خطابات تبتغي الفصل بين الصحيح والخطأ، العادل والجائر، الطاهر والملوث.

باختصار يتعلق الأمر لديه، أن يوضح كيف تتأسس تعبيرات انتهاكية، وراء تجليات نظام الكلمات والأشياء: اختلالات، قطائع وتصدعات. حيث تتجابه باستمرار، أنماط معرفية متعددة. إرادة الهيمنة مقابل ابتغاء الحقيقة: سلطة ملكية عليا لدى طرف، يوازيه من جهة أخرى، اختلاف ينشأ من رفض لكل وحدة عند الطرف الثاني.

في إطار هذه الدروس، كرّس فوكو فصلًا كاملًا

Twitter: @ketab_n

لمسرحية: أوديب الملك. التي تعكس بحسبه، وبطريقة رمزية، لحظة مجابهة أصيلة في الفكر الغربي، بين كل أنماط المعرفة. سيعطي، ست روايات مختلفة لهذا التفسير، بعد ندوة 12 مارس/آذار 1971.

لكي يتجنب تحقق نبوءة «أبولون»، الذي أخبره عن مصير قتله من طرف ابنه، فإن «لايوس»، زوج «جوكاست» المنحدر من عائلة «لابداكوس»، أسرع بتسليم مولوده الجديد إلى خادم، بعد ثقب رجليه. بيد أن الأخير، عوض حمله إلى قمة جبل «Cithéron» سيعهد به إلى راع سلمه بدوره إلى «بوليب»، ملك «كورنثه»، الذي كان في حاجة إلى أطفال. عندما بلغ أوديب سن الشباب، رحل إلى مدينة «ثيبس»، معتقدًا بأنه قد تخلص من قدره. لكنه في الطريق، تصادف أن التقى بـ «لايوس»، ونتيجة حدوث شجار بينهما، سيقتله أوديب، الذي استطاع بعد ذلك حل لغز التنين «سفنكس» ثم تزوج بـ «جوكاست» التي لم يحبها أو يشتهيها، وأنجبت منه أربعة أطفال. حينما اجتاح الطاعون المدينة، سيقوده تحريه إلى أن يكتشف الحقيقة التي يدرك سرها الكاهن الأعمى«ترزياس».

مبعوث من الخادم السابق، أخبره بوفاة «بوليب»، وحكى أيضًا كيف حصل عليه، من أيادي الراعي. لذلك، شنقت «جوكاست» نفسها، وأوديب فقأ عينيه.

بالنسبة للإغريق، أوديب بطل تراجيدي. أصابه الغلو، حينما اعتقد نفسه قويًا بمعرفته وحكمته، ممّا جعله عاجزًا عن اكتشاف شخص آخر غير ذاته. انزلاق، سيؤدي إلى الإخلال

Twitter: @ketab_n

بنظام الأجيال. إنه مضطرب، فهو ابن وزوج أمه، أب أطفاله وأخ لهم، ثم قاتل لوالده.

حينما وقف فرويد على هذه القضية سنة 1896، حول الدلالة الإغريقية للتراجيديا كي يجعل من أوديب بطلًا متهمًا، باشتهاء لاواعٍ لأمه حد الرغبة في قتل أبيه، فربط بذلك التحليل النفسي بقدر العائلة البورجوازية الحديثة: خلع الأب من طرف الأبناء ثم الرغبة في الالتحام بالأم باعتبارها صيغة أولى لمختلف الارتباطات الوجدانية.

يقرّ فوكو، عبر انتقاده لهذه التأويل الفرويدي المغاير، بأن التراجيديا الأوديبية تموضع تصادمًا بين أنماط معرفية مختلفة: الإجراء القضائي للاستقصاء، قاعدة التنجيم، سيادة انتهاكية، معرفة بالفئات الدنيا (المبعوث، الراعي) ثم معرفة حقيقية بالغيبي. واستنتج من ذلك، خلاصة مفادها، أن الأمر يتعلق بخطابات جوهرية: كل معرفة موحِّدة قد تهاجم بعنف من لدن معرفة الشعب وكذا الحكيم (ترزياس). حينما، أضحى أوديب ملوثًا أضاع معرفة الحقيقة، واستحال عليه بالتالي ممارسة الحكم. يقول فوكو: «لا يخبرنا أوديب عن حقيقة غرائزنا ورغبتنا، بل نظام من الإكراهات يخضع لها خطاب الحقيقة في المجتمعات الغربية منذ العهد الإغريقي».

نرى هنا، بأية طريقة يعارض فوكو خطاب التحليل النفسي، وقد اعتبره لحظة تأسيسية لمعرفة جديدة بالإنسان. لذلك، سنة 1976، في عمله: [La volonté du savoir]، الجزء الأول من تاريخ الجنسانية، جعل من فرويد «أوديبًا»

Twitter: @ketab_n

بشكل من الأشكال، أعاد صياغة القوة الرمزية لسلطة مفقودة (قانون الأب)، لكنه واجه الصعود القوي لصور ثلاث متمردة: المرأة الهستيرية والطفل المستمني واللوطي، آلية للتفكير، في أسس تاريخ التحليل النفسي.

مع ذلك خلف المجابهة، وهذا التأويل الرائع لأوديب، يكمن المفهوم السياسي عند فوكو. بعيدًا عن كل نزعة لاإنسانية ـ مفهوم كان يرعبه ـ جعل من الصلة بين معرفة الحكيم والمجتمع المدني، شرطًا لانبثاق خطاب ديمقراطي حقيقي قادر على إسقاط السلطات البدائية.

في هذا السياق، يندرج سعي الباحث دانيل ديفير Daniel Defert، الذي توخى تجميع دروس فوكو وتقديمها بالرجوع إلى مسودات، ثم البيبليوغرافيا وكذا الفهارس ـ مفهوم إغريقي ـ جعلنا نستعيد معه بشكل جميل ورائع خطاب فوكو، بحيث نحس كأننا نستمع إلى صوت الفيلسوف الرنان أثناء كلامه إلى حشد من مستمعيه، دون أدنى أثر للخطابة، واضعًا أحيانًا وجهه بين يديه.

II ـ إصدار ونشر، دروس ميشيل فوكو في كوليج دو فرانس:

باستثناء سنة 1977، دأب فوكو على المحاضرة في كوليج دو فرانس خلال الفترة الممتدة من دجنبر/ديسمبر/كانون الأول 1970 إلى يونيو/حزيران 1984 ضمن برنامج كرسي، وضع له خصيصًا تحت عنوان: [تاريخ أنظمة التفكير]. لقد عبر عن رفضه، إخراج أي عمل له بعد وفاته، لكن ورثته وأمام

Twitter: @ketab_n

إلحاح الجمهور وتجنبًا لكل قرصنة، قرروا إعداد نسخة، بناء على مسودات وتسجيلات متوفرة وبيبليوغرافيا وعرض وتقديم وثائق إضافية، مع تفويض مسؤولية كل جزء إلى كتّاب مختلفين، من بينهم: دانييل ديفير Daniel Defert، أليساندرو فونتانا Alessandro Fontana، مورو بيرتاني Mauro Bertani، فريديريك غرو Frédéric Gros، جاك لاغرانج Jacques lagrange وميشيل سنيلارMichel Senellart. منذ 1997، صدرت تسعة أعداد في إطار مجموع سيصل إلى ثلاثة عشر. الأربعة الأخرى، في طور التهيىء: نظريات ومؤسسات جنائية. حكم الأحياء. الذاتية والحقيقة...، ممّا يدلّ على أن مختلف مراحل المشروع، ينبغي أن تكتمل سنة 2016، وهو بالمناسبة عمل ناجح.

الأمر، يعود إلى شخصية «دانييل ديفير» رفيق فوكو والوصي على مخطوطاته. هكذا، وبدعم من عائلة الفيلسوف، انصب اهتمامه على توجيه عمل جماعي بل وإنشاء «مركز للأبحاث» تابع لخزانة سولشوار Saulchoir سيعود مصدر تمويله إلى ما تدره حقوق المؤلف، التي وفرتها العائلة. وأخيرًا، تقييم الأرشيفات بتعاون مع «معهد ذاكرة الإصدار المعاصر» (IMEC)، كي تصبح في متناول الباحثين من العالم قاطبة. لقد، طعن فوكو في مفهوم المؤلف: صاحب وصيته «دانييل ديفير» تشبث بوفائه لفكر الفيلسوف، لكنه مقابل ذلك، لم يلتزم برغبة فوكو الذي تمنى عدم الإعلان عن كتاباته بعد وفاته.

Twitter: @ketab_n

III ـ حوار مع «دانييل ديفير» رفيق فوكو، حول حيثيات إصدار دروس كوليج دو فرانس:

شغل دانييل ديفير، منصب أستاذ محاضر بجامعة باريس 8، وأسس سنة 1984 أول جمعية فرنسية لمحاربة السيدا: رفيق فوكو، يشرف على تقديم دروسه إلى القارئ.

1 ـ ما دواعي الاشتغال على نصوص فوكو، مع العلم أنه بقي متحفظًا جدًّا ضد مبدأ نشر وطبع أعماله بعد وفاته؟

ردّد فوكو باستمرار، أنه لا يريد مصير كافكا، فرفض إصدار أعمال له بعد وفاته. غير أن الأمر لا يتعلق هنا بمسودات غير تامة. هي، دروس، استجاب فوكو دائمًا لتوثيقها. لقد، انطلقنا من مؤشر مفاده أن ما كان عموميًّا ليس إجهازًا على نصوص بعد وفاة صاحبها، بالمعنى الدقيق للسياق. التباس، لم أناقشه قط مع فوكو. لكن، حينما بدأ ظهور طبعات منتحلة، كان لازمًا أن نتدخل. نسخة إيطالية، تضمنت أخطاء، وأخرى أعلن عنها في البرازيل، وثالثة جاءت من هونغ كونغ. منذ البداية، نكتشف عدم احترام النظام الكرونولوجي لهاته الدروس. حقًّا، تنقصنا جميع التسجيلات ونرفض الاستناد على تدوينات مستمعيه: ارتاب فوكو جدًّا في ذلك.

2 ـ الدرس الذي ظهر حاليًّا، يعتبر أول دروس فوكو في كوليج دو فرانس: على الرغم من الشفاهية، بدت دقة الفكر مدهشة؟

Twitter: @ketab_n

الشفاهي، مجال للتصحيحات اللحظية، لكن فوكو كتب كل دروسه، وإن بشكل أقل في آخر حياته، حين اكتسب نوعًا من التمرن . . . ، وتأتت له الفورية بين الشفاهي والكتابي. مع ذلك، أسلوب هذا الدرس مختلف شيئًا ما، لأنه أول إطلالة له في كوليج دو فرانس، وبالتالي سكن فوكو هاجس توجهه بالخطاب إلى متخصصين، ممّا يفسر الكم الهائل من المراجع التي احتوى عليها النص، أو أيضًا الصيغ الإغريقية المتعددة. لكن منذ الوهلة الأولى، لاحظنا تقاطر جمهور متنوع، ممّا حتَّم تجهيز قاعتين وتزويدهما بمكبرات صوتية! تميز فوكو بثقافة واسعة، افترض تقاسمها. يوظف استشهادات من ذاكرته، جعله مضطرًّا كل مرة إلى التحقق منها، لأنه يترجمها ثانية بنفسه. أحيانًا يرتكب أخطاء صغيرة، ويخلّ قليلًا. لذلك حاولنا، الوقوف من جديد على جميع الاستشهادات والإحالات. لحسن الحظ، عثرت على عدد كبير من تعليقاته أثناء القراءة وهو ما أعطاني إمكانية إعادة تأسيس بيبليوغرافيا، ولو جزئية، فهذا يساعد على إدراك المعطى بشكل واضح.

3 ـ كيف تنظرون إلى تطور هذه الدروس؟

يصعب الحديث بهذا الخصوص. فقد وجدنا دائمًا عند فوكو، اهتمامًا بالراهن والقائم. إذا تكلم عن اليونان القديمة، فالأمر يشير عنده إلى الوضع السياسي السائد سنة 1970. مثلًا، انطلاقًا من سنة 1977 ـ 1978، بدأ يتكلم عن النيوليبرالية لأنها صارت آنذاك رهانًا. خلال الأعوام الأولى تطرق خاصة، لمادية اللغة والخطاب. مع ذلك، نتبيّن اختلافًا

Twitter: @ketab_n

حقيقيًّا بين دروس فوكو في كوليج دو فرانس، ومحاضراته خارج فرنسا التي كانت بامتياز نقاشًا مع كتّاب ساجلهم فوكو. داخل الكوليج، تبنّى نوعًا من الموضوعية التاريخية، ربما توخى تجنب السجال، مع أنه رجل بوليميكي.

4 ـ كيف تفسرون خصوبة فوكو في الوقت الحاضر؟

مشيل فوكو، يفكر ويبحث. الميادين التي سبر أغوارها، كانت موضوع تأويل عند إيديولوجيات نزاعية ومتناقضة، هذا ما يفسر استثماره من قبل هذا الفريق أو ذاك: لقد أرسى دعائم لعبة مفهومية، تنبثق عنها استراتيجيات عديدة، تبقى قابلة للنقاش. مع ذلك، نوعية الموقف، لا تعني بأن فوكو اتصف بالتردّد والتأرجح أو افتقد لرأي ثابت. بل، حاول فقط أن يعرف.

5 ـ لماذا أضفتم إلى آخر نص «معرفة أوديب» المحاضرة التي ألقاها فوكو في الولايات المتحدة الأميركية؟

تتموقع هذه المحاضرة ضمن استمرارية درسه الأخير، وتحدّد لحظة لقاء دولوز ـ فوكو الأكثر زخمًا. لا أدري، إذا تناقش في هذا الإطار مع دولوز لحظة كتابتها، لكن تجلي «أوديب» يعود إلى قراءته كتاب دولوز: Différence et répétition (PUF.1968). إنها محاضرة مهمة، استعادها لمرات عديدة. أعتقد، حينما نتأملها سنجدها تمثل إحدى مداخل، دروس فوكو الأولى بكوليج دو فرانس، وأنه ينبغي بالتأكيد الاطلاع أولًا على نصّ «معرفة أوديب». لذا، في الوقت الذي

Twitter: @ketab_n

نهيئ فيه غلاف الجزء الرابع، أحلم بتوجيه القارئ، كي يبدأ هذا الكتاب من الأخير.

IV ـ النقد السياسي عند ميشيل فوكو:

ينطلق هذا التأويل، من إقرار مفاده: يواصل فوكو جذب انتباه قسم من اليسار الفكري. البعض، وجد عنده منظورات ثورية بغية رفض التوافق حول الرأسمالية والديمقراطية الليبرالية. لكن، بالنسبة لـ«جوزي لوي مورينو بيستانا»، باحث ينتمي لمدرسة «بيير بورديو» الاجتماعية، فقد حان الوقت لأخذ مسافة، والتساؤل إن كان فوكو يعني كثيرًا، عند الذين يتوخون إقامة مجتمع أكثر عدلًا ومساواة.

بالرغم من حياد معلن، ونقط جيدة تمنح هنا أو هناك، فإن جوابه: لا، ليس كل سجل فوكو إيجابي. الصعب، مساره الملتوي يجسد ترميزًا للتحول الذي قاده من رفض الشيوعية إلى أصول الليبرالية الجديدة. ونظرًا لـ «كبريائه» كفيلسوف، فقد ارتاب كثيرًا في علمية العلوم الاجتماعية والسوسيولوجيا ولم يتأمل بما يكفي بيير بورديو.

طبعًا، هذا النقد الجذري، لم يكتب بالأسلوب الهجائي، كما انطوى عليه مؤخرًا كتاب «جان مارك ماندوزيو»: [Longévité d'une imposture (2010)] والذي قوّض ما اصطلح عليه، سابقًا بـ: «Foucaultphiles» و «Foucaulâtres»، لكنه افتقد للرصانة النقدية، مثلما تميزت به أطروحة «جوزي غيليرم» التي جاءت تحت عنوان: [Foucault

Twitter: @ketab_n

ou le nihilisme de la chaire] (PUF, 1986). لقد غابت هاتان الإشارتان، عن البيبليوغرافيا.

لذلك، فالمقاربة الوحيدة التي تميزت بجديتها، تعود للسوسيولوجي «بيستانا» Pestana الذي سعى إلى موضعة مسار فوكو، عائليًّا ومهنيًّا وسياسيًّا، حينما انصب تحليله على تمرحلاته المتعاقبة حسب تغيرات السياق التاريخي. دون أن يظهر تصوره بقوة، يقدم لنا الباحث نموذجًا عن فوكو موهوب جدًّا، على مستوى مهنيته الأكاديمية والسياسية. ويشير، بأن الفيلسوف كان «متقلبًا»، انتقل من الشيوعية إلى اهتمام منصب على الديغولية، ثم الامتثال إلى الحركة اليسارية لما بعد 1968. بعد ذلك، شكل مع «فلاسفة جدد» نزوعًا مناهضًا للتوتاليتارية. وأخيرًا استسلم لإغراءات الفكر النيوليبرالي، من خلال دفاعه عن التنافس المقاولاتي.

ميشيل فوكو، وريث لنيتشه، له حساسية ما اتّجاه تقدمية الأنوار والماركسية، منجذب نحو هوامش المجتمع، لكنه سيكرس انتباها أقلّ للطبقات الاجتماعية الشعبية. مع الشيوعية، اتّجهت أهدافه إلى الاشتراكية وكذا الدولة الراعية. غير أن مفتاح اختيارات فوكو، ينبغي التنقيب عنه داخل وضعيته الطبقية، باعتباره بورجوازيًّا وابن طبيب جراح، وكذا استحضار طريقة حياته كمؤمن بالمثلية الجنسية.

يستخلص «بيستانا»، ربما كان لفوكو الفضل في إظهار بأن السياسة لا تختزل في الدولة. وينبغي أن ترتهن لمفهوم، يربط الديمقراطية بضرورة الحقيقة. لكن، يبقى من الصعب

Twitter: @ketab_n

«بناء وضع سياسي ما لليسار، مع فوكو المراحل الأولى، أو أيضًا المراحل الأخيرة».

إن دراسة، «جوزي لوي مورينوبيستانا»، المعنونة بـ «فوكو، اليسار والسياسة»، كانت أحيانًا صائبة، ومغالية لحظات ثانية. لقد، ركزت أساسًا على ارتباط فوكو بـ «الفلاسفة الجدد» ومناهضة التوتاليتارية. لكن «بيستانا» نسي الالتفات، إلى المقالات المتحمسة والمتينة إشكاليًا، المكرّسة من طرف فوكو لظاهرة، لا زالت بالتأكيد لحظتها في معطياتها الأولى: الثورة الإيرانية سنة 1978.

V ـ مشيل فوكو والسينما:

حينما يحكي «ماتيو ليندون» Mathieu Lindon، عن صداقته مع فوكو، فإنه يستعيد شريط زمرة صغيرة من الأصدقاء، دأبت على الالتقاء في الشقة الباريسية للفيلسوف بداية سنوات الثمانينيات. وظف الكاتب غالبًا، مصطلح «جلسة» كي يعيد رصد تجليات ألفة، انبنت على استهلاك في الآن ذاته، للمخدرات والسينما. وأثناء تلمسهم خيوط النشوة، يشاهد فوكو صحبة أصدقائه الفيلم الأميركي «Citizen kane» أو حلقة من حلقات «Marx Brothers». تجمع، اعترضته أحيانًا بعض التعقيدات. يقول، ليندون: «فقط، ارتكبنا خطأ، لأننا لم نقم شاشة وخاصة كشّاف النور، وكذا البكرة الأولى، قبل العرض الذي كان في الطرف الآخر من الشقة...، كان موعدًا مجنونًا، ووضعيتنا لم تهيئنا كثيرًا لهذا النوع من التوظيف التقني».

Twitter: @ketab_n

أن يكون بوسع السينما تقليب الرأس، أو على الأقل يصير بإمكانها خلخلة وجودنا، بل والحث على انبجاس أسئلة تسبب الدّوار، تلك بديهيات ممكنة بالنسبة لفوكو. أيضًا، ودون صياغته أبدًا، لـ« نظرية» حقيقية حول التجربة الفيلمية، فإن النصوص التي بلورها في هذا السياق، أغنت جدًّا النقد وكذا ممارسة الفن السابع.

بين صفحات، بحث مقتضب تحت عنوان: [فوكو، يذهب إلى السينما]، تأمل كل من «باتريس مانيغلي» و «دورك زابونيان»، هذا الالتقاء بين منتج المفاهيم والصورة المتحركة. كتب المؤلفان، عملهما المشترك بقلم متين، واضح، ومفعم بالحماسة. لذا، عندما ننتهي من قراءتهما نحس برغبة في الالتجاء إلى قاعة مظلمة، زادنا فقط، مصباح جيب وأعمال فوكو. مع ذلك، هدف الفيلسوفان الشابان، لا يروم نحو ما نسميه حاليًّا «السينما الفلسفية». فأبعد، من النظر إلى السينما كمجرّد دعامة، تنقل بموجبها الفلسفة إلى الشاشة. يتحدثان، في المقابل عن «شريك ونظير وملهم، فيتجلّى ما يعنيه حسيًّا، التفكير بطريقة مختلفة». يرتكز المجهود هنا إذن، على تحديد: «مراكز التناوب، بل التّماس الكهربائي، الذي قد يوجد بين الإنتاج السينمائي ومؤلفات فوكو» كما، كتب «دورك زابونيان».

لذلك، اهتم المؤلفان بوظيفة إنتاجات سينمائية، إلى جانب فيلم: [moi, pierre Rivière, ayant égorgé ma mère, ma sœur et mon frère] لصاحبه «روني ألّيو» (1976)،

Twitter: @ketab_n

المستوحى من كتاب لفوكو يحمل العنوان نفسه. يطفو إلى السطح أيضًا، فيلم «Brouillard» من إخراج «ألان ريزني» (1955)، والشريط السينمائي الألماني «Hitler» الذي أنجزه «هانس يورغان سيبيربرغ» (1977). لا يتعلق الأمر، كل مرة، بملاحظة أن هذه الحمولة الفيلمية، تعكس أطروحات فوكو حول الجنس والجنون أو السلطة، ولكن إظهار بأنها تصب في القضايا نفسها، وتفحصها وفق آلياتها الخاصة.

من بين هذه القضايا الميتافيزيقية أساسًا، ركز المؤلفان على علاقتنا بالزمان وطريقتنا في تمييز الماضي عن الحاضر. باختصار، حول كيفية معايشتنا التاريخ. حسب «باتريس مانيغلي»، يطرح أساسًا فكر فوكو وممارسة السينما، قضية وحيدة لا غير، هي: ما معنى الحدث؟ ينجز كل من جانبه، الخطوة نفسها أو بالأحرى الانزياح نفسه، قياسًا إلى المحدّدات القائمة. يشتركان في البحث عن صيرورة تناوبية، مفعمة بالقطائع والانفصال، يتعذر اختزالها إلى زمان تسلسل الأحداث. إنها تمضي، بحثًا عن صلة غير أسطورية بالماضي، ستجعل من التاريخ شيئًا آخر، أكثر منه معرفة جامدة: إنه أداة نقدية للحاضر.

* **مقتطف من مؤلف** (Foucault va au cinéma)

«لم يكتب فوكو قط، كتابًا عن السينما، ونادرًا ما تكلم عنها. كذلك، نحس من خلال الحوارات النادرة التي نتوفر عليها بهذا الخصوص، حيرة وتحفظًا، وأحيانًا اعترافًا صريحًا بعدم الأهلية. لكنه ربما، احتراس وتهيب، نشعر

Twitter: @ketab_n

اليوم، بقيمتهما. لأن طبيعة الموقف، حالت بين فوكو واهتمامه بالسينما، انطلاقًا من وضعية شبيهة بالإطلالة من شرفة، هكذا ستفصح الفلسفة عن معنى السينما، كشيء ضمن أشياء أخرى، تتمدد أمام عين المفهوم السيادية (...). بالتالي، ستكون قاصرة عن تمثل بعض الحقائق الصلبة والماهوية لفن السينما، (هذه التقنية أو اللغز، حسب تعبير غودار Godar) التي يصير لها أدنى دلالة قصد الاستفسار عن «لقاءٍ» محتمل بين فوكو والسينما. مع ذلك، هو لقاء حدث فعلا».

Twitter: @ketab_n

ميشيل فوكو: الدرس الأخير[1]
(1)

وهو يحاضر، كان يصارع الموت. إنها سنة 1984، لم تبدأ دروسه في كوليج دو فرانس «Collège de France»، في شهر يناير/كانون الثاني كما هو معتاد: «لقد كنت مريضًا، جد مريض». أشار ميشيل فوكو Foucault، وهو يفتتح دروسه. حينما، أنهى الدورة، أواخر مارس/آذار، قال هذه الجملة: «تأخر الأمر كثيرًا». ظاهريًا، قد يسعى هنا إلى التأكيد على تبدل في الموقف، حيث سيقتلع حتمًا عن مسألة تحضير العروض. لكن، بعد مرور الزمان ندرك صيغة فوكو بشكل مغاير. تلك، كانت كلمته الأخيرة التي توجه بها الفيلسوف إلى مستمعيه. أسابيع بعدها، توفي عن سن السابعة والخمسين بعد معاناته مع مرض السيدا.

هل هيأ فوكو، قصدًا محاضراته الأخيرة في صيغة وصية؟ بالإمكان افتراض ذلك. إجمالًا، نضع كل إحساس جانبًا، فالنص استثنائي. بعد مرور ربع قرن، لا يزال هذا الخطاب

(1) **Le Monde des livres**: vendredi, 4 février, 2011.

Twitter: @ketab_n

مدهشًا، نظرًا لوضوحه الخشن، وغزارة مضمونه، ثم قدرته النادرة على محاورة تجليات أخرى بين ثنايا نصوص معروفة.

هذه المرة، تظهر الحياة الفلسفية «la vie philosophique»، كما تخيلها ومارسها القدامى، كقالب ـ غابر، لكنه فعال دائمًا ـ للحياة النضالية، وكذا عشق الثورة، الذي يشكل مرجعية للمعاصرين. كيف ذلك؟ هذا يتطلب تفسيرات.

(2)

بضعة أسابيع قبل موته سنة 1984، قدم الفيلسوف ميشيل فوكو درسه الأخير، بكوليج دو فرانس Collège de France. ربع قرن بعد ذلك، فإن إخراج هاته المحاضرات العمومية، أعطى فرصة الإنصات لخطاب فاتن. ما هي العلاقة بين «الحياة الفلسفية» المستقيمة والفاضلة تمامًا، كما تخيلها أو مارسها بعض القدامى (الكلبيين Les cyniques اليونانيين خاصة)، ثم الهاجس الثوري الذي يسكن المعاصرين؟ لقد أقام فوكو، منطقه بوضوح لاذع، لكن أيضًا بكفاءته الهائلة على تفعيل معطيات جديدة داخل نصوص مألوفة.

هذا الأستاذ، الذي كانت دروسه تجذب اهتمام الحشود وتثير الحماس، كما يذكر المؤرخ بول ڤين Paul Veyne هو ذاته، من رفض وضع الأستاذية. لقد حاول بكل قواه، مفكر الهوامش والجنوح، الانفلات من آثار السلطة الرمزية كما أسسها دوره وهالته.

من أجل إضاءة المسار الطويل، الذي قاد حياة

Twitter: @ketab_n

الفيلسوف القديم، المبجل للحقيقة، مقارنة مع الثوري المعاصر المشرئب نحو تغيير التاريخ. ينطلق ميشيل فوكو من مفهوم يوناني، سبق له تفحصه السنة الماضية. أقصد: La Parrésia (حرية الرأي، التعبير الحر...).

يحيل المفهوم بالضبط، على وضعية التحدث بصراحة مع الصديق، والقول الحقيقي لصديق حميم، مع رفض لكل تملق وخبث أو مداهنة. تنطوي: la parrésia. على الشجاعة في أن تقول كل شيء وتجازف بالإزعاج بل والتشاجر. هاته الصراحة الجريئة التي تنطبق على وجهة الوجود الأكثر جوهرية، تتضمن أيضًا بُعدًا سياسيًّا مهمًّا: أن يقول الحقيقي بخصوص ذاته، يعني أيضًا قبول سماع ما يدفعه للاشمئزاز. يتعلق ذلك، عند اليونانيين سواء بتدبير شأن المجموعة أو الفرد.

تتشكل إذن المدينة والذات، وهما يمفصلان بطريقة مماثلة، الرغبة في الحقيقة ثم السيطرة على الذات وكذا الآخرين.

حتى الآن، لا شيء بجديد حقًّا. لكن، الدرس سيصبح غريبًا والمقاربات ماهرة، حينما يوجه فوكو عرضه نحو الفلاسفة الكلبيين Cyniques. النعت، كما ساد في العصر القديم، لا رابط بينه والمعنى المتداول راهنًا. اشتُق من كونوس Kunos («كلب» في اليونانية القديمة)، أي «كلبي» «Canin». فالكلبيون، أناس يعيشون إراديًّا ونمطيًّا مثل كلاب، ينامون بطريقة خشنة؛ يرفضون كل تصنع، يستجدون طعامهم اليومي، يتمردون على كل المجاملات، يمارسون الجنس أمام

Twitter: @ketab_n

الملأ ويشتمون الناس. لقد أثار هؤلاء الفلاسفة الاستنكار طيلة قرون عديدة.

ركز فوكو على هذا الصخب، الذي هُمش في الغالب وانتقصت من قيمته. لا يستند اهتمامه فقط، على افتتانه بكل ما هو «مقزز» المستفز والمتمرد، بل تبين له داخل الرفض الذي أظهره الكلبيون، مفاهيم لغز يتحتم تفكيكه. فلماذا ننظر إليهم بعين سيئة، بينما يستمدون مرتكزهم كليًّا من الجذع المشترك لطموحات العالم القديم الفلسفية؟ يجب التركيز في الواقع، على ابتذالية ما يردّده الكلبيون، فجوهرهم المذهبي، لا يتوهج قط بأصالته، بينما، أهدافهم هي أكثر توافقية.

لقد اتفق الجميع، في اليونان أو روما على المحاور التالية: تحويل الوجود بالفلسفة، التمحور على الذات لإدراكها، وبالتالي التخلص من كل ما قد يكشف عن نفسه بكونه عبثًا، ثم التمرس كي نجعل الحياة متطابقة مع الأفكار. أي شيء إذن غريب ولامعقول أنتجه الكلبيون حتى يتم رميهم بالخزي وقد حكمتهم غايات فلاسفة زمانهم لا أقل ولا أكثر؟

عملوا إلى حد ما على إحداث انتقال. بقدر، اتباعهم راديكاليًّا وإلى أقصى مدى، حركة الحياة الفلسفية، فقد قلبوا أيضًا دلالتها. إن «الحياة الحقيقية» بحسبهم، حياة وفق الحقيقة، لا توجد إلّا انطلاقًا من تقويض وتهديم العادات التي تضللنا. يتمثل الاكتشاف الباهر الذي خلق الضجيج، في: لقد جادلوا أمام الجميع في المبادئ التي يتقاسمها ويمتثل لها الكل.

Twitter: @ketab_n

نتفق بخصوص المبادئ، لكننا سنصنع العكس. الكلبيون، سيقومون بذلك، وبالضبط ما نقر بلاشرعيته. دون، تغييرهم من مقاصد الفلسفة المعتادة فقد أظهروا إلى أي حد من أجل ملامستها، يستلزم تهشيم القواعد وإلغاء التوافقات الاجتماعية.

إنه تحول رئيس في مسار التاريخ الأوروبي. بغتة، تنقلب فعلًا «الحياة الفلسفية»، «الحياة الحقيقية» (نزيهة، متكاملة، سامية، وفاضلة) إلى «حياة أخرى» (معوزة، قذرة، مُقززة، مخزية، حقيرة وبهيمية). أضاء فوكو مختلف تجليات هذا الانعراج، الذي سيقود نحو مستقبل ضخم. حيث تغيّرت جوهريًّا وظيفة الفيلسوف السامية، وصارت متقززة. يُعتبر الكلبي ـ le cynique، حقًّا الملك الأعظم، في غير حاجة إلى أي شخص أو شيء قصد ممارسة سلطته. لكنه، سلطان مثير للسخرية، متجرد من ثيابه، فاحش وبشع. تتجلّى مهمته العليا في ممارسة القول الصريح مع الجنس البشري قاطبة. هذا الكلب، ينبح، يهاجم ويعضّ. أثناء حربه ضد الإنسانية جمعاء، احترامًا لمبدئه «القول ـ الحقيقي» (La Parrésia) يصارع ذاته، في لحظة مجابهته للآخرين. هذا، الصعلوك الكوني يبدع ما يلي: ينطوي الارتباط بالحياة الحقيقية على إعادة صياغة للعالم، وقطيعة مطلقة مع ما يتواجد. وهو، يبشر بالحقيقة، فإن البطل الكلبي يشتغل على عالم مغاير.

انطلاقًا ممّا سبق، يُختزل المخطط الذي يجب اتباعه

Twitter: @ketab_n

فيما يلي: دراسة تحول هذا الشظف الكلبي إلى آخر مسيحي، واقتفاء آثار المستمر والمُختلف من «الحياة الحقيقية» إلى «حياة ثانية»، وكذا من «العالم الحقيقي» إلى «عالم آخر» منذ القرن الوسيط المسيحي، انتهاء بلحظة ثوار ومناضلي القرن 19.

بالنسبة لفوكو، لم يعد له من متسع زماني كي يعمل داخل ورشة من هذا الحجم. لكن، مستويات استحضار درسه لممكنات القضية، تجاوزت حدود القيام بعملية تمحيص. فقد أتى بمشروع حقيقي، يفيض أمثلة وتحليلات وفرضيات، تزخر حيوية. بحيث إن بعض الأسطر لا تقدم بهذا الصدد إلّا رؤية جزئية.

أخيرًا، ها هو ممتاز في الذكاء، عدم موته بسهولة. الدليل: انسيابه الدائم.

(3)

المؤرخ بول ڤين Paul Veyne، أستاذ في كوليج دو فرانس Collège de France بين سنوات 1975 ـ 1998. ارتبط، بصداقة مع ميشيل فوكو. وقد خصّص له، إصدارًا مهمًّا سنة 2008 جاء تحت عنوان: (Michel Foucault: sa pensée, sa personne). يجيب، هنا عن بعض أسئلتنا.

ما هو المناخ الذي ميز دروس كوليج دو فرانس؟

تابعت دروس فوكو مجموعة من الأوفياء. أغلبهم، يساريون ثوريون، جاؤوا من جامعة «Vincennes». إلّا، أنه بسرعة كبيرة تُدوول هذا الدرس على امتداد كل باريس. كان

Twitter: @ketab_n

فوكو، يجذب الحشد، نجاح على طريقة برجسون Bergson، لم يتم أبدًا الإخلال به.

غمرت مكتبه، ميكروفونات. فكثير من المستمعين، يحمل معه آلة للتسجيل. داخل القاعة، إلى جانب الجالسين، هناك من اصطف واقفًا، بينما تمدد البعض. توزع الجمهور، بين كتّاب وسياسيين، ومسرحيين، بل وسكرتير سابق لستالين. عمل، بيير نورا Pierre Nora على تقديمهم إليّ، فلم أكن أعرف أي شخص. طبعًا، نجاح فوكو أثار غيرة بعض زملائه: فقد حضر 1000 شخص لسماع دروسه، مقابل 25 عند المحاضرين الآخرين.

أي نوع من الأساتذة جسده فوكو؟

لقد قطع بالمطلق مع كل تعجرف أو عقائدية. أعطى في المقابل، انطباعًا كبيرًا عن الصدق، وهو يتخذ موقف إجلال اتّجاه الجمهور، يتعامل مع جميع مستمعيه بطريقة متساوية.

يحضر فوكو دروسه بدقة. يدون عمليًّا أفكاره بريشة. لكنه، ينطلق بعد ذلك معبرًا عنها بصوت هادئ دون تفخيم، معطيًا الإحساس بأن أفكاره تتأتى له في الحين.

يجيب دائمًا بكياسة عن الأسئلة المكتوبة التي اختارها. بدا أمام عيني، أن هذا اللطف الدائم مجرّد تكتيك كي يقنع بشكل أفضل، لأنه يتعارض في الواقع بقوة مع قساوة الأفكار التي يعبّر عنها لحظة الحميمية. في كل الأحوال، لا يتقمص أبدًا في دروسه دور الأنبياء، كما أن التأويلات التي يخلص

Twitter: @ketab_n

إليها، ظهرت لي دائمًا أكثر وضوحًا وجاذبية، ممّا هو عليه الأمر في كتبه.

لماذا؟

لأنه وهو يكتب، تفلت منه البساطة، يتفاعل بشكل مدهش مع أسلوبه، ممّا أضفى نجاحًا على أعماله، وساهم أيضًا في جعل بنية التأمل غير قابلة للإدراك كثيرًا. لقد أسس عملًا كبيرًا، وهو يعيد بناء كل شيء في مؤلفاته، بكتابة تذكرنا على سبيل المثال بڤيكتور هيجو، نظرًا لزخمها وغنائيتها.

هل تخلص فوكو من نمطه ذاك، في الأشهر الأخيرة؟

بالتأكيد، سعى إلى التجاوز. لقد توخى حتمًا إنهاء كتابه، لكن الدروس أخذت منه، وقتًا ومجهودًا كبيرين.

(4)

كان المنطوق صلبًا. قاعة في كوليج دو فرانس collège de France مكتظة بأكملها، فالأستاذ يحاضر. صالة ثانية، أقل امتلاء، حيث يُذاع الدرس عبر مكبرات الصوت. نشاهد فوكو خلف مكتبه، وبعد تحديده لمسافة كافية قياسًا لآليات تسجيل الصوت التي غمرته. يبدأ في إلقاء الدرس.

هذا المفكر الملتصق بالهوامش والجنون والجنوح. كان ذاته، مدرسًا في أرقى مؤسسة جامعية بفرنسا. وبالرغم، من الحماسة التي أحدثتها دروسه. فقد عاش بوضعيته تلك، معاناة دائمة.

Twitter: @ketab_n

انطلاقًا من 2 ديسمبر/كانون الأول 1970، تاريخ درسه التدشيني، وصولًا إلى آخر درس حول: [جرأة الحقيقة]. سيحاضر، فوكو 26 ساعة كل سنة (باستثناء 1977)، في مدرجات المؤسسة المتميزة. متماسك، ضد الشروط التي تحتمها طقوس كوليج دو فرانس، فقد استعصى عليه تحملها كما أشار إلى ذلك رفض التواجد في موقع الواجهة، أي حالة «تلك الذات التي يُفترض بأنها تعرف أكثر» من الآخرين مع ما يستتبعه الموقف من سلطة رمزية، تستلزم أيضًا صمتًا مجاملًا ومتأدبًا، يفتقد لكل استجابة أو ملاحقة.

لقد فعل فوكو، كل ما في وسعه للتخلص من حيثيات الوضع. سنة 1976، سيغير توقيت درسه ممّا بعد الظهيرة إلى التاسعة صباحًا، رغبة منه في التخلص من المستمعين الأقل جرأة، لكن دون جدوى. ولكي ينجح في تثبيط همة المتكاسلين، يضاعف فوكو من تنبيهاته ذات الحس المنهجي، بكيفية يفهم معها الحضور، بأنه يتوجه بخطابه إلى أولئك المتعودين على مفاهيمه، وقد أتوا من أجل الاشتغال. جهد لا طائل منه، فالجمهور في أغلبيته يتوزعه المتسكعون والفضوليون.

يخترق فوكو تقاليد مؤسسة الكوليج، حينما يحول جزءًا من درسه العمومي، كما هو مفترض إلى حلقة خاصة ومنغلقة، انتزعت منه ابتداء من سنة 1982...

ثم يشتكي متسائلًا، أي بحث إذن تريدون ملامسته في دروسي، وهم يرفضون توفير الوسائل المادية التي تمكن من ذلك على نحو أفضل؟ يعني عملًا حقيقيًّا، يشترك فيه الجميع، أكثر من

Twitter: @ketab_n

كونه مجرّد عرض Show أسبوعي. أما البسطاء، والذين لم ينتهوا بعد إلى غاية اليوم في الاستفسار عن الأسباب الخفية لعودة فوكو إلى العهد القديم وكذا الفكر اليوناني، فقد أجابهم سلفًا متحررًا من كل وهم على طريقة الكلبيين: أقدم دروسي حول الفلسفة القديمة، لأنه يكفي بعد كل شيء أن يكون تحت تصرفك مائتا جزء من سلسلة غيوم بودي Guillaume Budé، ثم انتهى الأمر....

ذاك هو السبب ربما، الذي دفع فوكو مع مرور السنين كي يدقق إشكاليًا أكثر، على مستوى مضمون ومحتوى دروسه، وضعيته البيداغوجية، ثم يتأتى له أخيرًا إبراز تناقضاتها العميقة.

فكر يعمل، تلك بشكل خاص، حالة درسه الأخير، وإلى غاية أقصى تجليات الترميز، مادام أن فوكو سيضع على طرفي نقيض، «القول ـ الصريح» لأفق «Parrèsiaste» رجل يمتلك «جرأة الحقيقة» كما يبلورها الكلبي اليوناني، مقابل أستاذ ليس بإمكانه غير تمرير تقليد ما، من وعي إلى آخر، ثم الحصول على راتب جرّاء أتعابه دون مجازفة أو بريق. أستاذ، يدرك في الآن نفسه زوال حظوته ونفوذه. تلك، ربما طريقته للبرهنة على شجاعته: تحمله قدر ما يمكنه الأمر، مثل هذا «التناقض في صيغة المضمون»، نموذج من القول يتعارض داخله محتوى ما قيل، مع الكيفية التي تم بها القول. بالتالي، فالذات المُتكلمة، ينازعها بل ويلغيها فحوى خطابها الخاص: سأعلمكم لماذا يتحتم التدريس بطريقة مختلفة عما يسعني القيام به.

بعض، ممّا يبعث على الاستياء، أمكن لفوكو الوقوف

Twitter: @ketab_n

عليه. ثلاث عشرة سنة من الدروس، رسمت قيمة يتعذر قياسها، وأظهرت لنا فكرًا في اشتغاله الفوري، دون طلاء أو تنميق ولا احتراس بلاغي كما يفعل في كتبه. فكر في مباشريته، بدلًا عن آخر مُفكر فيه جيدًا مع ما يقتضيه المقام من تغييرات وتعديلات وتكرار أو تحسر، احتمالات تبرز وممرات لا نتبعها إلّا برهة.

لقد حدث، أن قُورن فوكو بحوت عنبر Cachalot، يقفز من وقت لآخر: «فوق سطح الماء، محدثًا رغوة صغيرة وعابرة». وهو يحب الإيحاء، بأنه حين عودته تحت السطح: «هناك، حيث لا شخص بإمكانه إدراكه أو ضبطه، يتبع مدارًا عميقًا منسجمًا ومتبصرًا». دروس كوليج دو فرانس، مسحٌ خرائطي لفرادة هذا المسار.

وقد حمل هذا الدرس الأخير لميشيل فوكو بكوليج دو فرانس، العنوان التالي:

II - Le courage de la vérité. Le gouvernement de soi et des autres.

Twitter: @ketab_n

إدوارد سعيد: اللغة العربية، بين رولس رويس وڤولكز ڤاكن[1]

تسكن اللغة، قلب هوية الشعوب ومقاومتها للمشاريع الكولونيالية. غير، أن العربي، يتميز بخصوصية «تأرجحه»، بين اللغة الكلاسيكية ولهجات محلية، أحيانًا غير مفهومة لبعضها البعض. فهل، بوسعنا أن نصنع من هذه الثنائية غنى وقوة؟

كيف نتكلم ونكتب العربية؟ السؤال خطير إلى حد ما، تحكمه عوامل إيديولوجية، لا صلة لها بالتجربة الحية لهذه اللغة في علاقتها بمتكلميها الأصليين. لا أعرف، مصدر هذا التصور الذي يؤكد بأن العربي، يجسد أساسًا عنفًا مرعبًا وغير مفهوم. هكذا لم يكن عبثًا، أن أثث أشرار بعمائم شاشات هوليود طيلة سنوات 1940 و 1950، فيتكلمون عن ضحاياهم بنبرة جارحة وبنوع من التلذذ السادي. ومما ساعد أيضًا مؤخرًا على هذا المنحى، تركيز وسائل الإعلام الأميركية على الإرهاب، الذي أرجع كل شيء إلى العرب.

(1) Edward W. Said: **Manière de Voir** n°117, 2011, Page 70/74.

* شغل إدوارد سعيد، منصب أستاذ للأدب المقارن بجامعة كولومبيا (الولايات المتحدة الأميركية)، وقد توفي شهر شتنبر/سبتمبر/أيلول 2003.

Twitter: @ketab_n

يعود تاريخ البلاغة والبيان في التقليد الأدبي العربي إلى عشرات القرون: وبالضبط مع كتّاب بغداد مثل الجاحظ والجرجاني، الذين بنوا أنساقًا مذهلة تركيبيًّا، ومعاصرة بشكل مدهش حتى نفهم البلاغة والبيان والاستعارات. لقد، ارتكز، عملهم على العربية الكلاسيكية المكتوبة، دون المتداولة شفويًّا كل يوم. فالأولى قائمة على القرآن الذي أرسى في الآن ذاته، منبعًا ونموذجًا، لكل ما سيأتي بعده بخصوص المادة اللسانية. تصور كهذا، غير مألوف إلى حد ما لدى مستعملي اللغات الأوروبية الحديثة، بحيث تتطابق لديهم النسختان، الشفوية والأدبية. بالتالي، فقدت الكتابة المقدسة كليًّا، سلطتها الفعلية. أما العرب، فالتجأوا إلى توظيف لهجة، تتنوع كثيرًا بين المناطق، وكذا من بلد إلى آخر.

ترعرعت وسط أسرة، تكلم أفرادها لغة، تعتبر بمثابة مزيج لما كان سائدًا في فلسطين ولبنان وسوريا: هذه اللهجات الثلاث، تكشف بما يكفي عن فروقات، كي يمكننا مثلًا، تمييز شخص ينحدر من القدس عن آخر ينتمي إلى بيروت أو دمشق، لكن باستطاعتهم التواصل دون مجهود كبير.

عندما ذهبت إلى المدرسة في القاهرة، حيث قضيت قسطًا مهمًّا من شبابي، تكلمت أيضًا وبسلاسة ـ اللهجة المصرية وبشكل أكثر سرعة ولباقة، مقارنة مع تلك التي تعلمتها بين أحضان أسرتي. حقًّا، كانت اللهجة المصرية منتشرة جدًّا: تقريبًا جميع الأفلام العربية والدراما الإذاعية

Twitter: @ketab_n

والمسلسلات التلفزية، أُنتجت داخل مصر ممّا جعل هذه المنظومة التعبيرية معروفة عند ساكنة العالم العربي.

خلال سنوات 1970 و1980، دفع الارتفاع المفاجئ لأسعار البترول، بلدانًا أخرى كي تفكر بدورها في إنتاج دراما متلفزة، وهذه المرة بالعربية الكلاسيكية. سياق، أفرز أعمالًا متنكرة ومتكلّفة ومُنهِكة، أُفترض معها الاستجابة لأذواق المسلمين (ومسيحيين محافظين، بشكل عام أكثرهم تزمتًا)، لكنها أخفقت في تحويل أنظارنا عن أفلام القاهرة المفعمة موهبة، فقد بدت جد مضجرة! أما المسلسل المصري، الذي تم توضيبه بسرعة، فكان يدخل البهجة علينا، أفضل من الإنتاجات الدرامية المحكمة جيدًا في اللغة الكلاسيكية.

إجمالًا، من بين كل اللهجات، وحدها المصرية عرفت انتشارًا واضحًا. في المقابل، سأواجه كل صعوبات العالم كي أفهم جزائريًّا، فالاختلاف شاسع بما يكفي، بين لهجات المشرق وكذا المغرب. الوضع نفسه سأعيشه مع عراقي أو أيضًا متحدث تطغى عليه لكنة خليجية. لذلك، توظف النشرات الإخبارية الإذاعية والمتلفزة، لغة حديثة مُعدلة عن الكلاسيكية، تُفهم على امتداد جغرافية العالم العربي من الخليج إلى المغرب، سواء تعلق الأمر بسجالات وبرامج وثائقية ولقاءات وندوات ومواعظ المسجد وتلك الخطابات التي تسود اجتماعات الوطنيين أو التجمعات اليومية بين مواطنين يتكلمون لغات مختلفة جدًّا.

على غرار اللاتينية، بالنسبة للهجات الأوروبية المتكلَّمة

Twitter: @ketab_n

إلى حدود القرن الماضي، بقيت فعلًا العربية الكلاسيكية حاضرة بثقل، كلغة مشتركة للكتابة، بالرغم من المنابع الهائلة لسلسلة من اللهجات السائدة، التي باستثناء المصرية، لم تنتشر خارج بلدانها المعتادة. أيضًا، هي لهجات تفتقد، لرحابة الأدب العربي الكلاسيكي.

لكن، الكُتّاب الذين يُنعتون بأنهم «محليون» ينزعون إلى استعمال لغة كلاسيكية مُعصرنة، ولا يستدعون إلّا مؤقتًا العربية المحلية. عمليًّا، شخص متعلم يمتلك رافدين لسانيين جد متميزين. إلى حد، مثلًا، أنك قد تثرثر باللهجة المحلية مع محقق صحفي، يشتغل لحساب جريدة أو التلفزة، لكن فجأة، حينما يبدأ التسجيل، سينتقل دون مقدمات إلى اللغة الكلاسيكية، التي هي جوهريًّا أكثر تعقيدًا وتنقيحًا.

هناك بالتأكيد، صلة بين اللسانين: غالبًا، الحروف متماثلة وكذا نظام الكلمات. لكن، يختلف التلفظ والمصطلحات، في نطاق كون العربية الكلاسيكية، النص النموذجي للغة تفقد كل أثر للهجة الإقليمية، وتبرز كأداة رنّانة، تعدّلت طبقاتها بعناية، إنها رفيعة ومرنة بشكل مذهل، بحيث تسمح صيغها بفصاحة معتبرة.

إن العربية الكلاسيكية، المشتغلة بطريقة سليمة، ليس لها نظير على مستوى دقة العبارة والكيفية المدهشة التي بواسطتها تمكن تغيرات الحروف الذاتية لكلمة (لاسيما النهايات) من بلورة أشياء متباينة جدًّا.

Twitter: @ketab_n

أيضًا هي لغة، مضبوطة بلا مثيل، قياسًا للثقافة العربية: مثلما كتب ياغوسلاف ستيكيفتش Jaroslav Stekevych، والذي خصص لها أفضل دراسة في العهد الحديث[1]: «إنها مثل ڤينوس Vénus، لقد انبثقت في إطار حالة من الجمال التام، ثم احتفظت به على الرغم من طوارئ الزمان وإكراهاته». بالنسبة للطالب الغربي: «توحي العربية، بفكرة انجذاب تشبه الرياضيات تقريبًا. النظام الممتاز للصوامت الثلاثة ذات الجذر الكيميائي، والأشكال المتنامية للأفعال مع دلالاتها القاعدية، ثم التشكل الدقيق لاسم الفاعل واسم المفعول. كل شيء واضح ومنطقي وممنهج ومجرّد». كذلك، هي جميلة، حينما نتأملها في صورتها المكتوبة. من هنا، الدور المحوري والدائم لفن الخط. فن تركيبي، يتميز بأعلى درجات التعقيد، ويدنو من الزخرفة والأرابيسك، أكثر من التفسير الاستدلالي.

خلال الأيام الأولى، لحرب أفغانستان سنة 2001، قدمت قناة الجزيرة، نقاشات وروبورتاجات، لا نجدها في وسائل الإعلام الأميركية. وما كان مثيرًا للانتباه، غير مضمون المادة المعروضة بالرغم من تعقد الإشكالات المطروحة، ذاك المستوى العالي لبلاغة المشاركين في الجدالات، مع حيثيات أسوأ الصعوبات وأفظعها. حتى السيد أسامة بن لادن، كان يتكلم بصوت خافت دون تلعثم

(1) **Reorientation Arabic and Persian Poetry**, Indiana University Press, Bloomington, 1994.

Twitter: @ketab_n

أو ارتكابه لأقل زلة، ممّا خدم حتمًا تأثيره. الأمر نفسه، انطبق أيضًا، وإن في نطاق أقل، على غير العرب وبالضبط شخصيات أفغانية أمثال «برهان الدين رباني»، و«قلب الدين حكمتيار»، والذين مع عدم إتقانهم العربية، فقد تحدثوا اللسان الكلاسيكي بطلاقة مدهشة.

بالتأكيد، ما نسميه العربية الحديثة المعيارية (أو الكلاسيكية) ليست بالضبط، تلك التي جاء بها القرآن منذ أربعة عشر قرنًا. ومع أن الكتاب المقدس، ظل نصًّا خاضعًا للبحث والتمحيص، فإن لغته تبدو عتيقة بل مغالية. لذا، يتعذر استعمالها في كل الأوقات. ومقارنة بالنثر الحديث، فهي لغة تتوفر على مسالك القصيدة الرنانة.

إن العربية الكلاسيكية التي خضعت للتطور، تعتبر حصيلة مسار ابتدأ مع العقود الأخيرة من القرن19 ـ فترة النهضة ـ بفضل عمل مجموعة من الأسماء تواجدت بسوريا ولبنان وفلسطين ومصر (عدد كبير منهم ينتمي للطائفة المسيحية)، انكبّوا جماعة على تغيير اللغة العربية بتعديل وتبسيط بوجه من الأوجه، للمكون التركيبي لنسخة القرن السابع عن طريق الاستعراب: يتعلق الأمر بإدخال كلمات مثل: «قطار»، «شركة»، «ديمقراطية» أو «اشتراكية»، وهي طبعًا لم تكن موجودة إبان الفترة الكلاسيكية. كيف ذلك؟ بالعودة إلى المصادر الضخمة للغة، اعتمادًا على الإجراء النحوي التقني للقياس. هؤلاء الأشخاص، أسسوا قاموسًا جديدًا كليًّا، يمثل ما يقارب 60% من اللغة الكلاسيكية المعيارية. كذلك، حققت

Twitter: @ketab_n

النهضة تحريرًا للنصوص الدينية، بأن أدخلت ضمنيًّا لائكية جديدة، بخصوص ما يقوله العرب ويكتبونه.

النحو العربي معقد للغاية، وأيضًا جذاب بمنطقه، بحيث إن تلميذًا متقدمًا في السن، بوسعه استيعابه بسهولة واضحة، مادام يمكنه تقدير الحدود الدقيقة لاستدلالات هذا النحو. وفي معاهد لسانية، تنتمي إلى مصر وتونس وسوريا ولبنان وكذا فيرمون Vermont، نعثر على أفضل منظومة تعليمية للعربية، تقدم لغير العرب.

حينما، أجبرتني الحرب العربية ـ الإسرائيلية سنة 1967، على الالتزام سياسيًّا، وإن على بعد، فقد تنبهت قبل كل شيء للحقيقة التالية: لم تستند السياسة على العامية أو العربية المحلية، لغة الجمهور الواسع، بل توخت في أغلب الأحيان الفصحى أو اللغة الصارمة شكليًّا، فأدركتُ على الفور، بأنه يتم تقديم تحليلات سياسية إلى التجمعات واللقاءات، توحي بعمق غير ما هي عليه في واقع الأمر.

اكتشفت بخيبة أمل كبيرة، أن ذلك ينطبق على المقاربات التي تضمنتها رطانة الماركسيين وكذا حركات التحرر خلال الحقبة، تعريفات: الطبقات، المصالح المادية، رأسمال، وكذا الحركة العمالية، فقد نُقلت إلى العربية ووجهت عبر مونولوجات طويلة، ليس إلى الشعب، بل مناضلين آخرين أكثر دراية.

بشكل خاص، فإن رموزًا جماهيرية مثل ياسر عرفات

Twitter: @ketab_n

وجمال عبد الناصر، واللذين جمعتني بهما لقاءات، فقد استثمرا جيدًا اللغة المحلية، بطريقة تفوقت على الماركسيين، مع أن مناضلي هذا التيار كانوا أفضل ثقافة من القائدين. عبد الناصر، تحديدًا، خاطب حشود مناصريه باللهجة المصرية إلى جانب جمل صاخبة من اللغة الفصحى. لكن ياسر عرفات، وبما أن البيان في العربية، يتوقف على المنسوب الدراماتيكي، فقد كانت له شهرة خطيب تحت المعدل: أخطاؤه التلفظية، تلعثمه، ومواراته وتلميحاته غير الموفقة، ستظهر بالنسبة لأذن شخص مطلع، مثل فيل يتجول داخل متجر للخزف الصيني.

تعتبر جامعة الأزهر بالقاهرة، من أقدم معاهد التدريس العالي، في العالم. ثم صارت، مقرًّا للأرثودوكسية الإسلامية، فرئيس هذه الجامعة يمثل السلطة الدينية الأولى في مصر السنية. أيضًا، الأزهر يلقن ـ أساسًا وليس استثناء ـ معرفة إسلامية، جوهرها القرآن وكذا مختلف ما يدخل في إطار مناهج التأويل والقضاء والحديث واللغة والنحو.

إتقان اللغة الكلاسيكية، يتموضع إذن، عند نواة الثقافة الإسلامية في الأزهر، سواء للعرب والمسلمين. القرآن، في نظر المسلمين بمثابة كلام الله الذي أنزل على محمد عبر سلسلة الوحي، بالتالي، لغته مقدسة تتضمن قواعد ونماذج إجبارية بالنسبة لمن تسري عليهم. ولأنها لغة مفارقة، فلا يمكنهم قط نظرًا لإعجازها، التمكن من تقليدها.

ما يقارب ستين سنة، ونحن نستمع إلى الخطباء، ونتعقّب

Twitter: @ketab_n

بشكل دائم تصحيح لغتهم، قدر ما ينتجونه من كلام. عندما ألقيت أول خطاب بالعربية في القاهرة، منذ عقدين من الزمان، اقترب مني أحد أقاربي الشباب بعد الانتهاء كي يخبرني بتذمره، لأني لم أكن فصيحًا: «هل استوعبت ما قلته لك»، سألني، بصوت يضمر معاني الأنين. لقد تركز اهتمامي لحظتها على توضيح بعض المحاور الحساسة سياسيًّا وفلسفيًّا: «نعم، بالتأكيد، أجابني بنبرة الاستخفاف، لا مشكل، بيد أنك لم تكن بليغًا أو خطيبًا ما يكفي». هذه المؤاخذة، ظلت تلاحقني حتى الوقت الحاضر، كلما سعيت إلى مواجهة الجمهور، فأنا عاجز على تقمص صورة الخطيب القوي. أمزج بين تعابير لهجية وكلاسيكية، بطريقة برغماتية، فينتهي ذلك إلى نتائج غير مقنعة. لذلك، صاغوا في حقي ذات مرة، عبارة طريفة، لما شبهوني بشخص يمتلك سيارة رولس رويس Rolls Royce، لكنه يفضل أخرى من نوع فولكزفاكن Volkswagen.

فقط، في غضون عشرة أو خمس عشرة سنة الأخيرة، اكتشفت ما يلي: إن أهم النصوص النثرية العربية، وأرقاها تمحيصًا ودقة، والتي لم يسبق لي أن اطلعت عليها أو سمعت عنها، كتبها روائيون (وليس نقادًا) أمثال «إلياس خوري» و «جمال الغيطاني». أو جاءت من طرف شاعرينا الكبيرين، أدونيس ومحمود درويش: لقد أدرك كل واحد منهما في قصائده الغنائية مستويات موسيقية رفيعة جدًّا، تستهوي عددًا هائلًا من المستمعين، وهم في قمة الافتتان الهائم.

بالنسبة لتلك الأقلام، فالنثر أداة أرسطوطاليسية حادة مثل

Twitter: @ketab_n

شفرة موسى. معرفتهم باللغة هائلة وفطرية جدًّا. مواهبهم غنية كثيرة، بحيث يعبرون ببلاغة ووضوح، دونما حاجة إلى كلمات حشو وإطناب متعب وزخرف لا طائل من ورائه.

في حين أنا الذي لم يستفد من تكوين تحت سقف نظام مدرسي وطني عربي بل «في إطار منظومة كولونيالية»، فيلزمني بذل مجهودات واعية، حتى أخلق جملة عربية كلاسيكية بطريقة صحيحة ومرتبة بشكل معقول، غير أن النتائج ليست دائمًا ذات قيمة طبقًا لمعاني الأناقة.

ينبغي في كل الأحوال، الاعتراف بذلك.

Twitter: @ketab_n

لوي ألتوسير، العبقرية والهذيان: رسائل إلى إيلين[1]

منذ بضعة أيام، اتصلت بي صديقة عبر الهاتف، كي تعبر عن سعادتها. لقد أنهت للتو، قراءة الرسائل التي كتبها الفيلسوف لوي ألتوسير (1918ـ1990) إلى زوجته «إيلين ريتمان» Hélène Rytman. أولى هذه الرسائل، تعود إلى فترة ما بعد الحرب، وتؤرخ للحظة التقاء المفكر الماركسي بعالمة الاجتماع.

أما آخرها، فتشير إلى سنة 1980، حينما قام بخنقها، وبالتالي قتلها، بعد أن أصيب ألتوسير بنوبة جنون.

صدر مؤخرًا، كتاب يتضمن هذه الرسائل، التي لم يسبق لأي أحد أن اطلع عليها. لكن، الصديقة المذكورة أعلاه، التهمته رسالة تلو الرسالة، ممّا جعلها تهمس لي: «الأمر بسيط، إذا بعث لي رجل برسائل كهاته، على امتداد ثلاثين سنة، فأريد حقًّا أن يكتم أنفاسي في نهاية المطاف»!.

دون ملامسة هذه الحدود، ينبغي الاعتراف بأن نصوص

(1) **Le Monde des livres:** 27 mars, 2011.

Twitter: @ketab_n

الرسائل ممتعة. أولًا، هي من توقيع، أحد أكثر المفكرين تأثيرًا خلال النصف الثاني من القرن العشرين، وعصابي ـ اكتئابي من العيار الثقيل. لكنها خاصة تنشد غنائية فتّاكة، مزجت بلا توقف بين الرقة والقساوة: «هل يمكننا الانتشاء بالتدمير؟» يتساءل رامبو. رسالة بعد رسالة مخاطبًا ألتوسير زوجته، سيجيب أخيرًا «نعم».

هذه الجدلية، بين الإبداع والتقويض، أضفت قوة أدبية على رسائل ألتوسير. مع انسياب مداد قلمه، يتم كل شيء كما لو أن إفناء الآخر والذات، يبقى الوسيلة الوحيدة من أجل العمل على تماسك الزوجين. رباط، وقد أضفى عليه ألتوسير صفة حزب، كان بالفعل هشًّا. ألتوسير، الكاثوليكي الراديكالي، صار ماركسيًّا علميًّا، وعانى مبكرًا جدًّا من أولى اضطراباته النفسية. أما، زوجته إيلين فهي يهودية ذات أصول روسية، مناضلة قديمة، طردت من صفوف الحزب الشيوعي لأسباب لم تكشف عنها أبدًا. إيلين، ليست حقًّا بالعنصر المريح: الفيلسوف جون غيتون Jean Guitton (1901ـ1999)، أستاذ ألتوسير وصديقه، وصفها بـ «اللغز المطلق» تشبه الأم تريزا. هكذا، ينصب شغفهما على النصي واللغوي، أكثر من الهاجس الجنسي. رسائل ألتوسير إلى إيلين، تبرز خاصة متعة الورق هاته، ورغبة في خلق الفراغ من أجل ملء الحياة: «أضمك بحنان بين ذراعي، يا رفيقتي الصغيرة النابضة بالحياة». كل شيء قيل أو تقريبًا، منذ الرسالة الأولى، ثُمّ تصير الرغبة قوية كي نقرأ مجموع

Twitter: @ketab_n

الرسائل على ضوء النهاية المأساوية. ودود إلى أبعد حد، وبين الفينة والثانية، ساحر ومفعم بالدعابة، ويتكلم قليلًا عن الفلسفة أو السياسة: جورج مارشيه Marchais «أراد فرض رأيه». الحزب الشيوعي الفرنسي «بدا مرتاحًا» بدعمه الغزو السوفياتي لأفغانستان، ويبقى الأساسي لدى ألتوسير، استفساره عن أخبار إيلين، فيسألها إذا كانت تتقدم خطوات في تأليف كتابها، ويقترح عليها فكرة تخص العنوان ثم يشجعها أكثر فأكثر (نصك محرّر) ويبعث لها بإشارات عملية كي تتمتع بمدينة فينيسيا. غير أن الرسائل في مجملها، يحكمها خاصة إيقاع «الاضطرابات الداخلية» التي تهز وجوده الذاتي: يتحدث ألتوسير بتفصيل عن الحوار مع الطب النفسي وتأثيرات الأدوية المضادة للانهيار العصبي، والصدمات الكهربائية. عندما نقرأه، نشعر بأن أستاذ المدرسة العليا للأساتذة، يتأرجح بين خبل مطلق (أنام الليل جيدًا، لكن النهار بشكل سيىء) ونشاط جامح (الدراجة، البحر، السباحة، الريف...) حسب قدرته، على التحكم في قواه الغامضة، التي يسميها «شياطين». لكن على امتداد الرسائل، سيأخذ انتصار الشياطين، خطًا تصاعديًا. من وجهة النظر هاته، يبدو بأن سنة 1961، شكلت نقطة ترجيحية حيث اشتدت الأعراض، وبدأ نظامه اللغوي في الاختلال، ودخلت الكلمات دوامة الأزمة. هكذا، سيبدع ألتوسير على نحو مدهش، كتابة هذيانية. أحيانًا، تغيب الفواصل عن النداء ومع لحظات أخرى، تصير لغة أساسها اللعب، تحافظ

Twitter: @ketab_n

على طراوة الشفاهي، فاستبق ألتوسير بذلك، رسائل «SMS الحديثة[1] بالموازاة، مع جنون اللغة، سنلاحظ تحولات إيلين في متخيل ألتوسير. هكذا، ستترك الزوجة على الفور، مكانها إلى الصديقة الحميمة وكذا أخت البؤس والرفيقة المضطربة. المحبة التي أظهرها الفيلسوف، أضحت شيئًا فشيئًا غامضة: دون إدراك منه تحول مبدع الرسائل العاطفية إلى كاتب للقسوة. إنها اللحظة، التي سيضاعف فيها ألتوسير الإشارات الخادعة لعشيقاته لا سيّما أكثرهن شهرة «la môme franca» التي تحدث عنها إلى إيلين بنوع من الإعجاب: «مع فرانكا جيدًا (...). ومع «لابامبا» فإني أهيم، أما مع «نونا» فأوه!...». لحظة أيضًا، سينتقل فيها من مجابهة الحبّ إلى الوقوع في شركه: «تذكري، وإن كنت شرسًا، فإني أضمر لك محبة كبيرة»، يكتب ألتوسير، وهو مقتنع بأنه «أساء إليها كثيرًا طيلة 35 سنة»، لذلك يتعهد لإيلين بأنه سيتوقف عن استفزازاته، وسيفعل كل ما من شأنه أن يصلح الأمور بينهما. لكن ما يرتسم جانبيًا في الأفق، هو بالأحرى «الانتشاء بالفراغ» بمعنى تلك القفزة الكبرى في المجهول، التي أقدم عليها الفيلسوف يوم 16 نوفمبر/تشرين الثاني 1980. اثنتا عشرة سنة، قبل ذلك، كتب ألتوسير إلى «نصفه الثاني»: «خلال كل الصباحات، يتكرر هذا الأمر

(1) «Moteur et Pneu. mékédéluj!». «si t'arriv avant moâ cessoir je te fai la biz».

Twitter: @ketab_n

بشكل متماثل: أشعر بأني أستيقظ في غرفة وقد بتر نصفي الثاني (على الجانب، وفي الأسفل، يوجد الشارع!) ويفتقد لمنتهى، أي الفراغ».

والحال أن الهوس بالفراغ، حاضر جدًّا كذلك في العمل النظري لألتوسير، المهيمن حتى اليوم، على الحياة الفكرية سواء داخل فرنسا أو خارجها، ما دام يشكل مرجعية لرموز مختلفة مثل: آلان باديو، جاك رانسيير، بيير ماشري، أو بيرنار هنري ليفي. مشروع ملغز دائمًا، وإشكالي، بحيث يجد كل مفهوم نفسه على الفور، ممتلئًا بالألغام داخليًّا، وقابلًا دائمًا للانهيار. لهذا السبب، توجب «رسائل إلى إيلين» بحمولة جديدة إحياء السؤال القديم: إذا كان الوجهان المؤسّسان لألتوسير: صاحب النظرية ثم المجنون، يمثلان واحدًا دون أدنى تناقض أو أية قطيعة؟ فنظن بأن ما يجمع بينهما عندما سننهي قراءة الرسائل،يكمن في الانذهال بالتورط أي هذا الاعتقاد المؤلم شعريًّا: وحده تقويض الصلات، يؤدي إلى بناء تحالف آخر، هكذا يبقى الإفناء، الفعل الوحيد للإبداع، وآخر دليل عن الحبّ.

II ـ تقرير مزدوج للتحليل النفسي:

تجربة الاكتئاب، أساسية في حياة وعمل ألتوسير. بالتالي، فلا التحليل النفسي وعشق النساء والتطلع إلى الثورة وكذا العبقرية النظرية، باستطاعتها استيعاب حدود هذه الثنائية الدائمة (الإحباط/التمجيد) التي ألهمت كثيرًا جيل سنوات 1965 ـ 1975.

Twitter: @ketab_n

لذا، فإصدار كتاب «رسائل إلى إيلين ريتمان»، زوجته، بعد مرور 12 سنة، على رسائل ألتوسير إلى «فرانكا مادونيا» عشيقته الإيطالية، يعطي إمكانية فهم كيف أن الفيلسوف لم يتوقف عن التأرجح بين نموذجين للنساء: الأول مذنب ومنهك نفسيًّا، تمثله إيلين والتي تعكس صورة خيالية عن أخته «جورجيت» Georgette، كموضوع لشفقة حاضنة وطفولية. أما النموذج الثاني، فهو غامض ومتوهج، تجسده «الأجنبية» التي بقيت باستمرار نصف خفية، وأحيانًا تحمل وتكشف عن هوية إيطالية متوقدة. علاقة ألتوسير بإيلين، وقد اتخذت أكثر مسارًا جنونيًّا، تشبه علاقة أخرى جد عاطفية، إنه الانزواء الذي وجد دلالته من خلال ثلاثة فضاءات: الحزب الشيوعي الفرنسي، المدرسة العليا للأساتذة وكذا ملجأ العُصابيين.

منذ 1938، عانى ألتوسير من حالات عصابية، تنتابه كل سنة فترة شهر فبراير/شباط. لذلك، عاش أكثر من عشرين مرة الحكاية الميثولوجية ساغة «Saga» التي تتوخى احتجاز المريض بهدف إخضاعه للعلاج النفساني. وضع وصفه جيدًا، تلميذه ميشيل فوكو: مهدئات الأعصاب، الصدمات الكهربائية، وأملاح الليتيوم التي تنضاف إلى مختلف العلاجات النفسانية المتصفة أيضًا بانشطار الأنا. في هذا الإطار، نسج ألتوسير مع التحليل النفسي علاقة مزدوجة، لما فصل دائمًا بين وضعيته كخاضع للتحليل والعلاج النفسي، ثم ألتوسير مفكر الفرويدية: من جهة يصف ذاته بالضحية، المجبر على الامتثال لعلاج كيميائي، فأبدى ضده تمردًا مستمرًّا. ومن ناحية ثانية، أراد أن

Twitter: @ketab_n

يكون مدافعًا عن قراءة لفرويد (تلك التي جاء بها جاك لاكان)، كي يدحض المبادئ العلاجية التي خضع لها هو نفسه.

مع نهاية سنة 1963، واجهت لاكان صعوبة كبيرة في علاقاته مع جمعية التحليل النفسي الفرنسي والدولية. إذن، وقد أصابه الانهيار وتراوده فكرة الانتحار، حدث اللقاء بينه وبين ألتوسير الذي لعب معه بشكل واعٍ، دور محلّل نفساني «مدافع» ودعاه كي يحاضر بالمدرسة العليا للأساتذة، فهيأ له بذلك منبرًا بجوار جيل جديد من الطلبة /الأساتذة، استقطب من بينهم مجموعة أنصار آخرين. كما، فهم لاكان على الفور دلالة هذه اللعبة (طبيب الطبيب) ممّا جعله يفكر في أن يقترح عليه، اصطحابه إلى أريكته، مفرقًا هو أيضًا العمل النظري عن العلاج. قبله، سبق لألتوسير أن اختار طبيبه. يتعلق الأمر بـ روني دياتكين (1918 ـ 1998)، معالج قديم لـ لاكان ومشرف كذلك على حالة جورجيت أخت ألتوسير، المصابة أيضًا منذ فترة طويلة بالأعراض المرضية نفسها.

سنة 1964، كتب ألتوسير مقالة قوية في مجلة (النقد الجديد) عبر بين سطورها عن تقدير مؤثر لـ«لاكان»، وتوجه بانتقاد لمواقف الحزب الشيوعي الفرنسي القديمة، التي طعنت في شرعية التحليل النفسي سنة 1949 بناء على تهمة «العلم البورجوازي».

بعد مرور سنة، بادر «دياتكين» إلى أن يأخذ على عاتقه حالة «إيلين التي أصيبت بانهيار عصبي، وطردها الحزب الشيوعي الفرنسي، كما تجر وراءها طفولة قاسية». اهتم أيضًا،

Twitter: @ketab_n

بالمتابعة النفسانية لألتوسير، الذي أسر بدوره «دياتكين» تحت سطوة قدراته: عشق الفيلسوف لعبة زواج نفس أفراد القبيلة، بأن ضم إلى دائرته النفسية كل أقربائه، لا سيّما قرينته وأصدقائه وتلامذته وعاشقاته. في خضم ذلك، قام ألتوسير بدور المحلل النفسي لإيلين، يشرح لها «حالتها» ويوجهها نحو فهم «أوديبها القديم» حسب منهجية ميلاني كلين Melanie Klein. ثم صنع الأمر نفسه مع عشيقته «فرانكا»، بأن عرض عليها معطيات «إيلين»، وأخيرًا مع «دياتكين»، بحيث لقنه دروسًا في اللاكانية: «لماذا تطرحون جانبًا كتابات لاكان؟ إن ذلك يمثل خطأ».

إبان العلاج الطويل الأمد، بقي ألتوسير يشغل موقع «محلل المحلل» أو «أب الأب»، ممّا قاده نحو انصهار زاخم ومستساغ بإيلين، وتبلور مرعب لكل أشكال العلاجات الطبية. مع نهاية هذه المرحلة، بعد إفراط كل واحد منهما في المخدرات والكحول واليأس، بل وفكرا في الانتحار معًا أو حريق يلتهم المدرسة العُليا، وضع ألتوسير حدًّا لحياة «إيلين»، ظنًّا منه لحظتها بأنه يدلّك عنقها كما اعتاد معها. إيلين، من شكلت «نقطته الثابتة الوحيدة، وسط بحر بلا أفق»: حدثت واقعة الموت يوم 16 نوڤمبر/تشرين الثاني 1980.

أُودع ألتوسير، محتجز «سانت ـ أن»، لكنه استفاد من الفصل 64 للقانون الجنائي الذي ينص على ما يلي: «لا جريمة ولا جنحة، إذا كان المتهم يعاني، حالة عته وقت ارتكابه الفعل».

Twitter: @ketab_n

ما إن ذاع خبر القتل وطيلة سنوات، أصبح ألتوسير عنوان حملة صحافية مكثفة، تجمع بين اتهامات واهية، وتأويلات نفسية افتقدت للجدية مثل: «مدرسة عُليا، غير عادية»، «توقف إنك تخنقني»[1] وصف البعض ألتوسير، بأنه مجرم ينتمي لأسوأ الأنواع، معبّرين عن امتعاضهم لقتله زوجته اليهودية. ولدواعي ماركسيته، اعتُبر مسؤولًا عن جرائم الغولاغ وضحايا الثورة الثقافية الصينية. أما مناصرو الحركة النسائية، فقد استنكروا هذه اللامبالاة بالضحية. وجهت أيضًا إلى ألتوسير تهمة معاداة السامية، وصاحب نزعة ذكورية، بعقائدية ستالينية.

سنة 1985، قارنته إحدى الصحافيات، بمجرم ياباني اسمه «إيسي ساغوا» «Issei Sagawa»، قتل فتاة ثم افترسها بعد أن قطع جسدها. ألتوسير ركن إلى الصمت، وهو مدرك لحالته الشبحية أو الكائن الميت/الحي نتيجة الحادث، ثم قرر أخيرًا كتابة سيرته الذاتية. فترك لنا نصًا بديعًا متفردًا في حوليات الفلسفة، يروي وقائع طفولته كما وصف بدقة المشهد الشهير ومقدماته وكذا نتائجه، وهي السيرة التي ظهرت بعد وفاته تحت عنوان: [المستقبل يدوم طويلًا].

يوم 22 أكتوبر/تشرين الأول 1990، وقف جاك ديريدا أمام نعش ألتوسير، كي يرثي صديقه، وكذا أهم فيلسوف في النصف الثاني من القرن العشرين، كما تصوره دائمًا.

(1) المقصود هنا، آخر الكلمات التي تلفظت بها زوجة ألتوسير.

Twitter: @ketab_n

لأني ارتبطت بعلاقة صداقة طويلة مع ألتوسير ـ تشير إليزابيت رودينسكو ـ امتدت لعشرين سنة أدركت في جميع الأحوال، أن تفسيره لما قام به يبقى أكثر حقيقة من تأويلات شتى، اكتست لباسًا غريبًا. لقد قتل من أحبّ، والتي توخت الموت كثيرًا إلى درجة أنها رفضت الدفاع عن نفسها. تلك إذن طريقته لتحقيق رغبتها، ثم بعد ذلك أن يخبر بالقلم وللأبد، المحاكمة لم تستطع عدالة الأفراد اتخاذ إجراءات بصددها.

III ـ [مدرّس استثنائي، وفيلسوف صاحب مكانة دائمة].

سواء كان الأمر من ثمرات، الانشغال بالسير الذاتية للأموات، أو على العكس بمثابة مؤشر عن فكر يساري يعاني صعوبة التجديد النظري، فالاهتمام الحالي بشخص لوي ألتوسير وفي نطاق أقل مشروعه، يبدو غريبًا شيئًا ما. إن صاحب كتاب «Pour marx» أصدر قليلًا من الأعمال، اللهم سلسلة مقالات تمَّ تجميعها بعد رحيله وحملت إلى القارئ العديد من الدراسات، لم يسبق لألتوسير أن كشف عنها. سياق، سيغذي موجة منتظمة تروم التنقيب ثانية.

هذا التناول المابعدي، يبقى مثقلًا بدين مشهد وازن: ارتداد الماركسية في فرنسا سنوات 1970، حيث ظل ألتوسير أيقونتها الفكرية. وإحدى الأسئلة، التي تطرحها مجموع المؤلفات التي تنكب حاليًّا على فكره، تركز على إبراز مسؤولية ألتوسير في هذا الانحطاط، تقول: هل حتمت فلسفته المآل منذ البداية، أم أصابها التهميش نتيجة انهيار المنظومة الشيوعية؟

Twitter: @ketab_n

عندما نلقي نظرة سريعة، على الكتب الصادرة خلال حياة ألتوسير، سنلاحظ إلى أي حد أضحى أسلوبه الفلسفي عتيقًا، مقارنة مع متون معاصريه مثل جيل دولوز، ميشيل فوكو، وزميله جاك ديريدا أو «كيمان» Caïman (لقب، معيد الفلسفة في المدرسة العليا للأساتذة).

على أية حال، استمر تأثيره خالدًا، لأن هذا المدرس الرائع اقترنت كل حياته بمهمة استراتيجية توخت أساسًا تكوين أجيال فلسفية في المدرسة العُليا، وتهيئهم للأستاذية. هكذا، أدت محاضراته الشهيرة لسنة 1960 إلى اتساع حلقة طلبته، المباشرين وغير المباشرين، الأوفياء والمتمردين. ألتوسير فيلسوف ومهرب أيضًا، لأنه امتلك موهبة استعارة عدد كبير من المفاهيم، دمجها في نسق تأمله الخاص للماركسية. إدانته لـ«النزعة الإنسانية»، التي شكلت فلسفة شبه رسمية للحزب الشيوعي الفرنسي سنوات الستينيات ـ يعتبر روجي غارودي مفكرها الكبير ـ أحالتنا على البنيوية وكذا هيدغر. العديد، من المفاهيم الفرويدية وجدت طريقها إلى خطاب ألتوسير مثل «المحدّد التضافري» أو «العلاج الموضعي». لكن مشروعه، اندرج أساسًا في إطار الصراع ضد الأرثودوكسيين من مختلف الجهات والذين حرفوا الماركسية إلى عقيدة علموية. لقد صارع ضد أي نزوع نحو التحجر، بإلحاحه على دينامية القطيعة التي تجسد في نظره الماركسية (قياسًا للتقليد الذي رسخته الهيغيلية) وتعميق مفهوم الإيديولوجيا. يعتقد ألتوسير، بأن الأخيرة، وبعيدًا عن كونها محض انعكاس لأنماط الإنتاج، لها في

Twitter: @ketab_n

المقابل مفعول على العالم المجتمعي، ثم لا يختزل كل شيء في «نهاية المطاف» إلى الاقتصاد، ممّا يبرر في نظره ممارسة الفلسفة.

أما، مفهومه عن «الأجهزة الإيديولوجية للدولة»، والذي إليه يعود الفضل في بناء كثير من التأملات حول مسرح بريخت أو منجزات مخرج مثل جيورجيو ستريلر Giorgio Strehler، فيظهر ألتوسير من خلاله كيف أن «البنى الفوقية» الثقافية يمكنها تغيير «البنية التحتية» الاقتصادية. هذا الجانب من العمل، يمثل رافدًا نوعيًّا للماركسية الثقافية خلال القرن العشرين، يبقى بكل تأكيد، الأقل تأثرًا بالتجاوز، بحيث يخلق إمكانية أن نقرأ دائمًا وندرس ألتوسير، سواء في فرنسا أو إيطاليا بل وداخل الجامعات الأنكلوساكسونية.

لم يكن، أيضًا ألتوسير أقل حماسة كي يتصدى لمن أفرطوا في دفع ماركس نحو الفلسفة. الألتوسيرية، باعتبارها آخر المدافعين عن الماركسية، سلمت بوجود «قطيعة»، من جهة بين نصوص ماركس الشاب المتشبع لحظتها بالمثالية الفلسفية. ومن جهة ثانية كتاب «رأسمال». لكن العلم المقصود هنا، ليس «العلم البروليتاري» المتداول في المعاهد الماركسية ـ اللينينية، ما دام ألتوسير تمكن من الاستيعاب الجيد للإبستمولوجية الفرنسية السائدة خلال حقبته، ولاسيّما كتابات غاستون باشلار (1884 ـ 1962)، التي ألهمته فكرة المعرفة القائمة على القطيعة، أي على منوال منجز غاليلي عندما حقق انتقالًا من نظرية مركزية الأرض، إلى أن الشمس هي المحور. إذن، ما إن ندرك الماركسية، كتغير

Twitter: @ketab_n

للمنظور، سيواصل ألتوسير حديثه إلينا. لكنه لم يقترح قط بديلًا عن الماركسية الأرثودوكسية، ممّا أدى حسب البعض، إلى ثغرة كانت قاتلة بالنسبة للماركسية نفسها. ويبقى إذن رهان الاكتشافات الخلاقة لفيلسوف شارع أولم Ulm مناهضة الرأسمالية وفق «علم مضبوط».

IV ـ حوار مع بيرنار سيشير Bernard Sichère: وصف للروابط بين فكر المنظّر الماركسي ومصير المناضلين الماويين في فرنسا.

1 ـ أشرتم في عملكم [Ce grand soleil qui ne meurt pas] إلى «الشغف» السياسي الذي جسدته الماوية الفرنسية. ومن بين جميع رموز هذه الحركة، سنلاحظ بأن أغلبها تأثر بألتوسير، كيف تجلّى الأمر؟

نعم لعب، ألتوسير دورًا حاسمًا في توجيه كثير من المفكرين الشباب، كي ينخرطوا في النضال. لقد أبان بداية على الأقل، عن إرادة توفق بين المواقف النظرية والالتزام الواقعي. كشف منظوره هذا، عن اختلاف كبير مع لغة الحزب الشيوعي الفرنسي. في الوقت نفسه، راوده شعور غير مستقر: اعتقاده بإمكانية تحريك الأشياء من داخل الحزب الشيوعي الفرنسي. بشكل سريع، أظهرت التجربة ضرورة طرح التساؤل بخصوص مسار جد رجعي لهذا الحزب العتيق.

2 ـ على الرغم من هوسهم بالأفق الثوري، فقد مر شباب «الحرس الأحمر» بأحداث ماي/أيار 1968، دون

Twitter: @ketab_n

اكتراث بما تنطوي عليه الثورة من جديد. في رأيكم، هل يرتبط الإخفاق، بدرس ألتوسير؟

سؤالكم يلامس جوهر ماي/أيار 1968، قناعتي، أن ثورات 1968 الجميلة جدًّا والخلاقة، لم تلتقط إلّا آخر الموجة التي سادت الولايات المتحدة الأميركية سنوات 1960، وسعيها لتعبئة الشباب بهدف أن يرسي في العمق صلة أخرى مع العالم والحياة والحبّ، بحيث تعلق الأمر، في الآن ذاته بثورة وجودية وسياسية وفنية. لكن يبدو، بأن مفهومًا دوغماطيقيًّا وعقائديًّا للسياسة، أحال بين الماويين والتماهي مع كنه الحركة، وقد عكست بوضوح لغة ألتوسير أثر هذا الانغلاق. خلال تلك الحقبة، اتّجه اهتمامي أكثر إلى جاك لاكان مقارنة مع ألتوسير، أظن لسبب دقيق: كان البناء المفهومي حاضرًا كليًّا عند لاكان، ثم توفر لديه في الوقت ذاته ثقل الواقع، الذي تنطوي عليه معاناة العصابي وأضرار الذهاني. فبغير، هذا الوزن للجسد والعنف والانفعال الأولي، تبقى السياسة مجرّد وهم أو دجل.

3 ـ بعد قطيعة أغلب رموز هذه الحركة مع الماوية، انقلبوا نحو المبتغى الديني. أنتم أنفسكم تحدثتم عن «إعادة اللقيا بالمنبع المسيحي» فهل تلمّس ألتوسير، الذي تبلورت بداياته النضالية ضمن الشباب المسيحي، طريق التحول؟

يمتلك ألتوسير ماضيًا مسيحيًّا، بالتالي لا يمكنه أن يبقى غير مبال. وسيزداد الأمر تأكيدًا، إذ علمنا بحضور المفكر

Twitter: @ketab_n

المسيحي «جون غيتون» إلى جواره خلال فترات متأخرة. إن تاريخ الرجل، تؤسسه مجموعة مستويات تمارس حسب اللحظات، أدوارًا يختلف زخمها. لقد تساءلت في كل الأحوال عن نزوع العديد من المناضلين الماويين، وجهة الدين، لكن ليس بالمعنى الضيق للمفهوم، بل أقصد التجربة الروحية التي مثلت محور التقليد الواحدي في الغرب: الحكمة العبرية لدى ليني ليفي، والروحانية الإسلامية عند كريستيان جامبي، وبالنسبة لموقفي الشخصي آمنت بقوة التيولوجية المسيحية، بحيث أراها نقيضًا للانكفاء والانطواء: إحياءً للفكر، انطلاقًا ممّا اعتبره، استنادًا على ذخيرة اسمها الفكر المسيحي للتاريخ ظاهريًّا، لم يتجاوب ألتوسير مع هذا المنحى، ورفض عمومًا تفحصه، ولم يكن له الوقت أو الأدوات كي يجتاز المنافذ المسدودة التي ارتطم بها فكره الخاص. لا تضمر الدعوة إلى الفكر الديني، تخليًا عن العقل، لكن الإيمان بوجود طريقة أخرى لتأمل التاريخ، غير ماركسية النصوص التي بقي ألتوسير وفيًّا لها بإصرار، وهي في حقيقة الأمر، رؤية مختزلة جدًّا مقارنة مع ماهية الإنسان والوجود والحرية.

4 ـ في نتاجه وكذا حياته، تأرجح ألتوسير ذهابًا وإيابًا بشكل ملغّز بين الخطاب والهذيان، ثم النظرية والجنون. بحسبكم أيشكل هذا المسار أيضًا جزءًا من إرث «ماو»؟

خلال تلك الفترة، جسد ألتوسير بامتياز هذا التردّد بين العقلانية المفرطة، وكذا احتمالية الجنون المهددة. الهذيان،

Twitter: @ketab_n

يقوم حيث العقل النظري، يرفض معرفة أي شيء عن أهواء الجسد التي تنتقم بالضرورة. مع ذلك ينبغي الحذر من التعميم. إذا ركزت على أن أستعيد ثانية، علاقتي مع مجلة «تيل كيل» Tel Quel فلأن الالتزام أدبيًا وفنيًا يستبعد كل إنكار لهذا الجانب المزعج جدًا، ويقترح على النقيض العمل على تعريته من أجل طرده والإفصاح عن ذاته عبر الضحك والسخرية. والتماهي الجنوني بالماوية، توخى أساسًا إخضاع الفن والأدب إلى معايير الإيديولوجية السياسية، والحال أن التجربة الشعرية، والأدبية، تتنافى مع هذا النوع من التدبير البوليسي، بحيث أن تكون روايات آلان باديو ضعيفة، يعكس إشارة لا تخطئ أبدًا.

V ـ مقاطـع:

* رسالة 30 شتنبر/سبتمبر/أيلول 1950: «تحية، صغيرتي. في هاته اللحظة، أقبّلك وأنا أخبرك بالأمر، بعد أن قبّلتك سرًا لفترة طويلة. ألتمس منك فضل أن تتحملي بصبر الأيام التي تباعد بيننا، بمشاهدة أفلام وقراءة كتب توفر لك زادًا لأبحاثك. تشجعي صديقتي، مع القلب لا نعاني عزلة قاسية. أحضنك بحب جارف. حنان قوي، لا يبدو بأنه قد يتخذ منحى يضجرك، أو بالأحرى حسب قلبي...».

* **رسالة 25 يوليو/تموز 1961:**

Twitter: @ketab_n

«معذبة قلبي، عندما أقرأ نصك، أشعر أيضًا بتأثير، يزيد عمّا يقدمه لحظة الإصغاء إليه. إنه حقًّا، مدهش متين، جلي، دقيق، عميق، يزخر بخلفيات (مثل مناظر حقيقية)، وبنشاط شبيه، بما تظهره الحياة لما تكون ناجحة. أنت دائمًا في هذه المناسبات (النادرة جدًّا)، تعبِّرين نظريًّا عن إبداع مفهومي عميق، يمثل دائمًا بالنسبة إليَّ، تجلّ لك. لكن أيضًا، بخصوص ما تقولين وتطمحين إليه. اكتشاف: بالتالي، أنا محتجز تمامًا، وأعبر بكلمات الانفعال: مدهش، يا إلهي، رائع جدًّا».

* **رسالة أبريل/ نيسان 1980: الثلاثاء، منتصف الليل:**

«سكين يخترق فؤادي: مضطرب، لأني أخبرتك بكل ذلك، أردت، أن أخفي عنك تأثيرات الأمر، لكن بدا لي بأنه من الأفضل إحاطتك علمًا، بما يسكنني كهاجس: هكذا، أنا، خلال الفترة الحالية. لكن، أحكيه إليك بكيفية، عوض أن تسمح بأخذ مسافة، فقد عبرت بالأحرى عن نفسها بقدر وقوعي في شباك قوة أعتى مني. حقًّا، خلف بعض التمظهرات التي أكشف عنها وأعرضها وأتماهى معها، تكمن حاليًّا قوة تهزمني كثيرًا...».

Twitter: @ketab_n

غوغان قاطع أذن ڤان غوغ[1]

إصدار جديد تضمّن أربعمائة صفحة، لباحثين جامعيين من ألمانيا، حاولا البرهنة على أن ڤان غوغ Van Gogh لم يعمل على تشويه ذاته. تأويل، سيغير أطروحات جورج باطاي وأنطوان أرتو، حول الجنون كموضوعة جوهرية للفن الحديث. لقد، عاد الجامعيان الألمانيان إلى النزاع الشهير في تاريخ الفن. وسيكون، غوغان هو من قام بقطع أذن ڤان غوغ.

صبيحة يوم 24 دجنبر/ديسمبر/كانون الأول 1888، تدخلت شرطة «Arles» لإنقاذ رجل ملطخ وجهه بالدم، والتوجه به إلى المستشفى. فأثناء أزمة، قام ڤان غوغ بقطع أذنه اليسرى، (أو اليمنى مع رسومه الذاتية في مرآة لاحقة) بواسطة شفرة. لقد مثل إقدام ڤان غوغ على تشويه ذاته، إشارة على تدهور صحته العقلية وخطوة سابقة عن انتحاره سبعة أشهر بعد ذلك. تلك إذن، هي الأطروحة السائدة.

سنوات الثلاثينيات، رأى جورج باطاي وأنطوان أرتو في واقعة كهاته حمولة قربانية وهما يضفيان قيمة على الجنون داخل مسار الفن الحديث. كما ساهمت السينما في تحويل

(1) **Le Figaro:** Lundi, 1 Mai, 2009, p 35.

Twitter: @ketab_n

هذا الحدث المؤلم الذي وقع عشية احتفالات نويل إلى لحظة تعبدية ومفصلية في تاريخ الفن. مع فيلم «Luste for life» الذي ظهر سنة 1956، فإن «فانسونت مينيلي» «Veincente Minnelli» لم يكشف عن الواقعة، لكن بالتأكيد، كيرك دوغلاس (Kirk Douglas) قام بارتكابها.

حقًّا، ليس هناك إجماع بين من استغرقهم تأمل المصادر القليلة لما وقع تلك الليلة. والكتاب، الصادر مؤخرًا بألمانيا، سيفاقم درجة الشك. هكذا، ووفق الرواية الجديدة التي كشف عنها مؤلفا العمل «هانس كوفمان» (Hans Kaufmann) و «ريتا ويلدغانس» «Rita Wildegans»، وهما جامعيان من مدينة هامبورغ، فقد باغت غوغان ڤان غوغ بأن وجه له ضربة سيف، لحظة نزاعهما الشهير. بحيث كان غوغان خبيرًا جدًّا بالمسايفة وأستاذًا في الأسلحة المدنية. حماية لصديقة، تكتم ڤان غوغ عن الأمر. ممّا يفسر، عودة غوغان سريعًا إلى باريس،بعد أن بدا متماسكًا أمام الشرطة التي استجوبته لفترة قصيرة. أما ڤان غوغ فقد انهارت قوته وربما انتهت طموحاته....

ثم تطورت محاولة «الخبيث» و«المتعجرف». فقد أسرع غوغان هاربًا بعد وقوع الفعل المأساوي. يُفترض، بأنه دفع ڤان غوغ نحو الوراء، ثم ألقى بسيفه الحاد والدقيق وسط نهر الرون le Rhone، بحيث لم يتم العثور عليه قط. يكتب، «هانس كوفمان»: «الأكيد، هو أن الرواية المعتمدة تستند بالأخص أولًا وأخيرًا، على ذكريات غوغان التي ظهرت سنة 1903» وبحسبها، فإن مصدر النزاع يعود إلى قضايا فنية. فقد، حلّ غوغان ضيفًا

Twitter: @ketab_n

عند ڤان غوغ، بمنزل هذا الأخير، الأصفر، المتواجد بساحة لامارتين (Lamartine) (تهدم أثناء الحرب العالمية الثانية). فوضعا أولى مشاريعهما المشتركة، لكن سيتحول الطموح إلى نزاع وتوتر. سيرفض، مثلًا ڤان غوغ التعديل الذي صنعه غوغان للوحته المسماة: L'allée des Alyscamps. بحيث، رسمها على مسند من نبتة الجوتة La jute مثلما كان يلتمس. في حين، لم يكن ڤان غوغ معتادًا على الأمر.

I ـ ندم القاتل في قبره؟

بخصوص أي شيء اندلعت شرارة الغضب الأولى. ثمَّ مرة ثانية، في محترفهما المشترك ليلة يوم 23 دجنبر/ديسمبر/كانون الأول 1888، فلأن أحدهما يدافع عن إمكانية الإبداع انطلاقًا من هواجسه الذاتية، بينما الثاني يلح على مبدأ الطبيعة. هدد غوغان بالرحيل. في حين، سيحس ڤان غوغ بانهيار كلي لأحلامه والتي سعى من خلالها، أن يخلق ثانية تحت شمس الجنوب، انتقالًا جديدًا نحو بئر طبيعية. التقط غوغان سلاحه وخرج مهرولًا اتّجاه فندق حيث سيقضي ليلته. أما، ڤان غوغ، فسيقوم مرة واحدة فقط بعملية تشريح، ذلك أنه حوالي الساعة الحادية عشرة والنصف ليلًا، سيلف أذنه المبتورة بين ثنايا قطعة جريدة وسيعهد بها إلى عاهرة يعرفها، بعدها عاد إلى منزله كي ينام.

شيء غير قابل للتصديق أو مستبعد الحدوث؟ كيفما كان الأمر، فقد عثرت عليه الشرطة صبيحة اليوم التالي بعد اتصال

Twitter: @ketab_n

من جيران بيت التسامح، ممددًا فوق سريره، فاقدًا للوعي، ومتخضّبًا بالدماء. عمل المؤلفان، على استرجاع تقرير الشرطة، وما أوردته الصحافة المحلية، ثم انتقلا إلى معاينة التفاصيل والشهادات التي تم تجميعها للأسف بعد مرور الواقعة، بحيث أوجدت تعليلًا مبتذلًا. حيث تعلق الأمر، فقط بقضية شجار حول امرأة اسمها راكيل Rachel، تمت ملاحقتها إلى غاية بيت بغاء يتموضع عن بعد 300 متر. وقد تصوروا، بأنه إذا كان أحدهما مبتدئًا بالتحريض، فلا بدَّ أن ردود فعل الثاني قد تحدث ضررًا.

لقد عاش غوغان مدة طويلة، تحت سياط ضمير معذب. ثم، سيرحل إلى هايتي فترة قليلة، بعد وفاة صديقه ڤان غوغ والذي لم يشاهده قط منذ ليلة الحادث. سنة 1901، رسم عبّاد الشمس على كرسي بذراعين. ممّا يعني، إشارة ضمنية عن الإخلاص والتقدير! في قلب اللوحة، تبدو الوردة مثل عين تشد المشاهد. وهو في قبره، يعيش القاتل عذابًا للضمير.

في متحف ڤان غوغ للعلوم الطبيعية بأمستردام، يدافع لوي فان تيلبورغ (Louis van Tilborgh) المهتم أكثر بالبحث العلمي، قياسًا للرسم، عن أطروحة التشويه الذاتي. أما في مدينة «بال» (Bâle) فيقام معرض كبير بخصوص المشاهد الطبيعية التي تركها ڤان غوغ، وسيصل إليها يوم 17 يونيو/ حزيران «هانس كوفمان (Hans Kaufmann) و «ريتا ويلديغانس» (Rita Wildegans) للدفاع عن تأويلهما الجديد. أما المراقبة، «نينا زيمر» (Nina Zimmer)، فهي تلطف شيئًا

Twitter: @ketab_n

ما، بقولها: «ربما الكل على صواب، لكن يبدو أيضًا بأن كل الفرضيات محايدة وتفتقد للمبررات».

II ـ هانس كوفمان: «غوغان، اختلق نظرية التشويه الذاتي».

حسب المؤرخ، فقد التزم الفنانان بـ «ميثاق الصمت» بعد المأساة:

1 ـ ما الذي يجعلكم تعتقدون بأن غوغان هو المعتدي؟

تنطوي الرواية المتداولة على ادعاءات دون دليل، بحيث تضمنت تناقضات وحيثيات مستبعدة الحدوث. فلا نتوفر، على شاهد مستقل أو تحقيق رسمي. فلم يكن غوغان حاضرًا وهو يدعي مسألة تشويه ڤان غوغ لذاته، في الآن نفسه لم يكشف الفنان الهولندي عن أي شيء. لكن، سلوكه بعد ذلك، وكذا كثير من معطيات القضية تبين بأنها تخفي الحقيقة.

2 ـ كيف ترون الوقائع؟

يتخلص من ڤان غوغ الذي كان يتوسل إليه بالبقاء، فإن غوغان وهو يتأهب لمغادرة منزل التسامح الذي كان يتردّد عليه، لوح بسلاحه اتّجاه المزعج. ممّا أدى، إلى بتر أذن ڤان غوغ اليسرى. يصعب الجزم، بأن ذلك مجرّد حادث غير مقصود، أم العكس، كانت وراءه نية مبيتة. وضعية حتمت على المحركين الأساسيين للقضية التزام الصمت. فقد، اختفى غوغان تاركًا صديقهُ. وفي اليوم الموالي، عملت الشرطة على استنطاقه. هنا اختلق نظرية التشويه الذاتي.

Twitter: @ketab_n

3 ـ على أية حال، لقد كان ڤان غوغ منكسرًا. ما سبب معاناته؟

جاء في مذكرات غوغان ما يلي: «إبان الأيام الأخيرة من فترة إقامتي، أصبح فانسان Vincentعنيفًا للغاية ثم صاخبًا. بعد حين يركن إلى الصمت». إنها الأعراض النموذجية لما يصطلح عليه بـ: (La porphyrie aiguë intermittente)[1] (AIP) تظليل بالرسم (الرصاص، الكدميوم، والزرنيخ).

4 ـ لماذا حميمية من هذا القبيل؟

لقد سعى ڤان غوغ إجبار غوغان على أن يبدآ معًا حياتهما بشكل مشترك، كان يضمر له كثيرًا من الحبّ.

5 ـ لو تم تأكيد تفسيركم لحظتها، ماذا يمكن أن يتغيّر؟

بالنسبة لغوغان، الإدانة وحتمًا السجن. بالطبع، فإن ڤان غوغ لن يرحل إلى المستشفى، كما أن الشرطة لن تصدر أوامرها بإغلاق منزله الصغير، المميز بلونه الأصفر، والذي هيأه بعناية كبيرة وطموحات كثيرة. ربما جسد حلمه على أرض الواقع، بتأسيس جماعة تعمل وتعيش بشكل مشترك. كما أن مرضه لن يتفاقم، والذي قاده إلى الانتحار.

(1) مرض يمس بشكل خاص أحشاء الفرد وجهازه العصبي، فتسهل إصابته بسرطان الكبد وكذا القصور الكلوي. من بين أعراضه الكثيرة، قد نحدد منها النفسية والتي تتجلى في شكل: هستيريا، انهيار، فوبيا، عصاب، هذيان، وغيبوبة... (المترجم).

Twitter: @ketab_n

لوكليزيو:
سالينجر، الروائي الخالد[1]

يصعب أن أحدّد، ما شكله بالنسبة لجيلي في فرنسا نهاية سنوات 1950، اكتشاف «جيروم دافيد سالينجر». نتكلم غالبًا عن أي شيء، عمله «كتاب التعبد»، أكره إحالة كهاته، وأظن بأن «سالينجر» لن يحبها قط، لانطوائها على الاجتماعي وكذا ما هو سخيف، يجعلانها في تعارض مطلق مع جل ما عاشه وكتبه. مع ذلك، فإن ذوقنا (شعوري) نحوه، كان لاعقلانيًا واعتياديًا، بل، إجلالًا ونوعًا من الانتباه الطقوسي.

ينبغي أن ندرك ماهية الأدب خلال تلك الحقبة، في فرنسا وأميركا الشمالية. إذا خرجنا من أقصى جاذبية روائيي ما بعد الحرب، وباستثناء «بوريس ڤيان» «Boris Vian»، لم يكن هناك ما يبهج في قراءة الرواية. إنها فترة المفاهيم الكبرى التي صاغت مثل الخصوصية الفرنسية المتعلقة بـ «الأدب الملتزم». أما في الولايات المتحدة الأميركية، فقد استعصى التخلص من الحالة المذهلة التي جسدها كل من: «ستينبيك» «Steinbeck»،

(1) **Le Monde**: 7 février 2010.

Twitter: @ketab_n

«دوس باسوس» «Dos Passos»، «سينكلير لويس» «Sinclair Lewis».

أمكننا الإحساس بسطوة قامة «هيمنغواي»، القناص العظيم والممو الكبير، بلوحاته عن الحرب وكذا العودة إلى الطبيعة. بالتأكيد، كان «فولكنر» أكثر الروائيين الأميركيين صعوبة عن الفهم، أسطورة «الجنوب الرباني»، بسحر جمله الطويلة ومونولوجاته الباطنية (من غير الصائب، أن نضم إليه الروائية الأميركية «Flannery o'connor»)

يبدو، بأن الرواية الجديدة في فرنسا، قد غيرت الحقبة التي استبطنها الأدب، لكن يجب الاعتراف بعدم مقروئيتها. باختصار، كنّا (جماعة شباب شدّها الأدب، كما تملكها الاضطراب الذي تبعثه فكرة واجب المشاركة في حرب الجزائر) منفصلين عن الثقافي. بصيغة ما، قد نقارن ارتباك جيلنا سنة 1960، مع جيل الشباب الحالي، حيث كلمة «أدب» لا تعني شيئًا بالنسبة إليه. هناك مشهد «الكتب» الذي نتكلم عنه، ثم انعدام المشروع كما لو أن ما هو مكتوب صار ظلًّا باهتًا، للمفترض أو اليومي. فضّلت الحقيقة، تدبير الدم والجنس أو المخدرات؟

أن تقرأ للمرة الأولى، كما كان الأمر بالنسبة إليَّ، عمل «سالينجر» المعنون بـ: [For Esmé, with love and squalor] (النسخة الصادرة سنة 1960، هيمنت عليها صورة المراهقة المثيرة، والتي أضحت قبل ذلك مستهلكة ثم استعادتها قصص مجموعته: Nines stories)، مثّل انبهارًا وجسد أفضل افتتان،

Twitter: @ketab_n

شخص ما، كاتب يتواجد في أبعد جهة أخرى من العالم، بوسعه التكلم عمّا أشعر به وأتشوق إليه، يروي حكاية قد لا تتأتى لدي بهذه الكيفية، وهي جزء من ذكرياتي ومشاعري، بحيث منحتني إمكانية التفكير بناء على لمسة خفيفة،غريبة في الآن ذاته ومؤثرة، وليس بمعاني انتُقدت بقوة. بالتالي، سيتغيّر مجمل مسار حياتي.

فترة شبابنا، احتجنا إلى رموز، أدركت بأن «جيروم دافيد سالينجر»، سيكون نموذجي، على مستوى الكتابة والحياة، من خلال نصوص مثل: [Perfect Day for Banana Fish] أو [Teddy] ثم خاصة أولى حكايات نصوصه:[Esmé] حيث وقائع تلك الزيارة الصاخبة لـ«كاتب كبير»، إلى قاعة الطعام الخاصة بالجنود، إبان الحرب العالمية.

لقد، كان في مقام أخ أكبر، جرّاء المرارة كما يكشف عنها الواقع وكذا السخرية الجريئة للأجيال الضائعة في الحرب (كل الحروب)، ثم أيضًا هذه الرؤية الحالمة التي تترقب إلهامًا، أيًّا كان، بغية التخلص من وحل العجز واللاتكيف. أخ أكبر، استضافني إلى عالمه. هكذا، اقتفيت آثار خطواته، ليس بانذهال أعمى، ولكن لأني أصغر سنًّا، يمكنني الانضمام إليه من خلال تمثل حقيقة صارت سهلة البلوغ أخيرًا. في المقابل، أبدي له وفائي، وإذا لم يرغب في ثقتي، فلن يخمد همتي، لأنه كان جزءًا من منطق الأشياء.

مع رواية سالينجر «The Catcher in the Rye»، لم أكن في عمر «هولدن كولفيلد» نفسه، لكني عشقت كل ما لديه،

Twitter: @ketab_n

طريقته في التأويل (بعده، يأتي «ريجين دوشارم» بـ «قربانه الكوميدي»!)، تقديسه لقبعة بيسبول، تقززه من الشغف بالسينما. حتمًا هي تجربة تتطلب القوة، حين يندس شخص يبلغ الثلاثين من عمره إلى جسد مراهق في الثالثة عشرة، لكنها جيدة بالنسبة لنجاح أدبي. الأمر إذن، كذلك.

ولأني أحببت مع «سالينجر» اللغة الإيطالية القديمة، فقد قرأت كل ما كتبه. وحين بدا جيدًا، عدم رغبته في إخراج أي عمل، وكبرت أسطورة الرجل الذي آثر الاعتناء بوروده، حيث يعيش كما صرح ذات يوم: «في ولاية «New hampshire» الأميركية مع زوجته وكلبه». أحسست بشيء من الحزن، يمتزج بهذا النوع من الوفاء الملزم للكاتب بالتماهي مع شخصياته، ويقول ما يريده ثم يصمت. لأننا على الدوام غير مكتملين، فقد كان له الحق، في أن يكون على الوجه الأكمل. شكرًا، لك إذن «سالينجر» وإلى الأبد.

Twitter: @ketab_n

كلود ليفي ستراوس: رجل خالد[1]

I ـ مفكر القرن:

هو، أنثروبولوجي وإثنولوجي، أستاذ شرفي بكوليج دو فرانس، عميد الأكاديمية الفرنسية، صاحب أطروحة الفكر البدائي، ثم آخر ممثلي قرن أساتذة التفكير... مات بباريس يوم 3 أكتوبر/تشرين الأول 2009.

28 نوفمبر/تشرين الثاني 1908، ولادة ليفي ستراوس بمدينة بروكسيل، بين أحضان أسرة تتكون من الفنانين. 1909، ترك بلجيكا لكي يستقر بفرنسا، باريس أولًا ثم فيرساي. 1918، عودته إلى باريس ودراساته الثانوية بمدرسة: Janson-de-Sailly. 1935، نال شهادة التبريز في الفلسفة، تدريسه للسوسيولوجيا، بساوباولو، وتجليات أولى اتصالاته بهنود الأمازون. 1940، ذهابه إلى نيويورك، وبعد أن انضم إلى فرنسا الحرة، درَّس بالمدرسة الحرة للدراسات العليا. 1949، أصبح نائب مدير «متحف الإنسان» بباريس، دفاعه عن

(1) **Le Figaro:** mercredi - 4 novembre 2009.

Twitter: @ketab_n

أطروحته: [الأبنية الأولية للقرابة]. 1960، (5 يناير/كانون الثاني)، ألقى الدرس الافتتاحي بكوليج دو فرانس، كما أسس مختبر الأنثروبولوجيا الاجتماعية. 1961، إصدار أول أعداد مجلته «الإنسان». 1973، انتخابه لعضوية الأكاديمية الفرنسية. 1983، سفره الثالث إلى اليابان. 1984، زيارته لإسرائيل. 1985، بمناسبة إقامة رسمية للرئيس فرانسوا ميتران بالبرازيل، فقد شكل ذلك فرصة سانحة أمام ليفي ستراوس ليعثر ثانية على البلد الذي غادره منذ خمسين سنة، هيأت له جامعة ساو باولو استقبالًا حماسيًّا. 1989، معرض «أميركيو ليفي ستراوس» بمتحف الإنسان. 2006، دشن الرئيس جاك شيراك متحف «الفنون الأولى» معبرًا عن تقديره الشديد لـ«ستراوس». 2008، وُضِعت مؤلفاته ضمن قائمة ما تتضمنه المؤسسة النفيسة: Bibliothèque de la pléiade. 28 نوفمبر/تشرين الثاني 2008، احتفال بعيد مولده المائة، زاره الرئيس ساركوزي في بيته، كي يعبر له عن امتنانه ويشكره باسم كل الوطن.

إذن عن عمر يناهز 101 سنة، ودعنا ليفي ستراوس أحد الرموز الأساسية للثقافة الفرنسية في العالم، بعد أن جسد العلم الحديث برفعة وبساطة لا يضاهيان. سيتردّد صدى رحيله من «هارفارد» إلى «يال»، وفي البرازيل وكذا داخل كل مدرجات جامعات العالم، كما هو الحال في باريس. لقد كان ربما آخر مفكر فرنسي بأبعاد كونية جد واسعة.

سيعرف ليفي ستراوس عالميًّا، بكونه قد كرّس ذاته للتعميم، حينما أدخل البنيوية إلى الأنثروبولوجيا. فأعمال مثل

Twitter: @ketab_n

«البنيات الأولية للقرابة»، «الأنثروبولوجيا البنيوية»، أو «الفكر البدائي»، أضحت الآن خالدة. نجد أيضًا في الريادة كتاباته عن «النيء والمطبوخ» أو «أصل طرق المائدة»، حيث فتنت جمهورًا واسعًا. أما، دراسته المعنونة بـ «المدارات الحزينة» وبدءًا من أولى مقاطعها الرائعة: «أكره الأسفار والمستكشفين»، فقد شهدت نجاحًا كونيًّا.

رؤية ليفي ستراوس المتقاطعة إلى الحضارات، غيرت بعمق فكرة الثقافة ذاتها، إنه رجل للحاضر والأبدية. من أتاح لهم الحظ فرصة التعرف إليه عن قرب، اكتشفوا ستراوس أكثر لباقة ودماثة وتواضعًا، اعتقد معها محاوروه دائمًا ـ خطأ ـ بأنهم أنداد له. استثنائي كذلك على مستوى ثقافته الأدبية، وكذا ذاكرته، فلا أحد مثله يلم بـ لافونتين وبودلير، وحتى آخر أيامه ظل يستشهد بهما بفتوة مدهشة. سيشكل رحيله، حزنًا حقيقيًّا للذين أضمروا له إعجابًا دائمًا.

احتفى به العالم قاطبة. دُرِّس في كل الجامعات الأوروبية والأميركية، كما تُرجِم إلى أربعين دولة. لكن، كلود ليفي ستراوس يصر بشيء من التأنق على رفضه بطاقة أستاذ للفكر. عندما استحضرنا معه ذلك، داخل شقته المتواجدة بحي باسي Passy، والتي تتزاحم فيها الكتب والذكريات، أكد ستراوس بأن صفة كهاته تثير لديه الانقباض والرفض. يقول: «أثناء مراهقتي، ربما حلمت بدور أستاذ للتفكير، لكن هذه الرغبة تلاشت».

صاحب «سلالة وتاريخ»، الذي ولج الأكاديمية الفرنسية

Twitter: @ketab_n

سنة 1973 يفضل تعريف ذاته مثل حرفي يشتغل في العمق على أسئلة محدّدة: «لا أبالي كثيرًا بما يأتي من دماغي»، يكرر على غرار ديكارت. هذه السخرية المستمرة والعلنية ثم اليقينية، مثلت واحدة من السمات المميزة لعقله. ستراوس، الذي امتلك النكهة والأسلوب، لا يترك أي شخص غير مكترث. نتذكر، جملته المتهتكة التي افتتح بها «المدارات الحزينة»: «أكره الأسفار ورواد الاستكشاف»، العرض التأسيس الصادر سنة 1955، يشكل مع ذلك واحدًا من الكتب الاستكشافية الكبرى خلال القرن العشرين.

ولد كلود ليفي ستراوس بمدينة بروكسيل يوم 28 نوفمبر/ تشرين الثاني 1908 وسط عائلة، تتألف من رسامين وموسيقيين فرنسيين. مفكر، رفض البقاء عند حدود مركز معين، بالتالي لم يشعر قط بالرغبة في توجيه فكره نحو بؤرة معينة. وفضل حفيد حاخام مدينة فيرساي، الارتقاء المتمرد صوب موضوع بحثه.

سلسلته «أساطير»: النيء والمطبوخ (1964)، من العسل إلى الرماد (1967)، أصل طرق المائدة (1968)، والإنسان العاري (1971)، مجموعة إشارات واقعية للإثنولوجي، انتهت بتقديم خلاصات دقيقة جدًّا للفيلسوف. مع ذلك، بعد مضي ربع قرن على إنجاز هذه الرباعية التأسيسية، تحدث كلود ليفي ستراوس عن مأساة للبنيوية نظرًا لتحجرها بين ثنايا نظرية فلسفية. على امتداد، حياته، أظهر صاحب الفكر البدائي عن مهارة في المراوغة، ممّا أضفى على مغامراته الذهنية فنًّا للمعنى.

Twitter: @ketab_n

يحب كلود ليفي ستراوس التذكير، بأن كل شيء بدأ ذات يوم أحد من خريف 1934، حين تلقى اتصالًا هاتفيًا من مدير المدرسة العليا للأساتذة، لكي يقترح عليه منصب أستاذ السوسيولوجيا بجامعة ساو باولو. حصل، ستراوس على الإجازة في القانون والتبريز في الفلسفة سنة 1931، ثم بعد دراسات بالسوربون، انتقل لممارسة التدريس بثانوية «Laon». شاب مرتاب، يعشق في الآن ذاته الجيولوجيا، الموسيقى، الأدب، الرسم، التنجيم، الفنون الغرائبية، وكذا الأعمال الاقتصادية لماركس، تبين له استحالة رفضه لاقتراح المدير، لذلك سيعبر المحيط الأطلسي سنة 1935 رغبة في اكتشاف البرازيل: «إنها التجربة الأكثر أهمية في حياتي»، صرح بعد ذلك بسنوات.

غداة الهدنة، وبعد سنة من عودته إلى فرنسا، لم يجد ثانية مقعدًا للتدريس، حيث اصطدم بتشريعات فيشي Vichy المعادية للسامية، فتحول إلى «طريدة داخل معتقل». ترك، فرنسا مرة أخرى، متوجهًا إلى نيويورك للاستقرار فيها بين سنوات 1941 ـ1944، إلى جانب حشد من المفكرين والفنانين المنفيين. هناك، وضع لبنات مرحلة مفصلية أخرى في حياته، بمؤسسة: [New School for Social Research]، وكذا المدرسة الحرة للدراسات العُليا. بمدينة نيويورك أيضًا، حيث وقع التزامًا مع القوى الفرنسية الحرة، واصل ليفي ستراوس الدفاع عن مسألة استقلال رجل العلم عن السياسي. يسترجع فترات الحقبة تلك بتأثر: «كان مكسبًا رائعًا بالنسبة

Twitter: @ketab_n

إليَّ، أن يقبلني فجأة هؤلاء العلماء... وفرصة لاكتشاف اللسانيات مع رومان جاكبسون».

سنة 1947، رجع ليفي ستراوس بصفة نهائية إلى فرنسا، ليشغل وظيفة نائب مدير «متحف الإنسان» (1949)، والذي أثراه قبل الحرب بتحف برازيلية. لقد جمع بوفرة، محتويات إثنوغرافية، قبل أن يحتك بنظريات المدرسة الأميركية. لكن، حان الوقت كذلك قصد إضفاء الانسجام على متنه الفكري، ذلك ما قام به سنة 1949 مع أطروحته بخصوص: [البنيات الأولية للقرابة]، بين من خلالها أن الالتزام عند مجموعة اجتماعية فيما يتعلق بإعطاء النساء أو الحصول عليهن وحظر ارتكاب المحرّم، أسس للثقافة في قلب الطبيعة. بفضل ستراوس، إذن عثر الإثنوغرافي على موقع جديد داخل علوم الإنسان.

في السنة الموالية، أصبح كلود ليفي ستراوس مدير الدراسات بـ «المدرسة التطبيقيّة للدراسات العليا»، ثم التحول إلى كرسي الأنثروبولوجيا الاجتماعية الذي وُضع خصيصًا له سنة 1959 بمعهد كوليج دو فرانس. فهذا: «العارف الفلكي بالمجموعات الإنسانية»، وقد أخذ بعين الاعتبار كل نتاجات النشاط الاجتماعي، أدوات، موضوعات، طعام، أناشيد، رقصات، أشكال سحرية، مهووس بقراءة الثقافات كأنساق رمزية.

على امتداد الخمسين سنة الماضية، جسَّم ستراوس الأستاذ والفنان قطبًا علميًّا، فقد أرسى مرتكزات مشروع

Twitter: @ketab_n

يتداوله كل العالم. حظي بهالة داخل فرنسا ووضع اعتباري متميز. انتمى إلى عدة أكاديميات أجنبية، كما تُوِّج بدكتوراه فخرية من طرف جامعات أكسفورد ويال وكولومبيا. من جانب آخر، تعرّض ستراوس، للتشنيع حينما أخذ عليه البعض، إعطاءه لوجهة نظر فلسفية حول الإنسانية نظامًا علميًّا.

بقي ستراوس، منفتحًا هاته السنوات الأخيرة، كي لا ينخدع بالمستقبل الزهيد، الذي يتضمنه وقتنا الراهن. الذين زاروه، أفصح لهم عن تعلقه بالحياة بناء على إحساس كوني أكثر منه روحي. يجيب عن الرسائل التي يتلقاها، ويتابع الإصدارات الحديثة، كما يتواصل باستمرار مع رواده الفرنسيين وغيرهم. ستراوس مع تواضعه، هو صاحب نزعة إنسانية، منح نفسه امتياز أن يعيش اللحظات المتبقية من عمره في تألق لانهائي.

II ـ عالِم في البرازيل.

لا ندرك اليوم جيدًا، تأثير الفكر الفرنسي على أميركا اللاتينية قبل الحرب. بجامعة ساو باولو، التقى ستراوس ثانية مع المؤرخ «فيرناند بروديل»، والجغرافي «بيير مونبيغ»، وكذا السوسيولوجي «روجي باستيد»، وحاضر باللغة الفرنسية أمام طلبة ينتمون للأوليغارشية المحلية. مثل، مسافري منطقة النورمندي إبان القرن 16، الذين افتتن بحكاياتهم مونتين، لن يتردّد ستراوس كي «يصير برازيليًّا»، وهو يخضع الثقافة الأوروبية التي كان ممثلًا لها إلى الرؤية النقدية. فبدأت حقبة

Twitter: @ketab_n

التفكيك البنيوية والتأويلات المتعددة الاختصاصات، لكن تكرارها الميكانيكي عند تلامذة غير مؤهلين، شكل خيانة لمسار كلود ليفي ستراوس: «أعشق تلك الظواهر المهملة جدًّا، لتحريك الانفعالات الإنسانية، لكنها قد تصير أحيانًا موضوع معرفة دقيقة».

انعدم كليًّا وجود هذا العلم بالمتعدد المتناهي، والذي تمكن الأستاذ الشاب من الاشتغال عليه، لحظات أسفاره الإثنوغرافية إلى القبائل الهندية «ماتو غروسو» (Mato Grosso) والأمازون بين سنوات 1935 ـ 1939.

أساطير، عادات، فنون، لغات، قواعد القرابة، دين، مؤسسات، كل شيء يسحر عند هنود: كادوفيو Caduveo، بورورو Bororo، نامبيكوارا Nambikwara، توبي - كاواهيب Tupi- Kawahib. بجوارها، استوعب ستراوس «الفكرة البدائية» وفحص بنيته الباطنية: «مع هنود أميركا، أحبّبت الانعكاس، بل هو عابر هناك. خلال حقبة كان فيها النوع عند مستوى عالمه، يصرُّ على علاقة متماثلة بين ممارسة الحرية وعلاماته».

III ـ ثلاث كتب أساسية:

* **المدارات الحزينة**: [Tristes Tropiques].

العمل الذي أعطى شهرة لكلود ليفي ستراوس، صدر سنة 1955 ضمن سلسلة «الأرض الإنسانية» التي أشرف عليها آنذاك الكاتب والإثنوغرافي «جون مالوري». وبقدر قابليته

Twitter: @ketab_n

للتناول، فقد التصق الكتاب أيضًا، أكثر من العناوين الأخرى بذاتية ستراوس، البالغ من العمر آنذاك 47 سنة. يمزج بين القصد السير ذاتي والتحليل الأنثروبولوجي، يتجول القارئ مع ستراوس بين القبائل التي زارها بالبرازيل والبنجاب، ثم باكستان. ويكشف معه، كيف أصبح الرجل عالمًا بالإثنولوجيا؟ واستماتته مدافعًا عن قضية البدائيين ضد رؤية للحضارات متمركزة إثنيًا.

* **الفكر البدائي** [La Pensée Sauvageï].

ظهر سنة 1962، فضح ستراوس بين صفحاته، ما نهمشه من تعقيد عند الشعوب، الموصوفة بأنها «بدائية». كما رفض عبره أيضًا، وجودية سارتر، وهو ما سيشكل موضوع جدالات ظلت مأثورة، بعد ذلك وبالأخص قضية التطور في التاريخ.

* **كوكبة الخالدين** [La Pléiade].

في السنة الماضية، كان ليفي ستراوس أول أنثروبولوجي، تضمه مصنفات «مكتبة المشاهير». كذلك، نادرًا ما تصدر المكتبة إنتاج رائد ما وهو لا يزال على قيد الحياة. احتوى هذا العمل على ما كتبه ستراوس خلال نصف قرن. لا شكّ، ستحقق المكتبة نجاحًا غير معهود وهي تخرج إلى القارئ فكرًا من هذا الطراز.

IV ـ البنيوية في أربعة أسئلة:

1 ـ ما هي البنيوية؟

Twitter: @ketab_n

نظرية، تؤكد عدم إمكانية ضبط الكائن الإنساني، إلّا في إطار شبكة علاقات رمزية، والتي بقدر ما هي بنيات يساهم فيها بشكل لاواعٍ. استلهمتها أبحاث الأنثروبولوجيا والإثنولوجيا واللسانيات، ممّا أدى إلى تطور مفهوم البنيوية بعيد الحرب العالمية الثانية. في دراسته الأولى المهمة: [البنيات الأولية للقرابة] (1949)، وضح ستراوس أهمية منع ارتكاب المحرَّم في العلاقات بين الرجال والنساء عند هنود الأمازون. شبكة من العلاقات، سنقف عليها في عمله: [المدارات الحزينة]. من خلال كل ميادين الحياة الاجتماعية، وكذا التمظهر الفني، كما هو الحال مثلًا مع روايات بروست أو فاغنر، سعى ستراوس إلى تبيان القواعد التي تهيكل عناصر النتاج الإنساني وتمنحه المعنى. اعتُبر، كواحد من الذين تمثلوا هذا الهاجس البنيوي، إلى جانب أعمال فلاسفة كميشيل فوكو، لوي ألتوسير، ولسانيين مثل رومان جاكبسون، أو مختصين في التحليل النفسي حيث يحضر اسم جاك لاكان، الذي أمكنه الجزم وهو يقتفي أثر ستراوس، بأن «اللاوعي مبني مثل اللغة».

2 ـ هل يعتبر ستراوس مبدع البنيوية؟

بالطبع، يرتبط عمل ستراوس بموجة واسعة من الأفكار تجلت سنة 1960، سُميت بالبنيوية. وعلى الرغم، من احتفاظه دائمًا بمسافة أمام هذه التسمية التي استفادت من انتشار واسع لنموذجها، يمكننا أن ننظر إلى ستراوس، باعتباره المحرك الجوهري لهذه الكيفية الجديدة في التفكير.

Twitter: @ketab_n

3 ـ ما هو الأثر، الذي خلفه ستراوس في تلك الفترة؟

لقد قام بدور محوري في فرنسا وخارجها، لا سيّما الولايات المتحدة الأميركية، لأنه قاوم الوجودية التي هيمن عليها رمز جان بول سارتر، والذي استمر في الاعتقاد بأن الإنسان كائن ذات، مسؤول عن مصيره. موقف، وضعه ستراوس جذريًّا موضع مساءلة، متهمًا إياه بـ «السذاجة».

4 ـ كيف تدرك البنيوية اليوم؟

مثل تيار فكري، كشف عن حدود الحرية الإنسانيّة، لكن أيضًا حركة تحولت أحيانًا إلى دوغماطيقية عويصة. يضاف إلى هذا، أن مفكرين لامعين مثل إيمانويل ليفيناس، اختلفوا مع ليفي ستراوس، لأنه أهمل أهمية الشخصية الإنسانية.

Twitter: @ketab_n

جواد مديديش: أبراهام السرفاتي، مغربي مرهف الحس، في عباءة ثوري خالد[1]

«باستثناء لطخة دم»، أحتفظ بذكريات طفولة سعيدة. في الدار البيضاء، عشت أنا وإيفلين، يغمرنا دفء حنان الوالدين». أبراهام السرفاتي أو «ديدي» كما ينعته المقربون، و «الشيباني» مثلما يلقبه رفاق المحنة بالسجن المركزي بالقنيطرة، حيث كنت واحدًا منهم بين سنوات 1975 و1989، لم ينس أبدًا سعادة سنوات طفولته.

في أواخر أيام حياته، وعلى الرغم من حالات فقدان الذاكرة، التي بدأت تنتابه بشكل مستمر جرّاء مرض الزهايمر، عاش السرفاتي بمنزله بحي أسيف بمراكش، يخطو الخطى بواسطة كرسي متحرك، على إيقاع ذكرى ذاك الطفل اليهودي المغربي غير المكترث، يطوي بدراجته الهوائية أزقة حي المعاريف ودرب غلف.

بالتأكيد أيضًا، وحتى آخر همسة له عن سن الرابعة

(1) **La vie éco:** Vendredi, 26 novembre, 2010.

Twitter: @ketab_n

والثمانين، بقي يعاني جرحًا، نتيجة سوء فهم تحسّسه واقعيًّا، داخل الجسم المغربي بين اليهود والمسلمين. طائفتان، مع ذلك: «مرتبطان بصداقة تمتد لعشرات القرون» كما تعلّم من أبيه. لم ينس، أبراهام قط، شعوره بالانهيار ذات يوم من شهر يناير/كانون الثاني 1967 (بعد حرب الستة أيام) حين اكتشف، بأن مقالته التي أرسلها إلى جريدة مغربية، صدرت دون ذكر اسمه، لأنه يهودي، يقول بتحسر: «لم يكن ذلك، في سياق جيد، بالنسبة لجريدة وطنية مغربية». أيضًا، لم يستطع محو صورة أخته إيفلين التي ماتت في شهر أكتوبر/تشرين الأول سنة 1974، بعد سنتين من التعذيب في ضيافة الشرطة، كي تشي بالمكان الذي يختبئ فيه أخوها الذي ابتدأ وقتها مرحلة العمل السري: «تكلمي أو نقتلك. لقد قتلوك إيفلين، ولم تتكلمي»، هكذا، خلدتها إحدى قصائد عبد اللطيف اللعبي.

كان بوسع مسار أبراهام، أن ينعم كفاية بالسعادة، على غرار أهل ديانته كأندري أزولاي، سيرج بيرديغو وروبير الصراف. فالطائفة اليهودية، اتصفت دائمًا بكونها ملكية حتى النخاع، لو لم يحدث التزامه السياسي الثوري انقلابًا غيّر كل حياته. تعود نقطة البداية، إلى خريف 1968: جرّاء الإضراب الكبير الذي قام به 7000 منجمي بخريبكة، لم يتردّد السرفاتي في التضامن معهم، حيث شغل منذ 1960 مديرًا تقنيًّا للمكتب الشريف للفوسفاط (بعد دراسات لامعة بمدرسة المعادن بباريس)، لكنه أزال وزرة التقنوقراطي، كي يرتدي أخرى لمناضل أقصى اليسار. يوم 30 غشت/أغسطس/آب 1970،

Twitter: @ketab_n

اعتبر لحظة قطيعة نهائية مع حزب التقدم والاشتراكية، وريث الحزب الشيوعي المغربي، وتأسيس منظمة إلى الأمام التي كان أحد رموزها الأساسيين.

هيمنت الدعوة إلى ثورة البروليتاريا، والحلم بالأمسية الكبيرة، على أفكار السبعينيات. عقائد، حكمت شباب أوروبا الغربية وكثير من البلدان العربية. بيد، أن الضريبة التي دفعها السرفاتي ورفاقه في المغرب، كانت ثقيلة: الحكم غيابيًّا بالمؤبد سنة 1973. اعتقال في شهر نوفمبر/تشرين الثاني 1974 ثم تعذيب طيلة أربعة عشر شهرًا، في دهاليز درب مولاي الشريف، وهو معصوب العينين والأصفاد تشد معصميه. الحكم عليه بالسجن المؤبد خلال المحاكمة الشهيرة لـ «الجبهويين» سنة 1977، وتُوّج المسلسل بالسجن 17 سنة. الجملة التي فاه بها قاضي التحقيق حينما مثل أمامه السرفاتي بعد احتجاز جحيم درب مولاي الشريف، بقيت مشهورة في حوليات القضاء المغربي: «أنتم محظوظون، لأننا نعيش أجواء الديمقراطية».

كان هذا القاضي محقًّا، لأن آخرين أقل حظًّا، تعفنوا في جوف تازمامارت. عمل أبراهام ورفاقه في السجن المركزي على تحريض الرأي العام الدولي حتى ينصت إلى صوتهم، وبالتالي، كي يتمتعوا بوضعية معتقلي الرأي. شهر مارس/آذار 1986، فإن الرفيقة الفرنسية «كريستين دور» والتي تحلت بالشجاعة حين آوت عندها السرفاتي خلال سنوات ملاحقته، ستقوم بزيارته في ردهة السجن بوساطة من دانييل ميتران، صاحبة الفضل في زواجهما. حالم ورقيق المشاعر، تخفيهما

Twitter: @ketab_n

هيئة ثوري صلب، هكذا قضى أبراهام حقبة السجن، يلازمه حب طفولي نحو كريستين، هذه المرأة التي شكلت سنده المطلق إلى غاية إطلاق سراحه شهر شتنبر/سبتمبر/أيلول 1991. حرية، من أجل منفى مؤلم: إعادة إحياء قرار رسمي قديم يعود إلى فترة الحماية من طرف إدريس البصري الوزير السابق للداخلية، ألصق به الجنسية البرازيلية على نحو غريب، فاضطر السرفاتي لقضاء ثماني سنوات في فرنسا. أما الشكوى التي تقدم بها محاميه عبد الرحيم برادة ضد الوزير وشطط توظيفه للسلطة، فلم يسفر عن أي شيء. رفض السرفاتي تجرع هذا المنفى الإجباري جعل حياته قاتمة. كان بوسعه إنهاء حياته في أوروبا بالقرب من «موريس» ابنه الوحيد وحفيده «تيو»، لكن رغبة العودة ثانية إلى وطنه الذي عشقه «عضويًّا» كما قال: «كي يحيا فيه أولى خيوط الحرية، حين يبزغ الفجر».

يوم 30 شتنبر/سبتمبر/أيلول 1999، وبعد أن تغير الحكم، تمكن السرفاتي أخيرًا من العودة إلى المغرب، حرًّا، سعيدًا ومُدلّلًا. وقد «تهدّأ» أيضًا: فإن شعلة ثوري السبعينيات، وإن صارت جمرًا، بقيت في العمق متوقدة: رجل مهووس بالعدالة والحرية، مفكر مثالي، حالم وعنيد أيضًا. سنة 2002، كتب بيد ترتجف: «بعد مرور اثنتين وثلاثين سنة، أتأمل الطريق، والتضحيات التي بذلت والأخطاء المقترفة والنجاحات والإخفاقات. لكني، سأبقى مقتنعًا، بأن مشروع صيف 1970، ترسخ بعد ذلك بعمق لدى الشعب المغربي».

فاسترح قرير العين، عزيزي ديدي.

Twitter: @ketab_n

هند التعارجي: السرفاتي، رمز حقبة[1]

أولًا، أعبّر عن مشاعر الحزن والتأثر، أمام رحيل إنسان استثنائي. إنسان، تتنافس لديه دلالة الالتزام مع السخاء والاستقامة. إنسان، ينتمي لسلالة في طور الانقراض، إنهم «الوطنيون المغاربة» حيث شغفهم بالعدالة، لا يعادله إلّا حب الوطن. لقد، غادرنا السرفاتي يوم 18 نوفمبر/تشرين الثاني 2010. هل اختار ساعته، والتي لن يكون أي تاريخ أفضل من هذا لينتزع الرجل إجلاله. فقد رحل يوم ذكرى استقلال البلد. بالتالي، ليس هناك أكثر قوة من هاته الصيغة كي يستعيد نقطة البداية؟

السرفاتي، أو «مانديلا المغربي» كما يلقبونه، وأحد أشهر المعتقلين السياسيين في العالم، بدأ مساره مناضلًا وطنيًّا متحمسًا. عضو الحزب الشيوعي المغربي منذ 1944، وعمره لم يتجاوز 18 سنة. انخراطه في نضالات الاستقلال، دفع السلطات الكولونيالية سنة 1950 إلى طرده نحو فرنسا تحت

(1) **La vie éco:** Vendredi, 26 Novembre, 2010, Page 41.

Twitter: @ketab_n

مبرر جنسيته البرازيلية (من هنا الإخراج الجديد لسنة 1991)[1]. ثم عاد إلى المغرب، وهو على وشك الاستقلال، فوُضع في الإقامة الجبرية. وما إن أُخفي هذا الحكم، سنعثر عليه طبعًا بين أعضاء حكومة عبد الله إبراهيم، في ديوان عبد الرحيم بوعبيد. وبشكل طبيعي أكثر، سنلاحظ مساهمته كمهندس مناجم من أجل تأسيس البنيات الوطنية (خلق المدرسة المحمدية للمهندسين) قبل تحوله إلى إطار كبير على رأس مناجم خريبكة. لكن، ما هي إلّا عشر سنوات، حتى حدثت القطيعة مع المخزن الذي أضحى بالمطلق مستهلكًا، ودشن السرفاتي مرحلة أخرى من حياته، يحكمها أفق النضال ضد الاستبداد وتثبيت العدالة الاجتماعية. لذلك، خلال هذا اليوم الكئيب والممطر من شهر نوفمبر/تشرين الثاني، هبّ نحو المقبرة اليهودية بالدار البيضاء حيث ووري الثرى، حشد ضمّ أصدقاء ورفاق السجن والمنفى، وجوه تاريخية للحركة الوطنية أمثال «عبد الرحمن اليوسفي» و «بن سعيد أيت يدير»: «كلهم قدموا إلى هنا»، نادرًا ما عرفت المقبرة اليهودية القديمة مثل

(1) الأجداد الأولون لأبراهام السرفاتي، جماعة من يهود الأندلس، استقروا في المغرب خلال القرن الخامس عشر، بعد فرارهم من اضطهاد الملوك الكاثوليكيين. أما عن قصة الجنسية البرازيلية، فتعود بنا إلى جد السرفاتي الذي يتاجر في شجر المطاط البرازيلي، طلب الحصول عليها لحاجياته التجارية. ثم تلقائيًا، وخلال الفترة الاستعمارية، فقد احتفظ والد السرفاتي بالثنائية الجنسية. المقيم الفرنسي الذي يتوفر على هذا المعطى، وظفه كمبرر كي يبعد لفترة أبراهام عن المغرب. نفس السيناريو، صاغه ثانية إدريس البصري، حين التقط المعلومة.

Twitter: @ketab_n

هذا الجمهور والحضور والمسلمين أيضًا، بحيث تصل همسات من هنا وهناك: «للمرة الأولى، تطأ أقدامي مقبرة يهودية». على الرغم من فترة عيد الأضحى، وأسفار العطلة، فقد جاءت الوفود حزينة من كل مكان. شيوخ، وشباب وأفراد غير معروفين ويهود ومسلمون ومئات الشخصيات، رافقت نعش رجل محترم يحبه الجميع، لا سيّما لدى من أتيحت لهم فرصة لقائه. لأن، السرفاتي وفيما وراء معركته الملموسة، وكذا وضعه الأيقوني بالنسبة لجيل من المثاليين، فقد كان صاحب إنسانية عميقة، ومناضلًا، بقي محافظًا على طراوة قلبه وأريحيته، رغم ما عاشه من تعذيب وسجن. ولم يفقد أمله في الإنسان. داخل المقبرة اليهودية القديمة، رُفعت الأعلام الفلسطينية على إيقاع أناشيد المقاومة. أناشيد، انبعثت سابقًا من أعماق الزنازن كي تلهب القلوب. دموع مكبوتة، بللت الأنظار ثم انسابت خلسة على وجوه مكتئبة. مع ذلك، وعلى الرغم من الأجواء الحزينة، فقد ساد المقبرة اليهودية القديمة مناخ فريد، حالم، بمغرب تتعايش داخله الاختلافات دون انحلالها. معناه، أن تكون مغربيًّا بلا تحفظ سواء أنت يهودي أو مسلم، غني أو فقير، وزير أو متسول.

السرفاتي، هو تاريخ رجل من أجل قيم العدالة الاجتماعية، سيتحمل كل أنواع المعاناة الجسدية والنفسية: خمسة عشر شهرًا من السرية، سبع عشرة سنة سجنًا، وثماني سنوات في المنفى. ضحى بثلث حياته.

السرفاتي، مناضل لا يتنازل. باسم مبادئه، تمرد على

Twitter: @ketab_n

طبقته الاجتماعية وطائفته الدينية. تخلى عن مسار مهني واعد، حينما كان إطارًا كبيرًا، لكنه سيتبنى قضية عمال المناجم المضربين بخريبكة. وفي الوقت الذي التفت فيه بعشق صوب إسرائيل، عدد من أبناء طائفته اليهودية، بقي السرفاتي المنتمي إلى عائلة يهودية عريقة تنحدر من مدينة طنجة، يهاجم إسرائيل ويفضح جهرًا وبكل ما أوتي من قوة وحتى أقصى حد صهيونيتها. كما أنه مع كل الإغراءات والتطبيع الذي اتسمت به الأحداث أحيانًا، فقد رفض قطعًا زيارة إسرائيل، ما دامت حقوق الفلسطينيين منتهكة. يقول بهذا الخصوص: «سأذهب، أولًا إلى فلسطين حينما تقوم دولة. (بعد ذلك)، سأمر على إسرائيل لرؤية بعض الأصدقاء اليهود»، لهذا السبب حضرت فلسطين إلى جنازته.

لقد ودعنا أبراهام، ولأنه كان بيننا وذوات مثله توجد ووجدت، فسيتواصل إيماننا القوي بكل ما هو جيد ورائع وخالد في الإنسان. شكرًا أبراهام واسترح في سلام.

Twitter: @ketab_n

رحيل هنري ميشونيك[1]

وُلد هنري ميشونيك Henri Meschonnic بباريس سنة 1932. بدأ، مشروعه، المسمى: Pour la poétique، في السبعينيات، وكذا أول ترجمة لنصوص التوراة. ثم أول مجموعاته الشعرية: (Dédicaces proverbes) (1972). وبوصولنا إلى سنة 1990، سنقف على دراسة عن هيدغر، تحت عنوان: [Le langage Heidegger, la rime et la vie]. توفي، يوم 8 أبريل/ نيسان 2009.

عن سن يناهز 78 سنة، توفي هنري ميشونيك، بعد معاناة مع مرض سرطان الدم. هو لساني وشاعر ومترجم للتوراة وكذا أستاذ متقاعد بجامعة (باريس VIII). بعد، أن انطلقت مسيرته الجامعية من مدينة «Lille». ولد في باريس يوم 18 شتنبر/ سبتمبر/ أيلول 1932. دشن منذ بداية السبعينيات نشاطًا ثلاثيًا، فأقام عملًا مدهشًا، تجاوز حقل العلوم الإنسانية.

بحث متغير الشكل، توزع بين النّقد الأدبي، التّرجمة، الإبداع الأدبي، التحليل النفسي، اللسانيات والفلسفة. لكنه

(1) **Le Monde** : 12/13/ Avril 2009.

Twitter: @ketab_n

تفاعل بشكل دائم ولم يتحمل قط السمة الوحيدة لاستثناء انتقائي. كان من اللازم عليه هنا، إقامة مسار مترابط ومتصل يدير ظهره للمقولات السائدة. ويتمرد على التاريخ وكذا نظرية الممارسات الأدبية. كي يفهم، لماذا وكيف تظل القصيدة الفضاء الأكثر حساسية وإلهامًا اتّجاه ما يمكن للمجتمع أن يصنعه من الفرد.

منذ ظهور عمله الأول: Pour la poétique (غاليمار 1970). والذي، وصل إلى 5 أجزاء ما بين تواريخ 1973 و1978 (خصص عددين لدراسة ڤيكتور هيغو)، لم يتوانَ مشروع ميشونيك عن سبر أغوار مجموعة أسئلة. تبدو سهلة ظاهريًا، إلّا أن رهاناتها تبعث التيه حقًّا: ماذا تعني كلمات مثل: شعرية، نص، عمل، قيمة؟

لم يتوقف ميشونيك، عن القيام بمقاربة عميقة لمثل هاته التساؤلات، بين طيات كتبه اللاحقة[1]، كي يحمل لها عناصر الجواب. استبعد، أدوات التحليل الأسلوبية الموروثة عن القرنين 17 و 18، والمتطابقة مع مفهوم زخرفي للأدب. كما رفض، البقاء سجين ميكانيزمات البنيوية التي ازدهرت سنوات السبعينيات.

---

(1) * **Critique du rythme,** Anthropologie historique du langage (Verdier 1990).

La Rime et la Vie (Verdier, 1990).

* **Politique du rythme,** politique du sujet (Verdier 1995).

* **Dans le bois de la langue** (Laurence Teper, 2008).

Twitter: @ketab_n

موقفه هذا المعارض للبنيوية، ونقده اللاذع للمفاهيم اللسانية الرائجة كثيرًا في تلك الفترة، نظرًا لتطبيقها على تحليل النص. يفسر التلقي البارد نسبيًّا أو السري، لعمل ينهض ضد الأنماط والاتّجاهات.

بالنسبة لهنري ميشونيك، تنتهي البنيوية في الغالب عند نماذج فقيرة تعجز عن الإدراك المُقنع، لخصائص النص الأدبي. فلا يمكننا بحسبه تناول خصوصية عمل، دون أن نتبين كون النص صلة بين ذات وشيء، داخل تاريخ وإيديولوجية. بحيث تبقى عناصر غائبة عن تفكير البنيوية. أما العدو الأساسي للفكر واللغة والقصيدة والأدب، فهو ذاك المفهوم للغة المهيمن في جميع الأحوال على الغرب، منذ أفلاطون والمستند على ما يسميه اللسانيون بـ: العلامة. أي، ثنائية داخلية لمفهوم اللغة، حيث الكلمة هي صوت ومعنى. أما التباين بين الشكل والمضمون فهو بالأخص كارثي قصد التفكير في القصيدة.

الجسد ضد الفكر، الصوتي في تعارض مع المكتوب، المقطع الشعري مقابل النثر، اللغة نقيض للأدب، الفرد في تضاد مع الجماعة: استمر هنري ميشونيك في التصدي بعمق لهاته التقابلات. كما أنه لم يحكم لأي أحد من الخصمين: العلموية والذاتية، الصورية والموضوعاتية. في حين انبنت «مرتكزاته» النظرية على مجموعة فلاسفة ولسانيين وباحثين: ويليام ڤان همبولت (1767- 1835) Wilhem von Humboldt، إيميل بنفنست Emile Benveniste (1902 ـ 1976)، والتر بنيامين (1892 ـ 1940)، ثم الشكلانيين الروس. بحيث

Twitter: @ketab_n

ينفلت فكره من الانقسام بين الشكل والمضمون، كي يحس في عمل كاتب ما، ريادة لغته، وبأن لا شخص قد حقق ذلك الإنجاز قبله.

لن ننسى، من بين أشياء أخرى، النص المدهش عن الحياة السالفة لـ «پول إلوارد» (في الجزء الثالث من: Pour la Poétique). أو، دراسته للعبة النهايات، من خلال عمل ڤيكتور هيغو [le Dernier jour d'un condamné] (في الجزء الرابع من: Pour la poétique).

جانب آخر، مهم جدًّا في اشتغالاته، يحيلنا على الإنجاز الكبير فيما يتعلق بترجماته للتوراة. ابتدأها، سنة 1970 بخمسة ملفات[1]. وتواصلت، مع بداية سنوات 2000، حيث جاء أولًا «سفر التكوين»، الأسماء. ثم «سفر الخروج» وسماه لاوي Lévitique في الصحراء. وأخيرًا، ترجمة كتاب الأعداد.

يجب أن ندرك تكامل هاته الترجمات مع عمل الشاعر واللساني هنري ميشونيك. وقد صرح بهذا الخصوص لجريدة «لوموند» سنة 2005: «لا تقل العبرية «لغة مقدسة» بل «لغة القداسة». فهناك، اللغة والقداسة. المفارقة، هي أنني أترجم نصًّا مكتوبًا داخل لغة القداسة، غير أنه لا أقوم بذلك دينيًّا، لكن كشخص يحاول فهم الصلة بين الإلهي واللغة».

ينطلق ميشونيك، من تأكيد: نص التوراة إيقاعي على

(1) Le chant des chants / ruth/comme ou les lamentations /paroles du sage/ Esther.

Twitter: @ketab_n

امتداده. بطريقة يتخلص فيها من التمييز التقليدي بين الشعر والنثر. ظاهرة، أهملها أغلب المترجمين سواء في فرنسا أو خارجها. لقد توخى إعادة النص التوراتي إلى ما هو متواصل، بمعنى: إيقاع /تركيب/ عروض. بالتالي، أعطاه ثانية قوته وأصالته. خاصة، وأنه يضفي على نص يهودي خاصيته اليهودية.

إن ترجمة التوراة أساسًا ظاهرة مسيحية، ركزت فقط على اللغة وتجاهلت كليًّا الإيقاع الخاص بالنص التوراتي. بهذا الخصوص، بذل ميشونيك مجهودات مضنية، في سبيل إرجاع هذا النص التأسيسي إلى هويته. هل بإمكاننا البرهنة إيجابًا أم سلبًا على ترجمته؟ إذا أخذنا في الاعتبار سعيه، سيظهر يقينًا لاجدوى هذا النقاش اللانهائي. ما يهم ميشونيك بالأحرى وهو يعيد تشكيل هذه النصوص، أن نقرأها ونحن نحس بجمالها إلى جانب تعقدها.

لم يتوفر ميشونيك على فكر للانضباط، فقد ترجم، فكر في اللغة ثم كتب الشعر: تكلم عن «التحام» يتوخى تحويل فكرة الإيقاع التقليدية، أبعد من إقامة «صيغة معينة للفكر النقدي». فليس بوسعنا، إلّا الاندهاش أمام انسجام هذا الفكر المثير، حتى ولو استعار سبل السجال مع ما يستوجبه ذلك من تحمل للظلم والمغالاة: يبدو، بأن قصيدته اتبعت مسارات أخرى، لم يثقلها أبدًا الفكر النظري. فهي، كما لو كانت مُهدئة، دافئة، شفافة وفي الغالب غنائية. دون، سقوطها قط في البوح الماجن لـ«أنا» ظافرة. يعرف، الشخصي على

Twitter: @ketab_n

النقيض، كيفية أن يصير عامًّا وكونيًّا. يقول، في إحدى مقاطعه الشعرية:

[Ma voix vient/ d'en dehors de moi/ elle vient de là/ où je ne suis plus].

حيوية شعرية غير ميالة إلى المماحكة، لكنها على العكس سخية، عطوفة، وعاشقة أيضًا.

بعد، نشره لقصائد مع مطلع الستينيات في مجلة: Europe أخرج ميشونيك للعموم أول مجموعاته الشعرية: Dédicaces proverbes عام 1972، عن دار النشر غاليمار، وحصل بها على جائزة «Max-Jacob». ثم، تجربة شعرية أخرى تحت عنوان: [Dans nos recommencements] (1976). وعمل آخر بعد ثلاث سنوات، صنفه تحت اسم: [Légendaire chaque jour] (1979). إنتاجات، ثمنتها عدة جوائز التقديرية، اعترافًا بقيمة نصّه الشعري. كتب، ميشونيك في ديوانه الأخير [De monde en monde] ما يلي:

«Je ne parle pas mes mots/ces sont mes mots qui me disent/ et qui me réconcilient».

تحيل هاته الإشارة أيضًا على الفكر النقدي للكاتب، ولو أن بساطة القصيدة تحول دون أن نتنبأ بالاعتقاد الاقتحامي والصلب الذي تنطوي عليه. إنها، لا تخل بذلك: «ما يهم في عمل للغة، هو ما يصنعه للغة والحياة، أكثر بكثير ممّا يقوله. لكن، بكيفية تمنع انفصالهما».

وفي مقاربته المعنونة بـ «الاحتفال بالقصيدة» (Verdier

Twitter: @ketab_n

(2001 ـ ندرك ذلك تهكميًّا ـ فقد هيأ ميشونيك آلة حربية حقيقية ضد ما يكرهه أكثر، أي «جوهرية» الفعل الشعري. يقول: «الشعرية نار السعادة التي نصنعها بلغة الخشب». ثم، حدّد «الأعداء» بجلاء: «لم يفهم الشعراء، بأن للقصائد عدوان بأذية متغيرة. الأول، هو القصيدة. في حين تمثل الفلسفة العدو الثاني».

الفيلسوف هيدغر ـ ومعه كل الفينومينولوجيا ـ سيرتقي إلى مرتبة الخصم الأساسي[1]. يشتكي ميشونيك ممّا سماه بـ: «ركود الفعل الشعري» وكذا «فراغ فكر حول اللغة»، وهما يختفيان وراء «تقديس للقصيدة» مثير للسخرية.

الشعراء المعاصرون، الذين ينضوون من قريب أو بعيد داخل هذه الجينيالوجيا، من «André du Bouchet» إلى «Yves Bonnefoy».

و«Jacques dupin» مـــرورًا بـــ «Philippe jaccottet»، «Michel Deguy» و«Jacques Roubaud»، هم موضوع اتهام في رأيه، لأنهم انحرفوا عن إرث الشاعر مالارميه واستسلموا لعبادة تلك السخرية. بالتأكيد، تهمة مبالغ فيها، لكنها لا تفتقد سواء للبسالة أو الجرأة.

(1) Heidegger ou le national -essentialisme, (laurence Taper 2007).

Twitter: @ketab_n

أليت أرميل:
الوجه الخفي لجائزة نوبل[1]

- [أوصى ألفريد نوبل (1833 ـ 1896)، مخترع الديناميت، بثروته الشخصية لخمس جوائز].

- [عشرة ملايين كورون Couronnes سويدية، ما يعادل مليون أورو، هي القيمة المالية لجائزة نوبل في الأدب].

من يختفي وراء جائزة نوبل للأدب، أكثر الاستحقاقات أهمية لكتاب الوقت الحالي؟ ما هو المنطق المتحكم في اختيارات لجنة التحكيم؟ عدد من الفائزين، الذين أعلن عنهم السكرتير الدائم، وفق بروتوكول لا يتغيّر، أي على الساعة الواحدة بعد الزوال من أحد أيام خميس شهر أكتوبر/تشرين الأول، غير معروفين من طرف النقاد الحاضرين في القاعة الكبرى للأكاديمية السويدية. بينما يتم الاعتراض، على البعض الآخر بقوة أحيانًا، لأسباب سياسية وحتى أخلاقية. بحيث، تستبعد الاعتبارات الأدبية إلى مستوى ثان. لذا، تحوم الريبة

(1) Aliette Armel/in **magazine littéraire,** numéro 469, novembre 2007,pp12-16.

Twitter: @ketab_n

حول أعضاء لجنة التحكيم: ألا تكرر تارة جائزة نوبل للأدب، تلك الأخرى المخصصة للسلام؟. لكي نعرف أكثر، كان علينا التوجه للقاء هؤلاء الثمانية عشر رجلًا وامرأة، المعروفين بصمتهم الحذر، والذين يمنحون هذه الجائزة ذات البعد الكوني انطلاقًا من استوكهولم، عاصمة بلد صغير محايد، ساكنته تعدادها تسعة ملايين. إنه السويد، حيث يتم تقديمه في الغالب كنموذج للتطور الاقتصادي والاجتماعي.

ستوكهولم، مدينة الماء والجزر، من أجل التنقل فيها عليك التعود على أن أقصر طريق من نقطة إلى أخرى، ليس الخط المستقيم، بل الملتوي. قد تعبر بهدوء أذرع البحر، وأنت تنتقل بين الجسور التي تفصل مختلف مناطقها. في عمق «غاملاستان» ـ جزيرة صغيرة بالمدينة القديمة ـ يوجد مقر الأكاديمية السويدية، على بعد خطوتين من القصر الملكي، تحت قبة واجهة كان يشغلها في السابق سوق المال. هذه الأكاديمية التي تأسست سنة 1786 من قبل الملك غوستاف الثالث، على منوال الأكاديمية الفرنسية، أوكل لها ألفرد نوبل مهمة الإشراف على جائزة الأدب. خمس سنوات، فصلت فتح الوصية عن منح أولى الجوائز سنة 1901. كثير من المداولات في الأكاديمية السويدية، كانت ضرورية قبل أن تقبل مسؤولية تحمل هذه الجائزة. بعض أعضائها الثمانية عشر، أكدوا سنة 1986 على ثقل المهمة وجسامتها. لأنها تجعل الأكاديمية موضع انتقادات من قبل العالم بأكمله، كما تنعرج بها عن مهمتها الأولى:

Twitter: @ketab_n

السهر على اللغة والأدب الوطنيين، بالاشتغال على المعجم ثم تخصيص جوائز وطنية.

مثل جل مواطنيه، فإن السكرتير الدائم للأكاديمية عند نهاية القرن 19 السيد «Carl David afwirsén»، كان متعدد اللغات. اقترب مشروعه، من فكر ألفريد نوبل الذي استحضر دائمًا: La conversation avec Eckermann، حيث دافع غوته Goethe عن فكرة، «أدب عالمي»: لا يمكن إدراك الآداب الوطنية إلّا في إطار كوني. لقد، خولت جائزة نوبل للأكاديمية السويدية، فرصة استثنائية لكي تعيد تنظيم ذاتها عن طريق إدراك هذا البعد العالمي.

في مكتبه الكبير، الذي تطل واجهته العليا على معلمة «ستورتوغيت»، إحدى الأمكنة الأكثر روعة لستوكهولم القديمة. يتمثل «Horace Engdahl»، السكرتير الدائم الحالي، التاريخ من أجل تفسير الحاضر. يقول: «بسبب جائزة نوبل، فإن أكاديميتنا الحالية، أكثر فكرًا وأدبًا من أكاديمية غوستاف الثالث في القرن 19، التي هيمنت عليها شخصيات رسمية. انطلاقًا، من اللحظة التي قبلنا أثناءها مسؤوليات الجائزة. كان لزامًا، اختيار عناصر لها كفاءات أساسية لكي تتكفل بالتوزيع. اليوم، أكثر من نصف الأعضاء تقريبًا هم: كتاب، البعض الآخر لغويون، أو نقاد للأدب، وكذا مجموعة من الباحثين: ذلك أيضًا، يمثل إسهامًا كبيرًا في أنشطتنا الوطنية».

بالفعل، فيما وراء حدوده. يمارس السويد، وهو البلد المحايد سلطة فريدة، من خلال جائزة نوبل: «يوم 10 دجنبر/

Twitter: @ketab_n

ديسمبر/كانون الأول، يشكل عيدنا الوطني الحقيقي، يضيف السيد السكرتير. مع بداية، شهر دجنبر تعيش السويد بأكملها، على إيقاع احتفالات نوبل. إنها اللحظة، التي يجسد فيها بلدنا سلطة أخلاقية حقيقية أمام العالم أجمع».

I ـ صرامة وسرية:

تمارس الأكاديمية السويدية هذه «السلطة الأخلاقية»، مع انشغالها بالمآخذ التي تصب عليها بهذا الصدد: تقوم اختياراتها على عمل صارم، كما أن مشاوراتها السرية ومسار تقديم الجائزة، يتبعان بدقة وصية نوبل: «أن تتدخل السفارات لدى الأكاديمية؟ يشكل ذلك بالقطع عملًا غير مثمر، يصيح «ديفاي أليكسندر» مستشار ثقافي بسفارة فرنسا. فلجنة نوبل تتمسك باستقلالها المطلق». أما «ياسبير سفينبرو» الذي انتخب للأكاديمية سنة 2006، فيتحدث عن الإرث اللوثري الحاضر جدًّا بين ثنايا الثقافة السويدية: مقاومة الضغوطات مبدأ لا يتحمل أي استثناء. يتم الدفاع عن السرية، بقوة: حينما، كان يقرأ هذا العضو في القطار، مؤلفات المبدعين المنحصرة أسماؤهم في «اللائحة»، فقد أخفى بعناية الأغلفة حتى يتجنب كل إفشاء.

اللائحة الشهيرة، لمرشحي نوبل، ليست عمومية. كما، أن الإشاعات المتواصلة حول الموضوع، تبقى مجرّد تنظير. مع أنها قد تنمو مع الوقت! لم تمنح أبدًا جائزة نوبل لكاتب، في السنة نفسها التي ظهر فيها اسم ترشيحه على اللائحة. نذكر

Twitter: @ketab_n

غالبًا من الجانب الفرنكفوني، شعراء كـ: إيف بونيفو، وأدونيس. أو روائيين مثل: جان ماري غوستاف لوكليزيو، وآسيا جبار. هؤلاء، من نتنبأ لهم باعتبارهم الأكثر يقينًا، يخضعون في آخر لحظة، لقرار حر يصدره أعضاء الأكاديمية: يتذكر «بيرواستبيرغ» واقعة يعود تاريخها إلى سنة 1957، ظلت متوارية في الأرشيفات السرية، واحتفظ بها لمدة خمسين سنة. حينما، اعتبر آنذاك اختيار «كارين بليكسين»، شيئًا محسومًا. وفي آخر لحظة، غيّر أحد أعضاء اللجنة، تصويته: ألبير كامو، هو الفائز!.

ما هي الاستراتيجية التي يتم تطويرها، اتّجاه هذه الصرامة والسرية، لكي نثير حول كاتب الهالة ذاتها، التي تحظى بها جائزة نوبل على المستوى الدولي، وتنعكس على بلدها الأصلي؟ تقضي الوصايا، بأن أولى الاقتراحات ترد من العالم أجمع: أكاديميات وطنية، جامعات، فائزين قدامى بالجائزة، جمعيات للكتاب. يتم أولًا حصر ثلاثمائة اسم، تختار من بينها جائزة نوبل للأدب ـ خمسة من عناصر الأكاديمية، الموكولة لها مهمة الجائزة ـ خمسة عشر إلى عشرين اسمًا، يشكلون «اللائحة الطويلة»، التي ستغدو «لائحة مقتضبة» قبل الصيف، بعد اقتصارها على خمسة أسماء فقط.

تعتبر شهرة الكتاب في الخارج ـ عن طريق ترجمات، ملتقيات وندوات ـ عاملًا أساسيًّا، للتوفر على حظ الترشيح من قبل جمعيات كثيرة، تناط بها مهمة القيام باقتراحات.

Twitter: @ketab_n

II ـ الترجمة طريق للانتخاب:

تحدث «بير واستبيرغ»، رئيس لجنة نوبل للأدب، عن مكابدته «الولع بالقراءة»، وهو ما هيأه لوظيفته. فالاشتغال، على أساس وجهة نظر: الأدب الكوني، أي عدم تهميش أية لغة أو ثقافة، يفترض استثمارًا ضخمًا. لذا، نجد من بين أعضاء الأكاديمية، المنكبين على الأدب الإفريقي كما هو الحال مع «بيير واستبيرغ»، إلى جانب عالم بالحضارة الصينية، ثم مهتمون ينجذبون بشكل خاص نحو أدب اللغة الألمانية أو بلدان الشرق، نشير هنا إلى الباحثة «كاتارينا فروستونسون». مع ذلك، لا تتم تغطية كل العالم.

إضافة، إلى تشبث الأكاديمية الدائم بالتقليد السويدي، القائم على تعدد اللغات. فإننا نلاحظ، حضور عشرات اللغات من خلال مجموع الأعضاء. مع استحالة قراءة، كل الكتاب بلغتهم الأصلية، ولا يترجمون بأكملهم دائمًا إلى السويدية. تستدعي الأكاديمية حينئذ ما يسميه «Horace Engdahl» بـ «الآلة الأدبية لأوروبا»: فرنسا، ألمانيا والآن روسيا، للقيام بنشاط مكثف في الترجمة. تطلب الأكاديمية أيضًا لعملها الخاص، أحكام أهل الاختصاص، تقارير وترجمات. حيث بناء على ذلك، تحسم لجنة نوبل ومعها الأكاديمية في الاختيارات.

تمثل إذن، الخزانة قلب هذه المؤسسة، تحتوي رفوف كتبها التي تتسع كل سنة بعشرات الأمتار الخطية، ما يناهز مائة ألف مرجع، تمس كل الأجناس الأدبية والدراسات النقدية.

Twitter: @ketab_n

تبدأ كل جلسة للأكاديمية، يوم الخميس، في قاعة القراءة. تعرّض آخر الإصدارات على الطاولة، مع تعليقات للمحافظ السيد «لارس ريدكيست» الذي يقوم بعمل تعريفي دقيق، اعتمادًا على المجلات التي تصله من مختلف أنحاء العالم. في هذا الإطار التاريخي، الاحتفالي، يخول الفهرس الإخباري لكل الأعضاء إمكانية الاختيار بين المؤلفات التي يتلقونها: تجسد الأكاديمية السويدية، صورة بلد بأكمله، يتقاسمه سبيل إلى حداثة التكنولوجيات التي تطورت عنده بشكل خاص، وآخر يحترم التقاليد.

يظهر، الهوس الكبير الاجتماعي والاقتصادي السويدي، بحقوق النساء. حسب «كاتارينا فروستونسون» المنتخبة سنة 1992 لعضوية الأكاديمية عن سن الثامنة والثلاثين، بعد حصول مجموعاتها الشعرية الصعبة، على جوائز تقديرية: «وجود خمس نساء فقط بين ثمانية عشر فردًا، شيء قليل جدًّا في اعتقاد السويديين: ينبغي في المستقبل القريب، رفع نسبة النساء بالأكاديمية إلى 50%!. ماذا نقول، في هذا السياق عن الأكاديمية الفرنسية التي لا نجد فيها، إلّا أربع نساء بين أربعين عنصرًا!.

الانفتاح على العالم، كما يوحي به كل حوار مع أعضاء الأكاديمية. ترجمته اختياراتها منذ انتخاب «Horace Engdhal» سنة1999 على رأس منصب السكرتير الدائم. لقد عبر عن تأثره بـ: «المؤلفين الذين لا يكتبون إلّا الروايات، والقصيدة الغنائية أو القطع المسرحية، بحيث تتعاظم في عملهم أهمية

Twitter: @ketab_n

التجارب، وحكايات السفر، وكذا استكشاف الحقيقة المعاصرة». يعتبر أدب الاعتراف، ظاهرة أدبية دالة عن عصرنا كما يرمز لذلك عمل «Naipul»: «لقد كتب روايات جميلة جدًّا، لكن أيضًا رحلات سفر بنمط جديد كليًّا. إنه، لا يستدعي فقط مشاعر واكتشافات الفرد. كتابات متعددة الأصوات، تبرز همسات أشخاص لا نظن أبدًا بوجودهم. لكنه، ليس وجهتنا الوحيدة: فـ «إلفريد جيلينك» هو بالأحرى كاتب الطليعة، تتموقع ابتكاراته في قلب اللغة، أكثر من العالم الخارجي. لا يجب، أن تكون جائزة نوبل للأدب تعبيرًا عن مدرسة. إذا ماثلنا الأدب الكبير، ببعض المبادئ الجمالية، كيفما كانت. فإننا ننزاح عن الصواب».

لكن خلاصات الأكاديمية، لا تفهم، دائمًا جيدًا: أغلب الصحافيين الحاضرين، أثناء الإعلان عن الفائز بالجائزة يجهلون اسم الكاتب. استمرار للسمة الوطنية، ليس تلك للأدب ذاته، ولكن للحكم الذي نحمله عنه، حسب «Horace Engdhal»: «لا يوجد رأي عالمي كوني، فيما يتعلق بالأدب، وعي يجتاز الحدود. فالوعي الأدبي محلي، ينحصر في النظام النقدي وهيئات النشر داخل كل بلد». إضافة، إلى أن انتقاءات السنين الأخيرة، بدت غالبًا كأنها سياسية اتسمت بدعم لكتاب «اليسار»، نظرًا لمناهضتهم كل أشكال الديكتاتورية. تدافع الأكاديمية بقوة عن نفسها، ضد هذا الاقتراب الجلي من جائزة نوبل للسلام. فهي لا تقبل غير خدمة الأدب، وبمعايير أدبية: يدخل في إطار المحرم، كل

Twitter: @ketab_n

تلميح للسياسة أثناء نقاشاتها. وعدم تجنب التأثير السياسي للجائزة، حسب الأكاديمية هو نتيجة وليس قصدًا.

هذا المثال الأعلى في الجدية، الحياد والوعي الأدبي الأسمى، ما يتوخاه السكرتير الدائم إلى جانب كل أعضاء الأكاديمية، بنوع من الاعتقاد الكبير. ألم يوصي ألفرد نوبل، بضرورة ترشيح المبدع بناء على منظور «مثالي»، صفة لا يتم الانتهاء أبدًا من التخمين فيها؟ تلك أجمل طريقة، نعطي بها للأدب فعالية داخل العالم، بدلا من جعله شعاعًا موجهًا لمثال أعلى يصارع كل إيديولوجيات تموضع الإستتيقا فيما وراء الإتيقا والسياسة يؤكد دائمًا السيد السكرتير.

III ـ بعض الأسئلة حول جائزة نوبل:

1 ـ كم هو المبلغ الذي يحصل عليه الفائز بنوبل للأدب؟

ـ عشرة ملايين كورون Couronnes سويدية (أي ما يقارب مليون أورو).

2 ـ هل من الحتمي ترجمة أعمالك إلى السويدية، لكي تفوز بجائزة نوبل؟

ج ـ لا.

3 ـ ما هي مراحل برنامج الانتقاء؟

ـ من نوفمبر/تشرين الثاني إلى 1 فبراير/شباط، تبدأ مهمة تقديم المرشحين إلى لجنة نوبل للأدب وفق اقتراحات تسندها براهين، وذلك من طرف الأكاديميين، قدماء

Twitter: @ketab_n

الفائزين بنوبل، الجمعيات (مثل نادي لوبن Le pen). تشرع اللجنة، بعد ذلك في التقليص التدريجي لمجموع الأسماء، حيث ينتقل العدد من 300 اسم إلى لائحة تتراوح بين 15 إلى 20. تقترح وتناقش من قبل كل أعضاء الأكاديمية في شهر أبريل/نيسان. لكن مع وصول الخميس الأخير من شهر ماي/أيار، ستتقلص اللائحة وتقتصر أخيرًا على 5 أسماء، صوتت عليهم الأكاديمية بالإجماع. إبان الصيف، ينكب الأعضاء على قراءة كل مؤلفات الكتاب المنتقين (ثم الاقتصار على الإصدارات الجديدة، بالنسبة لأولئك المندرجين آنفًا في اللائحة). بعد ذلك، يتحتم على أعضاء اللجنة، كتابة مقالة توضيحية من خمس إلى ست أوراق، حول كل واحد من هؤلاء. ثم القيام بعرض تلك المقاربات أثناء شهر شتنبر/سبتمبر/أيلول. التصويت النهائي، يتم يوم الخميس الذي يسبق الإعلان عن الجائزة، وتحاط وسائل الإعلام بالنتيجة الجمعة، التي تلي التصويت. ثم تعلن عنها الأكاديمية رسميًّا الأسبوع الآخر.

4 - متى يعلن عن جائزة نوبل؟

- عند الواحدة بعد الزوال يوم الخميس الثاني في أغلب الأحيان من شهر أكتوبر/تشرين الأول، عقب اجتماع للأكاديمية. مع إمكانية، الاحتفاظ بحق الإعلان عن النتيجة مبكرًا (الخميس الأخير من شهر شتنبر/أيلول) أو أبعد من هذا التاريخ، بالضبط يوم 15 نونبر/نوفمبر/

Twitter: @ketab_n

تشرين الثاني، كتاريخ نهائي وثابت كما أوصى بذلك ألفرد نوبل.

5 ـ متى وكيف يتم تسليم الجائزة؟

- مع مظهر الليل الذي يخيم على السويد شهر دجنبر/ديسمبر/كانون الثاني، يستقبل الفائز في الفندق الكبير، تصحبه هيئة تتألف من عشرة إلى خمسة عشر شخصًا تتكون حسب رغباته. يوم 7 ديسمبر/كانون الأول، يلقي محاضرة رسمية في القاعة الكبرى للأكاديمية السويدية. في العاشرة منه، وبعد مجموعة من التهييئات لضبط قواعد بروتوكول الملكية السويدية، يسلمه الملك وثيقة مزخرفة من قبل رسام كبير تشهد على جائزته، بفضاء Konserthuset (قصر الحفلات). بعد ذلك، وفي (فندق المدينة) Stadshuset يقام حفل عشاء على شرف كل الفائزين بنوبل في السنة ذاتها، بين جدران قاعة ضخمة على ضفة بحيرة تطل على البلطيق. مع تصوير لكل التفاصيل ونقلها مباشرة على القنوات التلفزيونية.

IV ـ جاو كسينجيان، الفائز بجائزة نوبل سنة 2000.

يوم 12 أكتوبر/تشرين الأول 2000، حينما اتصل «Horace Engdahl» بالكاتب الصيني جاو كسينجيان، لكي يخبره بحصوله على الجائزة. لم يتمكن بعد هذا الأخير، من استرجاع أنفاسه، حتى أدخله الصحافيون الذين تقاطروا قبل ذلك على باب منزله، في دوامة غيرت حياته: حوارات،

Twitter: @ketab_n

استقبالات، مع تفكيره أيضًا، في صياغة الخطاب الذي يتحتم على كل فائز التوجه به، يوم 7 دجنبر/ديسمبر/كانون الأول إلى القاعة الكبرى للأكاديمية. كان من اللازم على جاو الفائز الصيني أن يصارع، لكي ينعزل ويكتب بشأن «جدوى وجود الأدب»، مدافعًا عن مفهومه بخصوص: «الأدب البارد»، حيث يكون: «الكاتب في إطاره شاهدًا محايدًا، يعيش على هامش المجتمع، يعاين الوضع الإنساني ويتلمسه عبر العزلة والصمت، بعد أن يتخلص من كل ارتباط سياسي».

على الرغم من ذلك، تلاحقه السياسة. ظل تحت المراقبة في الصين الشيوعية، إلّا أن هرب وطلب اللجوء في فرنسا سنة 1989 وحصوله على الجنسية الفرنسية سنة 1997: السفير الفرنسي، هو من رافقه يوم 10 دجنبر/ديسمبر/كانون الأول 2000، إلى حفل عشاء فوزه بنوبل. كما هاجمت الصين بقوة اختياره من قبل الأكاديمية، واعتبرته تدخلًا سياسيًّا لا يمكن استساغته، لذلك لم تتوقف المتابعة بعد: فهو دائمًا مراقب في بلده، ولا يدرج ضمن قائمة الحاصلين على نوبل. حينما، كانت الصين ضيف شرف على صالون باريس للكتاب، لم تستدعه للمشاركة.

عززت الجائزة بشكل كبير الشهرة التي كان المؤلف يتمتع بها: ترجم إلى ست وثلاثين لغة مختلفة، ممّا وسع قاعدة قراءته إلى أبعد حد. وكانت كتاباته من أكثر المبيعات حتى في الولايات المتحدة الأميركية. بإمكانه، إذن الانقطاع للأدب والرسم دون الانشغال بوضعه المادي.

Twitter: @ketab_n

لكن في سنة 2003، بعد ثلاث سنوات من المحاضرات والخطابات على امتداد أنحاء العالم، سقط مريضًا بشكل خطير، أدى به إلى إجراء عمليتين جراحيتين،خرج منهما بوهن شديد: توقف عن كتابة الرواية مكتفيًا ببعض القطع المسرحية، لكنه واصل فن التشكيل خاصة، وولوج بعض المدارات الجديدة التي تتأمل الأزمات الحالية للإنسان المعاصر: «التيمة الخالدة للأدب، هي المجتمع الإنساني: ماضيه، مستقبله، ثم ضجره الحالي. علينا التفكير في أفق إيجاد منظور جديد». موضوع يستحق جائزة نوبل للأدب.

Twitter: @ketab_n

الكتاب

هي مقالات، نُقلت إلى العربية، يتعدّد زمانها وتختلف سياقات ورودها، بيد أنها، تلتقي عند ثلاثة محدّدات أساسية تُنسَب إلى علَم من أعلام الفكر الإنساني في روافده الثقافية والسياسية. أو تتحدث عنه، بناءً على رؤية معيّنة. ثم مقاربات أخرى، تطرّقت لقضية جوهرية. لذلك، ارتأيتُ تجميعها بين دفّتي عملٍ واحد، وأتقاسم بالتالي، لذّتها ومُتعتها ومضامينها المعرفيّة الغنيّة، مع القارئ.

حقًّا، لم يكن الأمر وليد مخطّط حاضر قبلًا، بل يُعتبر النتاج حصيلة تراكمات اشتغال يلاحق الجديد، في حدود القدرات الفكرية والذاتية، فتجمّعت هكذا، مادّة نظرية لا غنى عنها، وُثّقت، كي تُمارَس بشكلٍ من الأشكال وباستمرار، زخمها المفهومي والمنهجي. نصوص، استُقِيَت من مجلاتٍ فرنسية متخصّصة، وكذا ملفّات ثقافية تحويها أسبوعيًّا، جرائد عريقة.

إن الخيط الناظم، الموحّد لمضامين المقالات الحالية، يكمُن في طابع المناسباتية، الكيفيّة والنوعيّة: الفوز بجائزة من حجم نوبل. الوفاة، وما تستلزمه من تأبين وإشادة بمناقب الراحل، وما خلّفه للبشريّة من قيم فكرية ملهمة. الولوج إلى مكتبة البلياد (La Pléiade)، أو مصنّفات الأدباء الخالدين، كما الحال مع كونديرا. صدور حديث لإحدى أرشيفات هؤلاء الأعلام، أو دراسة حوله، أو اكتشاف جديد عنه....

من جهة ثانية، وظّفت أربع مقاربات تختلف عن المناحي السابقة، لكنها تثير قضايا ومفاهيم في غاية الأهمية: استحضار وجهة نظر إدوارد سعيد في اللغة العربية. مستويات ظفر الكتّاب بوضع اقتصاديّ مريح أو العكس من خلال الأدب. الخبايا، التي ترقُد وراء الأسوار العالية لأكاديمية نوبل. هوس روائيّ، في قيمة خوان غويتسولو بفضاء جامع الفنا. الوقوف، عند آخر عناوين عبد الله الطايع الكاتب المغربيّ الفرنكفوني، الذي التحق في السنين الأخيرة بأسماء المشهد الأدبي.

ISBN 978-614-418-120-1
9 786144 181201
Jadawel جداول
www.jadawel.net